

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة والاعلام

مف
أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة

مارس - أبريل ١٩٦٩

صور من دور الأزهر

في

مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر

للاستاذ الدكتور

عبد العزيز محمد الشناوي

أستاذ كرمي التاريخ الحديث بجامعة الأزهر



منبعة دار الكتب

١٩٧١

اهداءات ٢٠٠١

الأستاذ الدكتور / عبد الفتاح منصور

جُمْهُورِيَّةُ مِصْرَ الْعَرَبِيَّةِ

وَرَارَةُ الْفَنَاءِ وَالْأَعْلَامِ

أَبْحَاثُ النَّدْوَةِ الدَّوْلِيَّةِ لِلتَّارِيخِ الْقَاهِرَةِ

مَارَس - أَيْرِيل ١٩٦٩

صَوَرٌ مِّنْ دَوْرِ الْأَزْهَرِ فِي

مَقَاوِمَةِ الْاِحْتِلَالِ الْفَرَنْسِيِّ لِمِصْرَ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ

لِلْأَسَاطِذِ الدُّكْتُورِ

عَمْدِ الْفَرْزِيَّةِ مُحَمَّدِ الشَّنَّأَوِي

أَسَاطِذُ كَرَمِ التَّارِيخِ الْحَدِيثِ بِجَامِعَةِ الْأَزْهَرِ

بَحْثُ نَوْقَشٍ فِي النَّدْوَةِ الْعَلَمِيَّةِ الدَّوْلِيَّةِ لِأَلْفِيَّةِ الْقَاهِرَةِ فِي الْجُلُوسَةِ

الصَّبَاحِيَّةِ الَّتِي عَقِدَتْ فِي ٣١ مِّنْ مَّارَس ١٩٦٩

مَطْبَعَةُ دَارِ الْكُتُبِ

١٩٧١

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

من نقاط البحث الرئيسية

- سياسة بونابرت الإسلامية :
- حكومة الديركتوار تضع خطة عمل دبلوماسي تحدد المركز القانوني لمصر تحت الحكم الفرنسي :
- مظاهر من سياسة بونابرت الإسلامية :
- الأزهر يتنادى إلى الثورة في أكتوبر ١٧٩٨ :
- السبب الرئيسي لثورة أكتوبر :
- عوامل مشجعة : تحطيم الأسطول الفرنسي ، استحالة وصول تعزيزات عسكرية من فرنسا ، اندلاع ثورتين في المنصورة ودمياط :
- عوامل مساعدة : النساءيات - القاهرة الخليفة - تعيين يوناني شرس وكيلا لمحافظة القاهرة - استيلاء المسيحيين على إيراد الأوقاف الإسلامية - استعلاؤهم على المسلمين - إعدام محمد كريم - القروض الإجبارية - التشريعات المالية :
- تكوين مجلس الثورة وأساليبه في تحريك ثورة هادرة :
- مجلس الثورة يحدد ساعة الصفر :
- الأزهر مركز الثورة :
- عرض سريع لأحداث الثورة :
- بونابرت يأمر بهدم الجامع الأزهر ليلا إذا أمكن :

- إعدام علماء الأزهر بطريقة وحشية .
- خصائص ثورة أكتوبر .
- ثورة دينية .
- ثورة نظيفة .
- ثورة إنسانية .
- العلاقة بين الشيخ محمد السادات رئيس مجلس الثورة وبين الفرنسيين .
- مزيد من سياسة بونابرت الإسلامية عقب ثورة أكتوبر .
- حقيقة العلاقات بين الأزهر وبين سلطات الاحتلال الفرنسي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في صيف ١٧٩٨ هبطت أرض مصر حملة فرنسية يقودها الجنرال بوناپرت ، وكانت هذه الحملة أول غزو عسكري أوروبي في التاريخ الحديث لبلد عربي إسلامي من بلاد الدولة العثمانية ، وإذا كان هذا الغزو قد سبقته سيطرة الدول الاستعمارية الكبرى : بريطانيا وفرنسا وهولندا ، على دول وإمارات إسلامية في أواسط آسيا ، وجزر الهند الشرقية ، والهند ، إلا أن هذه السيطرة الأوروبية المبكرة لم تمس قلب العروبة ، كما فعلت حملة بوناپرت على مصر .

سياسة بوناپرت الإسلامية

أدرك بوناپرت في وقت مبكر أنه مقدم على تجربة جديدة في حكم شعب شرقي ، له حضارة تليدة ، وتختلف دياناته ولغته وثقافته وتقاليده عن مثيلاتها لدى الشعوب الأوروبية ، ولذلك اتجهت أنظار بوناپرت من أول الأمر إلى الأزهر وإلى المشايخ علماء الأزهر ، على أساس أن الأزهر هو مركز الدراسات العليا الإسلامية العربية في مصر ، وأنه يتبوأ مكاناً علياً في العالم الإسلامي : وقد قرر في مذكراته التي أملاها في منفاه بجزيرة سانت هيلانة ، أن الأزهر يقابل جامعة السوربون La Sorbonne في باريس ، وأنه أشهر جامعة في الشرق^(١) . ونظر بوناپرت إلى المشايخ علماء الأزهر نظرة إجلال وتقدير عميقين ،

(1) Napoléon I^{er}; Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie, 1798-1799. Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui-même à Sainte-Hélène et publiés par le général Bertrand, Paris, 1847, 2 vols. t. I, p. 212.

استناداً إلى أن لهم صفتين : الصفة الأولى أنهم الصفوة الممتازة من الطبقة^(١) المستنيرة في البلاد ، المتعمقون في الدراسات الدينية واللغوية ، أو السوربون^(٢) Les Sorbonistes ، وعلى مبلغ علمي ، كان بونايرت أول من أطلق على المشايخ علماء الأزهر المصطلح الجامعي الحديث « دكاترة الشريعة »^(٣) Les Docteurs de la loi ، وأما الصفة الثانية فهي أنهم زعماء الشعب المصري ، اعتاد أن يفزع إليهم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بوجه خاص ، عندما انتهالت عليه المظالم من يمين ويسار ، فكان علماء الأزهر يتدخلون لدى الحكام لرفع المظالم عن الشعب الكادح . وفي ظل الأوضاع التي كانت سائدة في مصر وقتذاك ، كان علماء الأزهر فعلاً ، وفي نظر بونايرت ، أكثر عناصر المجتمع المصري نفوذاً وهيبة ، وعلماء واحتراماً ، واستقراراً .

وقد أرسى بونايرت مبادئ عامة للسياسة التي اعتزم انتهاجها في حكم المصريين ، وأطلق المؤرخون الأوروبيون على هذه السياسة المصطلح التاريخي : سياسة بونايرت الإسلامية^(٣) La Politique Musulmane de Bonaparte ، وقامت هذه السياسة على إظهار الاحترام العميق للدين الإسلامي ، والتقاليد الدينية ، وإسهام الجيش الفرنسي إسهاماً رسمياً مع الشعب المصري في الاحتفال بالأعياد

(١) من مدلولات هذه اللفظة باللغة الفرنسية : الحائزون لدرجة الدكتوراه في العلوم الدينية من جامعة السوربون .

(٢) انظر على سبيل المثال ما جاء في مذكراته السابق الإشارة إليها .

t. I. pp. 369-371.

t. II p. 152.

وانظر جريدة :

Courrier de l'Egypte. No. 6. Le 2ème jour complémentaire, Viè année de la République. p. 1.

(3) Charles-Roux (F.) ; La Politique Musulmane de Bonaparte. Revue des Etudes Napoléoniennes. XIV^e année t. I, janvier-février, 1925, pp. 23-47.

الدينية الإسلامية وغيرها من الأعياد التي كانت الجماهير تحتفل بها ، والتقرب إلى المشايخ علماء الأزهر ، وإعطاء كبارهم مزيداً من النفوذ ، وقدرًا من السلطة ، باختيارهم أعضاء في ديوان القاهرة ، وسائر الدواوين التي اعتزم إنشاءها في أقاليم مصر ، وبذلك يضمن على حكومته الطابع الإسلامي ، على أن يمارس المشايخ علماء الأزهر ذلك النفوذ وهذه السلطة ، تحت إشراف الفرنسيين ومراقبتهم :

وقد وضع بونابرت في ذهنه أن يتخذ من هؤلاء المشايخ العلماء أداة يوضحون له المسائل التي يستعصى عليه تفهمها من ناحية ، ويشرحون للجماهير الشعب حقيقة المشروعات التي يعتزم تنفيذها من ناحية ثانية ، وينقلون إلى السلطات الفرنسية مشكلات الجماهير وشكاياتهم من ناحية ثالثة . وكان قيام المشايخ علماء الأزهر بهذا الدور — في تقدير بونابرت — كفيلاً بتنقية الجو بين الحاكم والمحكومين ، وقطع دابر مروجى الشائعات ، وأهم من ذلك كله ، كسب تأييد علماء الأزهر للحكم الفرنسي ، ويكون لهذا التأييد أصداء بعيدة في نفوس جماهير الشعب المصري ، فيخلدون إلى السكينة ، وعدم المقاومة : وكان نجاح هذه السياسة الإسلامية — إذا قدر لها النجاح — مؤدياً في آخر الأمر إلى إنشاء المستعمرة الفرنسية التي أرسلت حكومة الديركتوار صفوة العلماء الفرنسيين والقادة العسكريين ، لمعاونة القائد العام للحملة على إنشاءها^(١) ، وبعبارة أخرى ، كان الهدف النهائي من هذا التنظيم هو توطيد دعائم الحكم الفرنسي في مصر ، وقد أفصح بونابرت في مذكراته عن البواعث التي أملت

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على . القاهرة . لم تذكر سنة للطبع . الناشر : دار المعارف ، ص ١٦٣ .

(١) عليه التقرب إلى المشايخ علماء الأزهر : فمال : إنهم زعماء الشعب المصري ، وإنهم ظفروا بثقة ومودة سكان مصر على بكرة أبيهم ، ومضى يقول : إن مشاعر الغيرة والحق قد افتعلت في نفوس الأتراك العثمانيين والمماليك على علماء الأزهر ، فجعلتهم يعملون على إقصاء هؤلاء العلماء عن المشاركة في تصريف الشؤون العامة . وقرر بونايرت أنه كان من خطل الرأي أن يحذو الفرنسيون حذو الأتراك العثمانيين والمماليك في انتهاج هذه السياسة ، كما أنه كان في حكم الاستحالة أن يتطلع الفرنسيون إلى ممارسة نفوذ سريع على المصريين ، لأن الفرنسيين أغراب عن الشعب المصري ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة — في نظر بونايرت — إلى وسطاء بين الحكام الفرنسيين وبين جماهير الشعب ، ثم قال : « وقد فضلت العلماء ودكاترة الشريعة ، لأنهم — أولاً : هم كذلك بطبيعة الحال ، وثانياً : لأنهم هم مفسرو القرآن ، وإن أكبر العقبات التي واجهتنا ، وسوف تواجهنا أيضاً ، إنما تنبثق عن الأفكار الدينية ، وثالثاً : لأن هؤلاء العلماء ذوو طباع هادئة ، ويحبون العدالة ، وعلى درجة من الثراء ، وأصحاب مبادئ خلقية عالية ، وهم بدون منازع أكثر الناس أمانة في مصر ، ولا يركبون الخيل ، ولا يمارسون أعمالاً عسكرية ، ولا ينتظر منهم تزعم حركة مسلحة » .^(٢)

(١) قال بونايرت في مذكراته « إن العلماء كبار المشايخ هم قادة الشعب العربي » . وكان يقصد المصريين بعبارة الشعب العربي ، لأنه ذكر بعد ذلك مباشرة أن هؤلاء العلماء ظفروا بثقة ومحبة جميع سكان مصر ، ويلاحظ أيضاً أن بونايرت والكتاب الفرنسيين المعاصرين الحملة وعلماءها كانوا يطلقون لفظة « العرب » على المصريين عمومًا ، سواء في الريف أو في الحضر ، ولم يقصروا استعمال هذه اللفظة على عرب البادية ، كما جرت عادة الناس حتى ذلك الوقت .

انظر :

محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدروس العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم . مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٤٤ .

(٢) كان ما جاء في مذكرات بونايرت :

“Les ulémas, les grands cheykh s sont les chefs de la nation arabe; ils ont la confiance et l'affection de tous les habitants (sic) de =

دبلوماسية حكومة الديركتوار

وبجانب هذه السياسة الإسلامية التي اعتزم بونابرت انتهائها في حكم الشعب المصري ، كانت هناك خطة عمل دبلوماسية وضعت بعناية في وزارة الخارجية الفرنسية قبل إبحار الحملة إلى مصر ، وكان من بين أهداف هذه

= l'Egypte, c'est ce qui a, dans tous les temps, inspiré aux Turcs et aux Mamelouks tant de jalousie contre eux, et les a décidés à les tenir loin du maniement des affaires publiques. Je n'ai pas cru devoir imiter cette politique. Il nous est impossible de prétendre à une influence immédiate sur des peuples pour qui nous sommes si étrangers. Nous avons besoin pour les diriger d'avoir des inter-médiaires; nous devons leur donner des chefs, sans quoi ils s'en choisiraient eux-mêmes. J'ai préféré les ulémas et les docteurs de la loi.

1^e. parce qu'ils l'étaient naturellement.

2^e. parce qu'ils sont les interprètes du Coran, et que les plus grands obstacles que nous avons éprouvés et que nous éprouverons encore, proviennent des idées religieuses.

3^e parce que ces ulémas ont des mœurs douces, aiment la justice, sont riches et animés de bons principes de morale. Ce sont sans contredit les plus honnêtes gens du pays. Ils ne savent pas monter à cheval, n'ont l'habitude d'aucune manœuvre militaire, sont peu propres à figurer à la tête d'un mouvement armé. Je les ai intéressés à mon administration. Je me suis servi d'eux pour parler au peuple; j'en ai composé les divans de justice; ils ont été le canal dont je me suis servi pour gouverner le pays. . . . »

انظر :

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. II, pp. 151-152.
ولا شك أن بونابرت كان يتجاهل الأحداث التاريخية حين قرر في مذكراته أن علماء الأزهر لا ينتظر منهم أن يتزعموا حركة مسلحة ، والواقع أن علماء الأزهر قادوا ثورة هادرة في أكتوبر ١٧٩٨ على الحكم الفرنسي ، ثم اشتركوا في قيادة ثورة عارمة في شهرى مارس وإبريل ١٨٠٠ على هذا الحكم أيضاً ، وقادوا ثورة ثالثة في سنة ١٨٠٥ على وال عثمانى عالىم هو خورشيد باشا ، وهى الثورة التى جاءت بمحمد على والياً على مصر ، وكان الشيخ عبد الله الشمرقارى شيخ الجامع الأزهر ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف من زعمائها ، ومن المعروف أن بونابرت ألقى مذكراته وهو في منفاه في جزيرة سانت هيلانة عقب هزيمته في معركة واترلو سنة ١٨١٥ ، بمعنى أنه عاصر هذه الثورات الثلاث ، واشترك في إخماد الثورة الأولى .

الخطوة الإبقاء على العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وبين فرنسا ، وإظهار فرنسا بمظهر الدولة الخليفة للسلطان ، الخريصة على احترام السيادة العثمانية على مصر ، وأنها لم توجه حملتها العسكرية إلى مصر إلا ابتغاء القضاء على الأمراء المماليك الذين استأثروا بالحكم ، وتجاهلوا حقوق السلطان ، وأوغلوا في الإساءة إلى الرعايا الفرنسيين : وكان في تقدير بونايرت أن هذه الخطوة الدبلوماسية تهيء مناخاً صحياً للحملة في مصر لإعلان صداقة فرنسا للسلطان ، الأمر الذى يخفف من مقاومة الشعب المصرى للحملة ، ويجعله يتقبل الحكم الفرنسى في ظل سيادة عثمانية اسمية ، وبعبارة أخرى يقوم نوع من التعايش السلمى بين المصريين وبين الفرنسيين في مصر :^(١)

(١) قامت خطة العمل الدبلوماسى على إجراء مفاوضات سياسية مع الباب العالى فور نزول القوات الفرنسية الأراضى المصرية ، وأن تعمل السفارة الفرنسية في الآستانة على إطالة أمسدة المفاوضات شهرين أو ثلاثة أشهر كسباً للوقت ، ريثما يتمكن بونايرت من توطيد مركز الحملة عسكرياً في مصر ، وبذلك يقوى مركز المفاوض الفرنسى ، ويضع رجال الباب العالى أمام الأمر الواقع .

ووضعت الخطة على أساس تقديم مشروع ، فإذا رفضه الباب العالى قدم المفاوض الفرنسى مشروعاً ثانياً ، ويقوم المشروع الأول في خطوطه الرئيسية على احتفاظ السلطان بالسيادة الاسمية على مصر ، مع وجود القوات الفرنسية بها ، فيعين السلطان نائباً عنه في مصر يحمل رتبة باشا ، ويكون لهذا الباشا رئاسة شكلية على الحكومة المصرية ، ويتولى الفرنسيون حكم مصر ، بدلا من الأمراء المماليك ، وتدفع فرنسا بانتظام للسلطان جزية سنوية قدرها ألف وخمسمائة كيس (الخمسة جنيهات) ، ويتعهد الفرنسيون باحترام ديانة المصريين وأرواحهم وعتاكرتهم ، أما المشروع الثانى فيقوم على تنازل الدولة العثمانية لفرنسا عن مصر ، في مقابل استيلائها على الجزر الأيونية ، وتتعهد فرنسا بمساعدة الدولة العثمانية على استرداد بعض الولايات التى فقدتها مثل بلاد القرم ، وكانت روسيا قد انتزعتها منها بمقتضى معاهدة كيتشك كينارجى عام ١٧٧٤ .

وكان منصب سفير فرنسا في الآستانة شاغراً في ذلك الوقت ، منذ أن توفى فجأة أوبير ديبايه Aubert Dubayet السفير الفرنسى في أواخر سنة ١٧٩٧ ، وكان يمثلها قائم بالأعمال ، يسمى روف Ruffin ، ورأت حكومة الديركتوار ضرورة الإسراع بشغل هذا المنصب ، وتعيين أحد الدبلوماسيين البارزين ، واقترح بونايرت أن يكون هذا السفير هو تاليران Talleyrand وزير الخارجية الفرنسية نفسه ، وأن يتسلم مهام منصبه في أوائل شهر مايو ١٧٩٨ قبل تمركز الحملة إلى مصر - وكان مقررأ لوصولها شهر أغسطس ١٧٩٨ - حتى يكون وجود السفير =

مظاهر من سياسة بوناپرت الإسلامية

تلاحقت مظاهر سياسة بوناپرت الإسلامية وهو لا يزال في عرض البحر المتوسط ، في طريقه إلى مصر ، وتمثلت المظاهر الأولى في عدة منشورات ، كتبها وهو على ظهر بارجة القيادة أوريان Orient ، فأصدر منشوراً مؤرخاً في الثاني والعشرين من يونيو ١٧٩٨ إلى جيش الشرق ، وأذيع على الجنود في الثامن والعشرين من يونيو ، أي قبل وصول الحملة إلى الإسكندرية بيومين ، وقد أوضح بوناپرت للجنود أن الشعب المصري يدين بالإسلام ، وأن أول ركن من أركان الدين الإسلامي هو الشهادتان « لا إله إلا الله ، محمد

الفرسي في الآستانة ، مخففاً للأثر السيئ الذي يتركه في دوائر الباب العالي نزول القوات الفرنسية في مصر ، وأن يتخذ الإجراءات للمحافظة على سلامة الرعايا الفرنسيين ، وأن يبذل مزيداً من الجهود لتبديد شكوك الباب العالي ومخاوفه من فرنسا ، وأن يشرع فوراً في إجراء المفاوضات على النحو الذي شرحناه .

ولم ينفذ شيء مما جاء في خطة العمل الدبلوماسي لعدة أسباب ، كان من أبرزها إحجام تاليران عن الذهاب إلى الآستانة سفيراً لفرنسا ، ونشاط الدبلوماسية الإنجائزية والروسية ، وتمهاسيم الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية ، وتلكؤ باريس في تعيين سفير لها في الآستانة بدلاً من تاليران ، فلم يصدر قرار بتعيين ديكورش Descorches سفيراً في الآستانة إلا في الثاني من سبتمبر ١٧٩٨ ، وبينما كان يستعد للسفر إلى مقر منصبه ، كانت الحكومة النمائية قد حددت موقفها بشكل نهائي وحاسم من العدوان الفرنسي على مصر ، فأصدرت في التاسع من سبتمبر ١٧٩٨ منشوراً ضد فرنسا والحملة الفرنسية ، ثم اعتقلت في آخر سبتمبر رؤسا القائم بالأعمال الفرنسي ، وأودعته قلعة الأبراج السبعة المسماة يدى قوله ، وألقت القبض على رعايا فرنسا ، وزجت بهم في السجن ، وكان هذا الإجراء التقليدي بمثابة إعلان الحرب على فرنسا .

انظر بخصوص خطة العمل الدبلوماسي التي قامت بجانب سياسة بوناپرت الإسلامية ، واعتبرت مكملة لها ، كلا من :

La Jonquière (C.) ; L'Expédition d'Egypte 1798 - 1801. Paris, Charles-Lavauzelle, 1899 - 1907. 5 vols. t. II. pp. 587-609.

Shafik Ghorbal ; The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehmet Ali. A Study in the Diplomacy of the Napoleonic Era based on Researches in the British and French Archives. London, 1928. pp. 35 - 36.

رسول الله ، فلا ينبغي على الفرنسيين معارضة المصريين في عقيدتهم الدينية ، أو تخطئهم فيها ، بل عليهم أن يسلكوا معهم نفس المسلك الذى اتبعوه من قبل مع اليهود والإيطاليين ، وعليهم أن يظهروا نحو المشايخ والأئمة الاحترام الذى أظهره للاحكامات اليهود وأساقفة المسيحيين ، وعليهم أن يكونوا متسامحين حيال الأعياد والاحتفالات التى يذكرها القرآن الكريم ، وأن يحترموا المساجد كما يحترمون كنيس اليهود وكنائس المسيحيين والأديرة ، وأن يحترموا ديانة محمد ، كما يحترمون ديانة موسى وديانة المسيح ، ومضى بوناپرت فى منشوره يقول للجنود : إن فى مصر عادات تختلف عن العادات فى أوروبا ، فلا مناص من أن يعتادها الجنود ويألفوها ، وذكر أن معاملة المصريين للسيدات تختلف عن معاملة الفرنسيين هن ، وقال : إن الشخص الذى يعتدى على سيادة فى أى بلد من بلاد العالم إنما هو شخص ذئب ، وحذر بوناپرت جنوده من ارتكاب أعمال النهب ، وقال إن مثل هذه الأعمال تثرى أقاليم ضئيلة من رجال الجيش ، ولكن ضررها ينسحب ويمتد إلى كل الفرنسيين ، ويجعلهم موضع كراهية شديدة من الشعب المصرى ، وأكد لهم أن مصالحة الفرنسيين تتطلب اكتساب صداقة المصريين ومودتهم^(١) :

ويعتبر هذا المنشور من المعالم الأولى لسياسة بوناپرت الإسلامية ، وقد أراد أن يحمل جنوده على التزام هذه السياسة ، ويلاحظ أن توزيع هذا المنشور كان مقصوداً على العسكريين الفرنسيين دون سواهم ، وقد جاء فى صورة أمر عسكري واجب التنفيذ ، صدر عن القائد العام لجيش الشرق ، ولم يعام به الشعب المصرى ، واستهدف بوناپرت منه اجتذاب قلوب المصريين نحو

(1) Napoléon 1^{er}; Correspondance de Napoléon 1^{er}, publiée par ordre de l'Empereur Napoléon III. Paris, Henri Plon, 1858 - 1870, 32 vols. t. IV; doc. no. 2710, en date du 4 Messidor VI^e année de la République (22 juin, 1798),

الفرنسيين ، لاذ يرون جيشاً أوروبياً مسيحياً يستولى على بلادهم عنوة ، ولا يلجأ إلى أعمال النهب والسلب ، والقتل وانتهاك الحرمات^(١) .

* * *

وكتب بوناپرت أيضاً وهو على ظهر البارجة أوريان منشوراً باللغة الفرنسية موجهاً إلى الشعب المصرى شرح فيه الخطوط الرئيسية للسياسة التى يعتزم انتهاجها فى مصر ، وقام المستشرقون المرافقون للحماية بترجمة المنشور إلى اللغة العربية ، وساعدهم مترجمون من الأسرى المسلمين الذين كان فرسان القديس يوحنا قد اعتقلوهم فى جزيرة مالطة منذ سنوات طويلة ، وألقوا بهم فى غيابة السجن ، وأطلق بوناپرت سراخهم عقب استيلائه على الجزيرة وهو فى طريقه إلى مصر^(٢) ، وقد جاءت الترجمة غير دقيقة وفى أسلوب ركيك ،

(١) بلغ من حرص بوناپرت على تنفيذ هذه السياسة أنه أصدر عقب استيلائه على الإسكندرية أمراً عسكرياً إلى قادة الجيش ، طلب فيه ضرورة احترام الدين الإسلامى ، والحفاظة على أرواح الأهالى وممتلكاتهم ، وإطلاق الحرية التامة للمصريين فى إقامة الصلاة فى المساجد ، كما كانوا يفعلون من قبل ، وتحريم دخول أى فرنسى ، سواء كان عسكرياً أو مدنياً المساجد ، ومنع الفرنسيين من الاحتشاد أمام أبوابها . وأمر بوناپرت فى هذا المنشور قادة الجيش بأن يصدروا الأوامر لجميع ضباط الكتائب بإذاعة هذه الأوامر على الجنود ، والتنبيه عليهم بتجنب أعمال السلب والنهب ، ومعاينة كل من يخالف هذه الأوامر بالإعدام رمياً بالرصاص . وأمر أيضاً بأن يدفع الجنود أثمان السلع التى يبتاعونها ، وأن تكون الحرب محصورة بين الفرنسيين والماليك ، انظر نص هذا المنشور فى :

Correspondance de Napoléon; t. IV, doc. no. 2734 en date du 15 Messidor, VI^e année de la République (3 juillet, 1798).

(٢) استغل بوناپرت هذا الحادث سياسياً ، تمشياً مع خطة العمل الدبلوماسى التى أشرنا إليها ، فعهد إلى الجنرال شابو Chabot قائد الحامية الفرنسية فى جزيرة كورفو بالاتصال بالقائم بأعمال السفارة الفرنسية فى الآستانة وهو روفان Ruffin ليقوم بإبلاغ الباب العالى أن الجيش الفرنسى قد أطلق سراخ الأسرى المسلمين فى جزيرة مالطة ، عقب سحق قوات فرسان القديس يوحنا ، وكان المعتقلون المسلمون أخلاطاً شتى من الأتراك والمغاربة والشوام وغيرهم ، وكلهم من رعايا الدولة العثمانية ، وبلغ عددهم سبعمائة أسير : قدم لهم بوناپرت الملابس والنقود والأطعمة قبل السماح لهم بالسفر إلى بلادهم .

انظر ما كتبه بوناپرت عنهم فى مذكراته :

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I, p. 133.

وأضيفت إليها- بتوجيه من بونايرت- عبارات لم ترد في الأصل الفرنسى كما سنرى ، وأمر بونايرت بطبع الترجمة العربية للمنشور ، والحملة لا تزال في عرض البحر ، حتى يكون المنشور معداً للتوزيع على أفراد الشعب المصرى بمجرد وصول الحملة إلى الإسكندرية ، وكان بونايرت قد أحضر مع الحملة مطبعة مزودة بالحروف الفرنسية واليونانية والعربية التى جمعها من باريس ، ثم استكمل لها الحروف العربية الناقصة من مطبعة البروباجندا فى روما^(١) ، ولما نزلت الحملة فى الإسكندرية فى يوم الاثنين الثامن عشر من محرم ١٢١٣ الموافق الثانى من يوليو ١٧٩٨ وزع المنشور على المصريين ، كما أرسلت نسخ منه إلى القاهرة مع أسرى مالطة ، فوزعوه فى العاصمة قبل وصول الفرنسيين إليها .

بدأ بونايرت منشوره إلى الشعب المصرى بهذه العبارات الدينية : « بسم الله الرحمن الرحيم : لا إله إلا الله ، لا ولد له ، ولا شريك له فى ملكه^(٢) : من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية^(٣) السر^(٤) عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونايرته ، يعرف أهالى مصر جميعهم أن : : : »

(١) كان بونايرت قد كتب إلى مونج Monge العالم الفرنسى فى الرياضيات وإلى الجنرال ديزيه Désaix ، وكانا فى روما ، يطلب منهما الاستيلاء على القسم العسكرى من مطبعة البروباجندا ، وأن يتعاقدا مع بعض المترجمين من الشرقيين المقيمين فى إيطاليا ، وقد تم التعاقد مع الخواجه إلياس فتح الله ، والخواجه يوسف مسابكى وغيرهما .

(٢) يلاحظ أن الأصل الفرنسى جاء خالياً من هذه العبارات الدينية ، وقد استهل بونايرت المنشور بهذه العبارة :

« بونايرت عضو المجمع العلمى القومى ، والقائد العام لجيش الشرق » .

ويلاحظ أيضاً على الترجمة العربية أنها ذكرت إحدى الشهادات وهى : « لا إله إلا الله » وأغفلت الشهادة الثانية وهى : « محمد رسول الله » .

(٣) التسوية يقصد بها المساواة L'égalité .

(٤) السر عسكر ، مصطلح قاريخى ، يتكون من كلمتين : إحداهما فارسية والأخرى عربية ، ومعنى هذا المصطلح رئيس الجند ، أو القائد العام .

وهذه اللفظة المركبة تكتب في بعض المصادر التاريخية ، مجردة من أداة التعريف ، وفي مصادر أخرى مضافاً إليها أداة التعريف بصيغتين مختلفتين :

السارى عسكر ، سارى العسكر

وتجمع في المصادر التاريخية في صيغ مختلفة .

سوارى عسكر ، سوارى عساكر ، سوارى العساكر .

كما أن هذه اللفظة المركبة تظهر في مصادر تاريخية ، مكتوبة بعرف الصاد بدلاً من حرف السين على النحو الآتي :

صارى عسكر ، صوارى عسكر ، صوارى عساكر .

ويذكر الجبرقي هذه اللفظة المركبة تارة بعرف السين ، وتارة بعرف الصاد .

انظر :

عبد الرحمن الجبرقي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٧ هـ ، ١٨٨٠ م أربعة أجزاء ، ج ٣ .

وفي المرات التي تظهر هذه الكلمة مكتوبة بعرف السين ، نذكر على سبيل المثال ص ٤ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٩٦ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٨ الخ .

وفي المرات التي تظهر هذه الكلمة مكتوبة بعرف الصاد ، نذكر على سبيل المثال ص ١١ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٨ ، ٢٩ الخ .

وأورد الجبرقي عبارة حددت معنى هذه الكلمة ، وقد جاءت في ثنايا منشور على النحو التالي : « من عبد الله جاك منو سر عسكر أمير عام جيوش دولة جمهور فرنساوية بالشرق ، ومظاهر حكومتها ببر مصر حالا إلى كافة المشايخ والعلماء الكرام ... » ج ٣ ، ص ١٤٩ .

ونخت الجبرقي من هذه الكلمة اسماً عاماً هو السر عسكرية ، فقال بعد أن تكلم عن مصرع الجنرال كليبر وتشجيع جنازته إنه « انقضى أمره ، واستقر عوضه في السر عسكرية قائمقام عبد الله جاك » ج ٣ ، ص ١٣٤ .

وانظر أيضاً بخصوص هذه اللفظة كلا من :

على مبارك باشا : الحفظ التوفيقي الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، بولاق ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) ، عشرون جزءاً ، ج ٩ ص ٦٦ .

أمين سامي باشا : تقويم النيل . الجزء الثاني ، القاهرة ، ١٩٢٨ ، ص ٢٨٩ .

Dozy : Supplément aux dictionnaires arabes. 2ème édition, leide-Paris. 1927. t I, p. 649.

Deny : Sommaire des Archives Turques du Caire. Le Caire. 1930. p. 67.

أكد بوناپرت في أكثر من موضع في هذا المنشور أنه لن يتعرض بسوء للدين الإسلامي ، بل إنه أكثر من المماليك عبادة لله ، واحتراماً لنبيه صلوات الله عليه ، وللقرآن الكريم ، وقرر في منشوره أن الفرنسيين مسلمون مخلصون ^(١) ، وحاول أن يقيم الدليل على صحة هذا الزعم ، فقال إن الأمة الفرنسية وجهت الجيش الفرنسي إلى روما ، وحاربت البابا لأنه كان يحرض دائماً النصارى على محاربة المسلمين ^(٢) ، وأضاف بوناپرت إلى ذلك قوله : إنه وهو في طريقه

وقد نحت كل من على مبارك باشا وأمين ساي باشا صفة من هذا الاسم ، فقالا سر عسكري ، واثنرد أمين ساي باشا بنحت صيغة أخرى للصفة ، مشتقة من هذا الاسم هي : سرى عسكر . وقد استخدمت كلمة سر عسكر في اللغة الفرنسية بنفس المعنى : قائد عام الجيش ، وهي تكتب في اللغة الفرنسية بإحدى صيغتين : séraskier أو sérasquier

انظر :

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. II. p. 113.

(١) جاءت هذه العبارة في الأصل الفرنسي :

« إنا أصدقاء للمسلمين المخلصين »

"Que nous sommes amis des vrais musulmans".

ولم يقع هذا التحريف في الترجمة عفواً ، بل جاء مقصوداً ، ولم يقبل بوناپرت أن يسجل على نفسه هذا الإقرار في الأصل الفرنسي بأن الفرنسيين مسلمون مخلصون صادقون مهما قيل من مبررات ، أمام الرأي العام الفرنسي ، ولكن قام المترجمون بإدخال هذا التعديل وغيره في الترجمة العربية بعوجيه من بوناپرت .

وقد ناقش أحد الباحثين الأوروبيين أسباب وجود الاختلاف بين الأصل الفرنسي كما وضعه بوناپرت ، وبين الترجمة العربية التي وضعها مترجمو الحملة ، وكما وزعت على الشعب المصري .

انظر :

Chauvin Victor; La Légende Egyptienne de Bonaparte. Mons., 1902, pp. 36 - 37.

(٢) كانت هذه العبارة من باب التوبيخ على المصريين ، واستغلال عدم معرفتهم في ذلك الوقت بأحداث الثورة الفرنسية ، والحقيقة أن الجيش الفرنسي كان موجهاً ضد النمسا ، لأنها كانت عضواً في التحالف الدولي الأول الذي تكون ضد الثورة الفرنسية ، فوجهت ضدها حكومة الديركتوار حملتين : حملة رئيسية بقيادة الجنرال مورو Moreau والجنرال جوردا Jourdan تزحف على طريق نهر الدانوب والغاية السوداء ، وحملة فرعية بقيادة بوناپرت ، تزحف على إيطاليا ، لأنه كان للنمسا ممتلكات هامة في شبه الجزيرة الإيطالية ، وبذلك تضطر النمسا إلى

إلى مصر قد استولى على جزيرة مالطة ، وطرد منها فرسان القديس يوحنا^(١) ،
الذين يزعمون أن الله قد طلب منهم قتل المسلمين^(٢) ، وعمد بونابرت في منشوره

= توزيع قواتها في ميدانين متباينين ، وشاءت الأقدار أن تفشل الحملة الرئيسية ، وأن تنجح الحملة
الفرعية نجاحاً خاطئاً بآهراً .

(١) جاءت في الترجمة العربية للمنشور لفظة «الكوالرية» ، وفي الأصل الفرنسي *cavalleries*
وعلى الرغم من أن استخدام كلمة الكوالرية دليل على ضعف المترجمين الذين عربوا المنشور ،
إلا أنها كانت شائعة في ذلك الوقت ، وقد وردت في صيغ شتى في مصادر أخرى مثل مذكرات نقولا
ترك ، وفي مخطوط كوستا *Costa* المحفوظ في المكتبة التيمورية بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
وحيدر شهاب ، وعلى سبيل المثال :

كواليرية ، كويليرية ، كوالرية ، كوليرية ، كفاليرية ، قوالير .

وهي مقتبسة أصلاً من اللغة الإيطالية *cavaliere* ، وانتقلت إلى اللغة الفرنسية وغيرها ،
وكان بونابرت يقصد بهذه الكلمة الهيئة الدينية الصليبية العسكرية المعروفة باسم فرسان القديس
يوحنا ، أو فرسان الإسبتارية ، وكانوا قد اتخذوا لهم من جزيرة مالطة مقادماً ومستقراً ، بعد
أن نجح السلطان العثماني سليمان المشرع في إجلائهم عن جزيرة رودس سنة ١٥٢٣ .

(٢) لم يكن النشاط العدائي الذي مارسه هؤلاء الفرسان ضد المسلمين ، هو السبب الذي حمل
بونابرت على غزو مالطة والقضاء عليهم ، ولكن انبثق مشروع غزو الجزيرة عن اعتبارات تتعلق
بالسياسة العليا لفرنسا ، واستهدف توفير الأمن الداخلي والخارجي لنظام الحكم الذي جاءت به الثورة
الفرنسية . كان فرسان القديس يوحنا قد أظهروا شعوراً طلياً بنمو لويس السادس عشر ملك فرنسا
وأمدوه بالأموال لمواجهة أزماته المالية ، ولمساعدته عند هروبه من باريس إلى الحدود الشمالية
الشرقية ، وهو الهروب الذي فشل بالقبض على المسلك في فارن *Varennes* ، ولما
أعدمت الثورة الملك أقام فرسان مالطة صلاة على روحه ، واعتبرت حكومة الثورة هذا التصرف
عملاً غير ودي ، وردت عليه باعتقال فرسان هذه المنظمة المقيمين منهم في فرنسا ، وصادرت
أموالهم ، وأعدمت بعضاً منهم ، يضاف إلى ذلك أن بعض المهاجرين الفرنسيين كانوا قد لحقوا
إلى مالطة إبّان الثورة ، واعتقدت باريس أن جزيرة مالطة قد غدت وكرّاً للدسائس ، يحكيها
عملاء بريطانيا وروسيا والنمسا ، وخشيت أن تبادر إحدى هذه الدول إلى احتلال الجزيرة ، فتكون
مصدر خطر داخلى على مركز فرنسا في حوض البحر المتوسط ، وقال بونابرت في تقرير له إلى
حكومة الديركتوار : « إن هذه الجزيرة سوف تسقط عاجلاً أو آجلاً في يد الإنجليز ، إذا كنا على
درجة كبيرة من الغباء ، ولم نسبق الإنجليز إلى احتلالها » . وكان قد انتخب أحد الفرسان الألمان
واسمه دى هومبيش *de Hompesch* رئيساً لهيئة فرسان القديس يوحنا ، واعتبر انتخابه
هزيمة لفرنسا ، وانتصاراً للدبلوماسية النمساوية ، ومن ثم صحت عزيمة حكومة الديركتوار على غزو
الجزيرة ، وأوفدت بوسيليج *Poussielgue* سكرتير المفوضية الفرنسية في جنوا إلى مالطة =

إلى تذكير المصريين بأنهم ينتمون إلى إقليم هو أحسن بلد في العالم ، وأنهم أمة لم تبدأ من فراغ ، بل بدأت من مجد عريض ، وأنها طاولت الزمن وجوداً ، وصنعت الحضارات صنعاً . وقال : إن حكم المماليك الباغى هو الذى انحدر بالمصريين إلى هذه الحالة التبعة من الفاقة والبؤس . وحاول في منشوره أن يفصل بين الشعب المصرى وبين المماليك ، فقرر أنه جاء ليحاربهم وحدهم ، ولينقذ المصريين من مظالمهم ، ويقتصر منهم ، لأنهم يضطهدون التجار الفرنسيين ، ويعتصرون أرزاق المصريين ، ويغتصبون خيرات البلاد ومحاصيلها ، وينعمون بالجواري الحسان ، والخيول المطهمة ، والقصور الفخمة ، وأكد أن مصر ليست ملكاً لهم ، وقال : « فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم » ، وتكلم عن وضاعة أصلهم ، ووصفهم بأنهم أغراب عن مصر جلبوا من خارجها ، وذكر أن جميع الناس عند الله سواء ، وأن العقل والفضائل والعلوم هى التى تميز الأفراد بعضهم عن بعض ، وليس للمماليك من هذه الخصال نصيب ، ووعد بونابرت المصريين بأن الحكم الفرنسى سوف يتيح عديد الفرص أمام « العلماء والفضلاء والعقلاء » لتسولى المناصب الحكومية . وحاول أن يحتفظ بعلاقات ودية مع السلطان العثمانى ، وقد وصفه بأنه « محبنا دام بقاءه » ، واختتم منشوره بتعليقات يغلب عليها طابع التهديد ، فهدد بإحراق كل قرية تقاوم الجيش

في مهمة سرية لجمع المعلومات اللازمة قبل الغزو الفرنسى ، وقد وصل هذا المبعوث إلى فالنسا عاصمة الجزيرة في ٢٤ ديسمبر ١٧٩٧ ، وأرسل تقريراً مشجعاً على غزو الجزيرة .

انظر :

Correspondance de Napoléon, t. IV.

الوثائق رقم ٢٤٩٦ ، ٢٤٩٧ ، ٢٦٢٠ ، ٢٦٢٢ ، ٢٦٢٥ ، ٢٦٢٧ ، ٢٦٢٩ ،

٢٦٣٦ ، ٢٦٤١ .

وانظر أيضاً عرضاً دبلوماسياً لتطورات مشروع غزو الجزيرة في فصل عنوانه :

The Genesis of the Expedition.

في

Shafik Ghorbal; ouvr. cit., pp. 7-32.

الفرنسي ، وأما إذا أظهرت القرية ولاءها للفرنسيين ، فيسمح لها برفع العلم
العثماني^(١) ، وأن على جميع القرى الواقعة على مسيرة ثلاث ساعات^(٢) أن تبعث
بمندوبين عنها للقائد العام يعلنون الولاء ، وأنهم رفعوا العلم الفرنسي « الذي
هو أبيض وكحلي وأحمر » ، وطلب من المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة
الاستمرار في أداء مهام مناصبهم ، والتحفظ على أملاك المماليك ، وأن تستمر
إقامة الصلاة في المساجد كالمعتاد ، وأن يكون كل انسان مطمئنا في مسكنه ؛
وكانت آخر عبارات المنشور أن طلب بونابرت من المصريين أن يشكروا الله
سبحانه وتعالى على زوال دولة المماليك قائلين بصوت عال :

أدام الله لإجلال الساطان العثماني

أدام الله لإجلال العسكر الفرنسي

لعن الله المماليك

وأصلح حال الأمة المصرية .

تحريراً في ١٣ شهر مسيدور سنة ٦ من إقامة الجمهور الفرنسي^(٣) .

والحق أن هذا المنشور يلخص سياسة بونابرت الإسلامية ، واستهدف
منه تأكيد المبادئ الآتية في أذهان الشعب المصري :

أولاً : إن الفرنسيين مسلمون مخلصون ، وإنهم لا يضرعون شرّاً للإسلام ،
بل إنهم يكتنون احتراماً عميقاً للنبي صلوات الله عليه ، وللقُرآن الكريم ،
ويحرصون على أن تستمر إقامة الصلاة في المساجد كالعادة ؛ والمهدف من
ذلك إشاعة الطمأنينة في نفوس المصريين ، وجذب قلوبهم إلى الحكم الفرنسي

(١) جاءت في الترجمة العربية الصنجاقي ، وهي لفظة تركية ، تكتب أحياناً سنجاق ومن معانيها العلم .

(٢) جاءت في الأصل الفرنسي ثلاثة فراسخ .

(٣) نشر النص الفرنسي للمنشور تحت عنوان Proclamation في :

Correspondance de Napoléon ; t IV, doc. no. 2723, en date du
4 Messidor, VI^e année de la République (2 juillet, 1798).

ونشرت الترجمة العربية كما وزعت على الشعب في :

الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤ - ٥

ثانياً : الفصل بين المصريين والمماليك ، والهدف من ذلك استمالة المصريين إلى التزام موقف الحيدة ، وحصر العمليات الحربية في أضيق نطاق ممكن ، وتصحيح الحرب مقصورة على الفرنسيين من ناحية ، والمماليك من ناحية أخرى ، وبذلك يتم له التغلب على المماليك في سهولة وسرعة ، ودون وقوع خسائر فادحة في الأرواح أو العتاد في الجانب الفرنسى .

ثالثاً : الاهتمام بإيراز صفة أراد بونابرت أن يلصقها بالفرنسيين ، وهى أنهم لم يجيئوا إلى مصر غزاة قاهرين ، بل جاءوا محررين للشعب من ظلم المماليك واستبدادهم ، ولذلك زج في منشوره ببعض كلمات تحمل بعض الشعارات التحررية فى الثورة الفرنسية مثل الحرية والمساواة ، وقد عرب الكلمة الأخيرة المترجمون المرافقون للحملة بكلمة « التسوية » .

رابعاً : إن الحكم الفرنسى سيهيء للمصريين من أمرهم رشداً ، وسوف يتيح لهم الفرص لشغل المناصب القيادية ، وبذلك يرضى المصريون عن الحكم الفرنسى ، على أساس المنافع المشتركة .

خامساً : تذكير المصريين بحضارتهم القديمة ، وأن المماليك هم الذين عصفوا بهذه الحضارة ، وأنهم السبب فى فقر وشقاء المصريين ، وفى هذا القول إثارة لشعور الشعب على المماليك :

سادساً : إيجاد علاقات ودية بين الفرنسيين وبين الساطان العثمانى ، حتى لا يركن المصريون إلى الثورة على الفرنسيين ، بسبب ولائهم للسلطان ، الذى كان الشعب ينظر إليه على أنه سلطان المسلمين .

والجبرتي تعليق عفيف ولاذع جداً على هذا المنشور ، وقد كتب هذا التعليق في كتابه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين »^(١) ، وجاء عنوان التعليق على النحو الآتي : « تفسير بعض ما أودعه هذا المكتوب من الكلمات المفككة والتراكيب الملعبة » ، وقد فند الجبرتي معظم الآراء التي جاءت في منشور بونايرت ، ودلل على ما فيها من تضارب : نذكر على سبيل المثال ما جاء في تعليقه على قول بونايرت لأنه يحترم القرآن العظيم : « إن احترام القرآن تعظيمه ، وتعظيمه بالتصديق بما فيه ، وهو من آيات النبي الدالة على صدقه ، وأنه نبي آخر الزمان ، وأن أمته أشرف الأمم ، وهؤلاء لجميع ذلك نافون ، وفما عدوده كاذبون ، وكأين من آية في السموات والأرض يـمـرـون عليها وهم عنها معرضون . أما التعظيم الحسى ، فهو فرض مأثور به بقوله تعالى « لا يمسه إلا المطهرون » ، فيحرم على المحدث والجنب مس آية من

(١) توجد في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ثلاث نسخ خطية من كتاب مظهر التقديس ، وهي تحمل الأرقام الآتية :

المخطوط الأول : ١٣٢٨ تاريخ ، المكتبة التيمورية ، عدد صفحاته ٤٠٦ ، سنة ١٢٤٠ هـ .
المخطوط الثاني : ٣٣٠ تاريخ ، عدد صفحاته ٣٨٣ ، سنة ١٢٦٣ هـ .
المخطوط الثالث : ١٠١ تاريخ ، مكتبة الأمير مصطفى فاضل ، عدد أوراقه ١٤٥ ، سنة ١٢٢٤ هـ .

ويلاحظ أن الترقيم في المخطوط الأخير يعطى للورقة بصفتها ، وليس للصفحة الواحدة ، ومعنى ذلك أنه ١٤ ورقة تعادل ٢٩٠ صفحة ، وقد لاحظنا أيضاً أن الكتابة في هذا المخطوط الأخير تملأ الورقة كلها ، بحيث أن عدد الأسطر في كل صفحة منه أكثر من عدد الأسطر في صفحات النسختين الأخريين ، وللاحظنا كذلك أن خط المخطوط الأول أكثر وضوحاً وتنسيقاً من المخطوطين الآخرين ، وهناك ملاحظة هامة هي أن عنوان المخطوط على الغلاف الخارجي يختلف عن الاسم الذي اختاره الجبرتي لكتابه ، فعلى الغلاف الخارجي يذكر اسم المخطوط على هذا النحو :

مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين

بينما ذكر الجبرتي في مقدمة كتابه « وسميناه :

مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين

وهذا هو سر الخلط الذي يقع فيه الباحثون ، والعبارة بالعنوان الذي يختاره المؤلف لكتابه ،

القرآن ، وهؤلاء قد شوهوا الكثير منهم يتغوط ويمسك بأوراق المصاحف ، ويرميها ملطخة في الطريق ومحل النجاسات ، فإنهم لا يستنجون بالماء البتة ، وجليلهم وحقيرهم يستعمل ما يجده من الأوراق ، ودخل بعض الناس داراً من دورهم ، فوجد باب المهنة مسنوداً بمصحف كبير ، فأخذه وفتح فوجده ختمة شريفة مكلفة ، فتأثر واغتم ، وطلب أن يفتديه بدراهم ، فامتنع صاحب الدار من بيعه إلا بمبلغ كذا ، فسعى الرجل حتى استرضى خاطره ، واستنقذ الختمة ، وهم في كل ذلك يضحكون ، ويعدون الرجل كأنه مجنون ، فأين أعزك الله التعظيم الذي يزعمه هذا المفتري ؟^(١) ، وقد تعرض الخبر في مواضع أخرى من كتابه المخطوط إلى التضارب بين ما جاء على لسان بونايرت في هذا المنشور ، وبين التصرفات التي صدرت عنه في حكم الشعب المصري ، وسنشير إليها في مواطن قادمة في هذه الدراسة ، أما بونايرت فإنه سخر من هذا المنشور حين أعيدت عليه قراءته بعد مضي سنوات طويلة لم تقل عن تسع عشرة سنة ، وهو في منقاه بجزيرة سانت هيلانة ، يحيط به بعض القادة الفرنسيين الذين عاشوا معه في المنفى ، وقال لهم إن هذا المنشور قطعة من الدجل^(٢) .

* * *

(١) إن هذا التعليق موجود في المخطوطات الثلاثة على النحو التالي :

المخطوط الأول الذي يحمل رقم ١٣٢٨ ص ص ٣١ - ٣٥

المخطوط الثاني الذي يحمل رقم ٣٣٠ ص ص ٢٨ - ٣٢

المخطوط الثالث الذي يحمل رقم ١٠١ الوجه الثاني من ورقة رقم ١٢ وورقة رقم ١٣ بوجهها ،

أي أن التعليق استغرق في هذا المخطوط ثلاث صفحات وهي تعادل خمس صفحات في كل من المخطوطين الأولين .

(2) Gourgaud et Montholon ; Mémoires pour servir à l'histoire de France sous le règne de Napoléon, écrits à Sainte Hélène par les généraux qui ont partagé sa captivité. Paris, Didot, 1823, 7 vols. t. II, pp. 261-262.

والجزء الثاني من هذه الأجزاء السبعة يخص أحداث الحملة الفرنسية على مصر .

وانظر أيضاً :

Guémard (G.) ; Histoire et bibliographie critique de la Commission des Sciences et Arts de l'Institut d'Égypte. Le Caire, 1936, pp. 105-106.

وحرص بونابرت في ذات الوقت على إظهار صداقته للسلطان العثماني أمام كبار الموظفين العثمانيين في مصر ، تمشياً مع خطة العمل الدبلوماسية ، والتي أراد لها أن تكون مكملة لسياسته الإسلامية ، فكتب خطاباً مؤرخاً في الثلاثين من يونيو ١٧٩٨ إلى الوالي العثماني واسمه أبو بكر باشا ، ولقبه الطرابلسي^(١) ، قال فيه : إن الغرض من الحملة على مصر إنما هو معاقبة الأمراء المماليك الذين أسرفوا في الإساءة إلى التجار الفرنسيين ، وقد عجزت وسائل الباب العالي عن كسر شوكتهم ، ولإعادتهم إلى جادة الحق والصواب . وحاول بونابرت في منشوره أن يثير أبا بكر باشا الطرابلسي على المماليك ، فقال : لقد كان من المفروض أن يكون الباشا العثماني في مصر هو السيد المطاع في أرجاء البلاد ، ولكن جرده المماليك من كل جاه ونفوذ ، ولذلك يجدر بالباشا أن يتلقى نبأ قدوم الحملة الفرنسية بالغبطة والابتهاج ، واختتم خطابه بهذه العبارات : « واعلم أنني لم أحضر للتعرض للدين ، ولا للقيام بأمر يسمى إلى السلطان : إن الأمة الفرنسية هي الخليفة الوحيدة للسلطان في أوروبا ، فهلم إذاً لمقابلتنا ، والعن معنا المماليك وعنصرهم الخبيث »^(٢) . وقد بعث بهذا الخطاب من الإسكندرية مع أحد الضباط العثمانيين التابعين لإحدى السفن الحربية العثمانية الثلاث التي كانت راسية في مياه النهر^(٣) . وجدير بالذكر أن بونابرت اتخذ من هذا الخطاب وسيلة للذيادة إلى سياسته الإسلامية ، فأمر بنشر الترجمة العربية لهذا الخطاب في الإسكندرية^(٤) ، كما كتب بونابرت خطاباً في هذا المعنى إلى إدريس بك قائد « عقاب بحري » كبرى السفن العثمانية الثلاث ، الماربطة

(١) تولى حكم ولاية مصر في ٢٨ سبتمبر ١٧٩٦ (٢٥ ربيع أول ١٢١١) ، وغادر القاهرة في ٢١ يوليو ١٧٩٨ (٧ صفر ١٢١٣) عقب معركة إمبابية ، واتخذ طريقه إلى بلبيس ثم غزة .

(٢) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 2719, en date du 12 Messidor VI^e, année de la République (30 juin, 1798).

(٣) Napoléon I^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I., p. 133.

(٤) Loc. cit.

في الإسكندرية ، وقال له بونابرت في هذا الخطاب « إنك تابع صديقنا العظيم سلطان تركيا »^(١) :

نمر بعد ذلك مروراً سريعاً على مظاهر أخرى لسياسة بونابرت الإسلامية تجاه الشعب المصري . احتل الجيش الفرنسي الإسكندرية ، وزحف على القاهرة ، وفي طريقه إليها أوقع هزيمة بالمماليك عند قرية شبرايريس^(٢) (١٣ من يوليو ١٧٩٨) ، ثم انتصر عليهم في معركة إمبابية (٢١ يوليو) ، وحسمت هذه المعركة الموقف الحربي لصالح الفرنسيين ، وأطلقوا عليها اسماً يخلد ذكراها في التاريخ فسموها موقعة الأهرام^(٣) . وفي غداة هذا الانتصار مضى بونابرت في الإعلام عن سياسته الإسلامية ، فأذاع منشوراً وجهه إلى سكان القاهرة أكد فيه بعض النقاط التي جاءت في منشوره الأول ، ثم أضاف جديداً هو عزمه على إنشاء ديوان لحكم القاهرة يتكون من سبعة أعضاء يكون الجامع الأزهر مقرأ له ، ولم يرد ذكر لهذا المنشور في كتاب الخبرتي ،

(1) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 2721, en date du 13 Messidor VI^e, année de la République (I^{er} juillet, 1798).

(٢) تجمع معظم المصادر الفرنسية على أن المعركة دارت في شبرايريس وليس في شبراخيت . وتكتب هذه المصادر مكان المعركة Chebreïss أو Choubra Reïs وبالرجوع إلى الخطط التوفيقية نجد أنه يوجد في الوجه البحري قرستان تحملان اسم شبرايريس ، إحداهما شبرايريس البحرية ، وهي قرية على الشاطئ الغربي لفرع رشيد : تقع في إقليم البحيرة ، وتتبع مركز شبراخيت ، وتقع القرية في جنوب مركز شبراخيت على مسيرة نصف ساعة . أما الأخرى فهي شبرايريس المنوفية وهي قرية تقع على الشاطئ الغربي للترعة الباجورية ، وتقع في إقليم المنوفية ، وتتبع مركز تلا ، وتقع في جنوب كفر الزيات على مسيرة ثلاث ساعات . والمعركة دارت في قرية شبرايريس البحرية .

انظر : على مبارك باشا ، مرجع سبق ذكره ، ج ١٢ ، ص ١٢٢ .

(٣) يعتبر الفرنسيون انتصارهم في معركة إمبابية صفحة فخار في التاريخ العسكري الفرنسي ، ولذلك أطلقوا عليها اسم « معركة الأهرام » ، وحذا الإنجليز هذا الخذو فأطلقوا على معركة أبي قير البحرية (أول أغسطس ١٧٩٨) اسم « معركة النيل » ، وهكذا عمد الفرنسيون والإنجليز من قبيل الزهو إلى إطلاق اسمين لكل منهما رنين ، وأغفلوا الاسمين الحقيقيين لمعركتي حاسمتين ، لأن كلا من هذين الاسمين : إمبابية ، وأبي قير قرية صغيرة ، لا يكاد يعرفهما أو يسمع عنهما أحد في أوروبا ، وسنلتزم في هذه الدراسة بالاسمين الحقيقيين لطائفتي المعركتين .

ولكن ورد نصه الأصلي باللغة الفرنسية في مجموعة الوثائق الرسمية الخاصة بالحملة^(١) ، وهذه هي الترجمة العربية للنص الفرنسي :

« معسكر الجيزة ، في ٤ تيرميدور إلى أهل القاهرة :

« إلى مسرور من ساوكمكم ، وقد أحسنتم صنعاً بعدم اشتراككم في مقاومة : لقد جئت هنا لأبيد جنس المماليك ، وأحى التجارة ، وأهل البلاد الأصليين : فليطمئن الخائفون ، وليعد الذين تركوا بيوتهم لآلهم ، ولتقام الصاوات في المساجد ، كما كانت تقام من قبل ، وكما أريد أن تقام دائماً ، لا تخشوا شيئاً على عائلاتكم وبيوتكم وأملاككم ، لاسيما دينكم ، دين النبي الذي أحترمه وأقدسه .

(1) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc, no. 2818. en date du 4 Thermidor VI^e année de la République (22 juillet, 1798).

وهناك منشور آخر يحمل نفس التاريخ وجهه بونايرت إلى سكان القاهرة ، حين ذهب إليه في الجيزة في ٢٢ يوليو وقد يتكون من شخصين ، كان أحدهما مغريباً يعرف الفرنسية ، يستفسران منه عن الإجراءات التي يعتزم اتخاذها عقب معركة إمبابة ، وقابلهما بونايرت بالترحاب ، ثم قال لهما : إنهما يريدان أنانا من بونايرت إلى سكان القاهرة ، فأجابهما بأنه أذاع منشوراً في هذا المعنى ، فقالا : إنهما يفضلان منشوراً جديداً يعملانه معهما إلى سكان القاهرة ، واستجاب بونايرت لهذه الرغبة ، وكتب منشوراً موجهاً إلى سكان القاهرة أورد الجبرقي نصه ، وهذا هو :

« من معسكر الجيزة خطاباً لأهل مصر :

« إننا أرسلنا لكم في السابق كتاباً فيه الكفاية ، وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنسية بالذل والاحتقار ، وأخذ مال التجار ومال السلطان ، ولما حضرنا إلى البر الغربي خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقونه ، وقتلنا بعضهم ، وأسروا بعضهم ، ونحن في طلبهم ، حتى لم يبق أحد منهم بالقطر المصري ، وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المراتب والرعية فيكونون متلهثين ، وفي مساكنهم مرتاحين . »

انظر :

الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٠ .

والنص الفرنسي لهذا المنشور يتمشى تماماً مع ما ورد في الجبرقي ، ويزيد عليه أن بونايرت

طلب حضور وفد إليه من المشايخ علماء الأزهر . انظر :

Correspondance de Napoléon. t. IV, doc. no. 2817 en date du 4 Thermidor, VI^e année de la République (22 juillet 1798).

« ولما كانت المحافظة على الأمن من المسائل التي لا تتحمل تأخيراً ،
فسيكون هنا ديوان مؤلف من سبعة أعضاء ،^(١) يجتمعون في الجامع الأزهر ،
يتصل اثنان منهم دائماً بالقائد ، ويتخصص أربعة منهم للمحافظة على الأمن ،
ومراقبة شئون الشرطة » .

وأقام بونابرت عقب معركة إمبابة في قصر مراد بك بالجيزة ، واتخذ
منه مقراً للقيادة العامة للجيش الفرنسي ، وفي أثناء إقامته في هذا القصر كان
علماء الأزهر هم أول الشخصيات الذين طلب مقابلتهم^(٢) ، فكان هذا الطالب
مظهراً عملياً لاعترافه بزعامتهم للشعب المصري . فذهب إليه وفد كان على
رأسه اثنان من كبار العلماء ، هما الشيخ مصطفى الصاوي ، والشيخ سليمان
الفيومي . وتمشياً مع سياسته الإسلامية أحسن بونابرت مقابلة أعضاء الوفد ،
وتودد إليهم ، ولما علم منهم أن عدداً من كبار المشايخ علماء الأزهر قد
غادروا القاهرة عقب معركة إمبابة ، طلب أن تكتب لهم خطابات تدعوهم
إلى العودة إلى العاصمة ، وتؤكد لهم أنه لن يصيبهم سوء . وأعلن بونابرت

(1) " Comme il est urgent que la tranquillité ne soit pas
troublée, il y aura un divan de sept personnes qui se réuniront à
la mosquée d'El Azhar".

(٢) عقد اجتماع في الأزهر صبيحة معركة إمبابة ، ضم بعض العلماء والأعيان الذين بقوا
في القاهرة ، كما شهد مصطفى كتحدا باشا - أي نائب الوالي العثماني - وقاضي القضاة العثماني ،
وتدارسوا الموقف ، واستقر رأيهم على ضرورة الإفراج عن الفرنسيين الذين كان مراد بك قد
أمر بوضعهم « تحت اليأس » ، أي اعتقالهم قبل معركة إمبابة ، وقيل إنه كان يعتزم قتلهم ، لولا
أن تدخل روسي Rossetti فنصل النساء العام ، واتفقوا أيضاً على أن يبعثوا رسالة إلى بونابرت
يستفسرون منه عن نواياه بعد المعركة ، وكان الجيش الفرنسي لا يزال مرابطاً في البر الغربي لم يعبر
النيل بعد إلى القاهرة ، فذهب رسولان بالرسالة إلى الجيزة ، وبعد أن وقف بونابرت على مضمونها
قال على لسان الترجمان : « وأين عظماءكم ومشايخكم ؟ ولم تأخروا في الحضور إلينا ، لترتب لهم
ما يكون فيه الراحة ؟ وطعنهم وبش في وجوههم . »

لأعضاء الوفد عن عزمه على إنشاء ديوان « لأجل راحتكم وراحة الرعية » ،
(١)
ولإجراء الشريعة » :

ولا بد أن بونايرت قد علم من أعضاء الوفد — طالما أن حديثه معهم
قد تناول كبار القوم الذين غادروا القاهرة عقب معركة إمبابية — أن أبا بكر
باشا الطرابلسي الوالي العثماني قد ارتحل هو الآخر مع إبراهيم بك ، كما علم
بونايرت أن بن الذين آثروا الهجرة من القاهرة الشيخ عبد الله الشرقاوي
شيخ الجامع الأزهر^(٢) ، والسيد محمد السادات ، والسيد عمر مكرم نقيب
الأشراف ، والسيد أحمد المحروقي شهيندر^(٣) تجار القاهرة . فأرسل بونايرت
خطاباً من الخيزة مؤرخاً في ٢٢ يوليو إلى أبي بكر باشا الطرابلسي ، على أمل
أن يصله هذا الخطاب في بلبيس ، وافترض بونايرت أن خطابه الأول الذي
أرسله إليه من الإسكندرية لم يصله ، وقد أبدى بونايرت في خطابه أسفه

= هذا ويوجد اختلاف بين أقوال الجبرقي ، ونقولا ترك ، ولاكروا Lacroix ، وريبو
Reybaud ، والمذكرات التي أملاها بونايرت في منفاء بجزيرة سانت هيلانة حول الاتصالات
التي تمت بين بونايرت وكبار سكان القاهرة لتسليم العاصمة ، كما يوجد خلاف حول تاريخ دخول
بونايرت القاهرة ، وهل هو يوم ٢٤ أو ٢٥ يوليو ١٧٩٨ ، والأصح هو ٢٤ طبقاً لرواية
الجبرقي ، ولاجونكيير La Jonquière .

- (١) الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٠ .
(٢) لحقت به كلمة الشرقاوي لأنه من أبناء مديرية الشرقية ، إذ ولد في قرية الطويلة
شرقي بلبيس ، وبالقرب من القرين حوالي سنة ١١٥٠ هـ (١٧٣٧ - ١٧٣٨ م) ، أما اسمه
الحقيقي فهو « عبد الله حجازي » ، وتولى مشيخة الأزهر عقب وفاة الشيخ أحمد المروسي شيخ
الجامع الأزهر سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣ م) ، وقدر له أن يعاصر ويشترك في الأحداث الجسام التي
مرت بمصر في أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، وقد اشتهر بحسب جاريته
صور الحملة الفرنسية ، وحسبها لاحظ الجبرقي ، بمهامته الكبيرة جسداً « التي كان يفرض بعظمتها
المثل » ، وله مؤلفات عديدة في العقائد والأصول والنحو ، وكتاب في طبقات الشافعية ، وكتاب
في تاريخ مصر ، سنشير إليه في مواضع قادمة في هذه الدراسة ، وقد توفي سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) .
انظر ترجمة الجبرقي له في ج ٤ ، ص ص ١٥٩ - ١٦٤ .
(٣) شهيندر التجار ، معناها كبير التجار ، أو سر التجار .

الشديد، لأن إبراهيم بك استعمل معه العنف وأكرهه على مغادرة القاهرة ، ثم قال له : « إذا كنت سيداً مطاعاً فارجع إلى القاهرة ، وستظفر بالاحترام والتقدير الحديدين بممثل صديقنا السلطان » ، ومضى يقول في خطابه إنه سيق القوة العسكرية للمماليك ، ثم طلب إليه أن يؤكد للسلطان أن الأسلحة التي جعلت فرنسا تنصر على المماليك ستكون دائماً تحت تصرف السلطان^(١) . وفي اليوم التالي أرسل بونابرت خطابه الثالث إلى أبي بكر باشا ، وقد حاول أن يحدد فيه على نحو من الأنحاء وضع مصر السياسي بعد الغزو الفرنسي ، وقد جاء في هذا الخطاب الثالث : « إن هدف الجمهورية الفرنسية من احتلالها مصر هو طرد المماليك الذين طالما شقوا عصا الطاعة على الباب العالي ، وأظهروا شعوراً عدائياً نحو الحكومة الفرنسية . والآن ، وقد استطاعت الجمهورية الفرنسية ، بانتصار جيوشها ، أن تضع يدها على مصر ، فإن من أقصى رغبات الجمهورية أن تحافظ على نفوذ نائب جلالة السلطان ، ولذلك أرجوكم أن تؤكدوا للباب العالي أنه لن يخسر شيئاً بوجودنا في مصر ، وسأحرص على أن تتلقى حكومة جلالة السلطان الجزية التي كانت ترسل لها من مصر^(٢) » .

ومن الواضح أن هذا الخطاب كان يمثل جانباً من خطة العمل الدبلوماسي التي وضعت بعناية في وزارة الخارجية الفرنسية ، والتي كانت مكتملة لسياسة بونابرت الإسلامية ، كما ذكرنا من قبل :

* * *

عبر بونابرت النيل ودخل القاهرة في ٢٤ يوليو ١٧٩٨ ، وأقام في قصر محمد بك الألفي بخط الساكت بالأزبكية ، واتخذة مقراً للقيادة العامة

(1) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 2819, en date du 4 Thermidor VI^e année de la République. (22 juillet 1798).

(2) Op. cit., doc. no. 2824, en date du 5 Thermidor VI^e année de la République. (23 juillet 1798).

للجيش الفرنسى ، وكان الألقى قد فرغ من بنائه فى السنة السابقة على الغزو الفرنسى ، وأنفق الأموال الوفيرة على تأثيثه وزخرفته ، حتى أصبح من أروع قصور مصر كلها ^(١) ، ولم تطل إقامته فيه أكثر من ستة عشر يوماً ، فكأنه كان ببنييه وينفق عليه بسخاء ليسكنه بوناپرت . وفى هذا القصر أصدر بوناپرت القرار التالى :

« معسكر القاهرة ، فى ٧ تيرميدور من السنة السادسة للجمهورية :
« نحن بوناپرت عضو المجمع العلمى القومى ^(٢) ، والقائد العام للجيش ،
نأمر بما يأتى :

اولا : تحكم مدينة القاهرة بديوان مؤلف من تسعة أعضاء :

ثانيا : يتألف هذا الديوان من المشايخ : السادات ، والشرقاوى ،
والصاوى ، والبكرى ، والفيومى ، والعريشى ، وموسى السرسى ، والسيد
عمر نقيب الأشراف ، ومحمد الأمير . وعليهم أن يجتمعوا اليوم ، الساعة
الخامسة مساء فى منزل كحيا الشاوشية ، وعليهم أن ينتخبوا رئيساً لهم ، وأن
يختاروا أميناً (كاتم سر) من غير الأعضاء ، ويعينوا اثنين من الكتبة والتراجم
يعرفان الفرنسية والعربية :

(١) وصف الجبرقى هذا القصر وصفاً مستفيضاً ، وهو يترجم لمحمد بك الألقى . انظر :

الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ٢٦ - ٤٢ .

(٢) كان بوناپرت عضواً فى المجمع العلمى الفرنسى منذ ديسمبر ١٧٩٧ ، وهذه العضوية هى
التي يقصدها ويشير إليها فى صدر هذا القرار . وكان بوناپرت يز هو بعضويته فى هذه الهيئة العلمية
الفرنسية الرفيعة ، ولذلك كان فى القرارات والأوامر العسكرية التى يصدرها يذكر صفته العلمية
أولاً ، ثم صفته العسكرية بعد ذلك ، وكانت توضع الصياغة اللفظية لديماجة أو مقدمة القرارات
والأوامر العسكرية على النحو التالى :

Bonaparte, Membre de l'Institut National, Général en chef,
ordonne :

بوناپرت ، عضو المجمع القومى ، والقائد العام ، يأمر :

« ولهذا الديوان حق تعيين اثنين من الأغوات (رؤساء الجند) لإدارة الشرطة ، وعليه أن ينتخب لجنة مؤلفة من ثلاثة لمراقبة الأسواق وتموين المدينة ، ولجنة من ثلاثة آخرين يعهد إليهم بمهمة الإشراف على دفن الموتى بالقاهرة وضواحيها إلى امتداد فرسحين منها »

ثالثا : يجتمع أعضاء الديوان كل يوم من الظهر ، ويبقى منهم ثلاثة أعضاء على الدوام في دار المجلس »

رابعا : يقام على باب الديوان حرس فرنسي ، وآخر تركي »

خامسا : على الجنرال بيرثيه ^(١) Berthier ، وقومندان المدينة ^(٢) أن يكونا في الساعة الخامسة مساء اليوم بدار الديوان لإجراء ما يلزم لأعضائه ، ولكي يأخذا عليهم تعهداً بألا يعملوا شيئاً ضد مصلحة الجيش ^(٣) :

لنا على هذا القرار ثلاث ملاحظات ، تتصل بسياسة بوناپرت الإسلامية ، أولاها أن جميع أعضاء الديوان كانوا من المشايخ علماء الأزهر ، وقد عهد إليهم بالإدارة المحلية لمدينة القاهرة وضواحيها . أما الملاحظة الثانية فهي أن الاتفاق على اختيار أعضاء الديوان قد تم في حضور مصطفى بك كتبخدا الباشا — أي نائب الوالي العثماني ^(٤) — ، وقاضى عسكر أفندى — أي كبير القضاة

(١) رئيس هيئة أركان الحرب .

(٢) كان الجنرال ديپوي Dupuy يشغل هذا المنصب ، وكان بمثابة حاكم القاهرة ، وكان يلقب أحيانا بشيخ البلد ، وهو اللقب الذي كان يطلق على كبير الأمراء المماليك في القاهرة إبان الحكم العثماني ، ويلاحظ أن اسم هذا الجنرال كان يكتب في مذكرات بوناپرت Dupuis ، انظر : الجزء الأول ص ٢٤٨ ، ص ٢٤٩ على سبيل المثال .

(٣) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 2837, en date du 7 Thermidor, VI^e année de la République. (25 juillét, 1798).

(٤) كان الكتبخدا هو وكيل الباشا ، وكان يعينه السلطان برتبة صندق ، ويعاون الباشا في أعماله الرسمية وغير الرسمية ، ويوقع الأوراق نيابة عنه في أثناء غيابه ، وكان يتغير بتغير الباشا .

العثماني. وكان حضورهما هذا الاجتماع أمراً له دلالاته السياسية، فإن بونابرت كان حريصاً على المحافظة على العلاقات الودية مع السلطان ، والإبقاء على السيادة العثمانية الشكلية على مصر، كما أن حضورهما يوحى بأنهما وافقا على هذا التنظيم الجديد للإدارة المحلية ذات السلطة المدنية في منطقة القاهرة ، والملاحظة الثالثة أن بونابرت تراجع عن رأيه الذي سجله على نفسه في منشوره الذي أذاعه على أهل القاهرة بتاريخ ٢٢ يوليو ١٧٩٨ بأن يجعل من الجامع الأزهر مقراً لديوان القاهرة . ولا يمكن أن يقال إن بونابرت أراد أن يهيئ المناخ الصحي لأعضاء الديوان ، حتى يباشروا اختصاصاتهم ، بعيدين عن المؤثرات الدينية العنيفة ، أو عناصر الشعب ، أو غير ذلك من عوامل قد تعرقل أعمال الديوان ، ولكن الحقيقة المجردة التي تفسر هذا التراجع هي أن بونابرت قد تعجل في إصدار هذا الرأي في منشوره ، ثم تبين له استحالة تنفيذه ، لأن التقاليد الدينية لا تجيز دخول غير المسلمين في المساجد ، وياشرون وظائف عامة من داخلها ، وكان بونابرت في القرار الذي أصدره بإنشاء الديوان قد عهد إلى اثنين من كبار قواد الجيش الفرنسي بالتواجد في دار الديوان « لإجراء ما يلزم لأعضائه ، ولكي يأخذوا عليهم تعهداً ألا يعملوا شيئاً ضد مصلحة الجيش » ، كما أن بونابرت عين في ٢٧ يوليو مندوباً له في الديوان، عرف باسم القوميسير commissaire ، ووقع اختياره على أحد كبار العسكريين وهو بوقوازان Adjudant Général Beauvoisins وطلب

(١) يقول الجبرتي : « وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر ١٢١٣ أرسلوا بطلب المشايخ والوجاقية عند قائمقام صاري عسكر ، فلما استقر بهم الجلوس خاطبهم وتشاوروا معهم في تعيين عشرة أنصار من المشايخ للديوان وفصل الحكومات ، فوقع الاتفاق على الشيخ ، وحضر ذلك المجلس أيضاً مصطفى كتنخدا بكر باشا والقاضي . انظر : ج ٣ ، ص ١١ .

منه أن يرفع إليه عقب كل جلسة تقريراً عن كل ما دار فيها ، يضاف إلى ذلك أن مرابطة حرس فرنسي عند باب الجامع الأزهر — فيما لو اتخذ الديوان من الأزهر مقراً له — مما يثير ثائرة الرأي العام في مصر ، وكان بونايرت حريصاً الحرص كله على استرضائه ، واستئلال الضغينة من نفوس الجماهير .^(١)

* * *

ومن مظاهر سياسة بونايرت الإسلامية تودده إلى المشايخ علماء الأزهر ، أضفى عليهم الكثير من مظاهر الاحترام والتقدير ، واستبقى لهم امتيازاتهم ، وعلى رأسها حصصهم في نظام الالتزام في القرى ، وتنظرهم على الأوقاف . وأمر بأن يؤدي رجال حرس الشرف الذين يرابطون أمام مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي في الأزبكية التحية العسكرية بالسلاح لعلماء الأزهر ، إذا جاءوا إلى مقر القيادة ،^(٢) فإذا دخلوا هذا المقر خف لاستقبالهم رجال الياوران والمترجمون يرحبون بهم ، ويقودونهم إلى الصالون الرئيسي في القصر ،

(1) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no 2866, en date du 9 Thermidor, VI^e année de la République. (27 juillet, 1798).

وقد حدث أن أوفد بونايرت هذا الضابط في مهمة رسمية إلى الجزائر باشا والى عكا ، فبين في ٣١ من أغسطس ١٧٩٨ فرنسياً آخر مكانه هو تاليا Tallien ليكون مندوباً لبونايرت لدى الديوان ، وكانت مهمته الأولى التمسك على الأعضاء ، فقد جاء في أمر تعيينه ما يأتي : « على المواطن تاليا أن يحضر جميع جلسات الديوان ، وأن يعمل على معرفة أخلاق أعضائه ، ومبلغ الثقة التي يمكننا أن نولهم إياها » . انظر :

Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 3207, en date du 14 Fructidor, VI^e année de la République. (31 août, 1789).

(٢) استفسر بونايرت من أعضاء الديوان عن أفضل طريقة لحكم مديريات القنطر المصري ، فأدلوإ إليه بإجابات أعجب بها ، وعلى ضوءها أصدر أمراً في ٢٧ يوليو ١٧٩٨ بأن ينشأ في كل مديرية ديوان يتألف من سبعة أعضاء ، وحدد في هذا الأمر اختصاصات الدواوين ، والأجهزة التي تعاونها في مباشرة اختصاصاتها . انظر :

Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no 2858, en date du 9 Thermidor, VI^e année de la République. (27 juillet, 1798).

(3) Napoléon I^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. p. 213.

وقد كرر بونايرت في الجزء الثاني من مذكراته المشار إليها موضوع التحية العسكرية التي أمر أن يؤديها العسكريون الفرنسيون للمشايخ علماء الأزهر .
انظر : المصادر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٢ من مذكراته .

وتقدم لهم المرطبات ثم القهوة ، فإذا فرغوا من تناولها دخل عليهم بونايرت ورحب بهم ، وجلس وسطهم ، محاولاً أن يدخل في نفوسهم العلمانية والثقة . وكان يخوض معهم — بواسطة المستشرق فانتور^(١) الذى كان يقوم بوظيفة المترجم — فى مناقشات علمية ، تتناول القرآن الكريم ، ويطلب بونايرت من المشايخ تفسير بعض الآيات . وكان يحرص على إظهار الاحترام الشديد للنبي صلوات الله وسلامه عليه . ويخرج المشايخ من عنده وهم السنة تلهج بالشكر والثناء ، ويذهبون إلى الجامع الأزهر ، ويجتمعون بمن فيه ، ويتحدثون إليهم عما شاهدوه وسمعوه . ويعلق بونايرت على هذا المسلك بأن المشايخ علماء الأزهر قد أدوا خدمات جليسة للجيش الفرنسي^(٢) . وقد أشاد فى مذكراته بخصالهم ، وقال إنهم طاعنون فى السن ، وإن علمهم وطبايعهم وثرأهم ، بل وعراقة أصولهم ، وكرم معتد بهم ، كل أولئك يحمل الإنسان على إظهار مزيد من الاحترام نحوهم . ومضى بونايرت فى مذكراته فقال : إنها كانت مفاجأة سارة لعلماء الأزهر حين أدركوا بعد شهر واحد من دخول الفرنسيين القاهرة أنهم أصبحوا ذوى نفوذ كبير ، وأنهم يشتركون

(١) اسمه Jean Michel Venture de Paradis. كان من كبار المستشرقين ، وأكبر أعضاء مجمع مصر العلمى سنًا — فهو من مواليد مارسيليا سنة ١٧٤٢ — وكان أحد كبار الخبراء الفرنسيين فى مسائل الشرق الأدنى ، قام بجولات طويلة فى بلاد الشرق ، وأقام بها سنوات عديدة ، وعمل مترجماً فى السفارة الفرنسية فى الأستانة ، ثم مدرساً للغة التركية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، إلى أن وقع اختيار بونايرت عليه ليكون كبيراً لترجمى الحملة ، ومشاراً له فى الشؤون الشرقية ، وقد أصيب بالدوسنتاريا فى أثناء حصار عكا ، وقضى نحبه هناك ، ونعساء بونايرت إلى ديوان القاهرة ، وقال عنه الجبرقى : « ومتتوره هذا ترجمان سارى عسكر ، وكان لبيباً متبحراً ، ويعرف باللغات التركية والعربية والروسية والالمانية والفرنساوى » ج ٣ ، ص ٦٨ وكانت وفاته خسارة فادحة للعلم ، إذ لم يقدر له أن يضع مؤلفاً عن الحملة الفرنسية ، وكان من تلاميذه مارسيل Marcel المستشرق ومدير المطبعة الفرنسية والدرية التى أحضرت مع الحملة ، وجويرير Jaubert الذى خلف فانتور فى منصبه كبيراً لترجمى الحملة .

(2) Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. pp. 213-214.

في شئون الإدارة والحكم ، وكانت كل قراهم وممتلكاتهم الخاصة موضع الرعاية التامة ، ولم يسبق أن تمتع هؤلاء الرجال بمثل هذا التقدير . وكانوا يجمعون في وقت واحد بين عدة صفات ، فهم كبار رجال الدين والقضاء ، ورمز الأرستقراطية ، ولم يحدث أن سعى الناس إليهم يلتهمون حمايتهم ، كما حدث إبان الحكم الفرنسي ، إذ لم يكن المسامون وحدهم هم الذين يرجون هذه الحماية ، بل كان ينشدها أيضاً المسيحيون من الأقباط واليونانيين والأرمن المقيمين في مصر^(١)

ومما هو جدير بالذكر أن بونابرت أصدر في ٢٧ يوليو ١٧٩٨ — أى في خلال الأسبوع الأول لدخوله القاهرة — قراراً بتخصيص حصان لكل عضو من أعضاء ديوان القاهرة^(٢) ، وكان هذا القرار يحمل معنى التكريم والتقدير للمشايخ علماء الأزهر بالذات ، لأن عضوية ديوان القاهرة كانت في تلك الفترة مقصورة عليهم ، فكان هذا القرار ينسحب عليهم ، كما أن وسائل المواصلات في مدينة القاهرة كانت تخضع في ذلك الوقت للتفرقة العنصرية ، وللنظام الطبقي معاً : فالخيل يستخدمها الأتراك العثمانيون والمماليك . أما البغال فيركبها العلماء بمقولة أنها تسير الهوينا ، وفي هدوء يناسب وقار العلماء . أما الحمير

(١) كان مجاء في مذكراته :

“Tous leurs villages, toutes leurs propriétés particulières furent ménagés avec une délicate attention. Jamais ces hommes qui étaient à la fois les chefs de la religion, de la noblesse et de la justice n'avaient été plus considérés; jamais leur protection n'avait été plus recherchée, non seulement par les Musulmans, mais même par les chrétiens, Coptes, Grecs, Arméniens établis dans le pays.”

Loc. cit

(2) Correspondance de Napoléon; t. IV, doc. no. 2865 en date du 9 Thermidor VI^e année de la République. (27 juillet 1798).

فكانت تركيبها الجاهير^(١) ، وعلى مبلغ علمنا لم يوضع قرار بونابرت هذا موضع التنفيذ^(٢) .

* * *

وكان من مظاهر سياسة بونابرت الإسلامية اهتمامه العميق بالأعياد الدينية الإسلامية ، ففي شهر أغسطس ١٧٩٨ — وهو الشهر التالى لدخوله القاهرة — حلت مناسبة دينية يحتفل بها المصريون احتفالاً شعبياً واسعاً ، وهى المولد النبوى الشريف^(٣) ، وكان الاتجاه العام لدى الشعب هو عدم إقامة احتفالات فى هذه الذكرى الكريمة نظراً للظروف العصيبة التى كانت تجتازها البلاد وقتذاك . ولعل هذا الموقف السلبي فى تلك المناسبة الدينية كان تعبيراً شعبياً دينياً عن السخط على الحكم الفرنسى ، ولكن كان هذا الموقف من ناحية أخرى يتعارض تماماً مع سياسة بونابرت الإسلامية ، ومن ثم أمر بأن تقام

(١) كانت طائفة المكارية أو الحماوة أكثر طوائف الحرف عدداً فى مدينة القاهرة .

(٢) يستفاد من الجبرقى أن علماء الأزهر ومنهم أعضاء الديوان لم يستخذموا فى تنقلاتهم إلا البغال . وقد سبق أن ذكرنا أن بونابرت قرر فى مذكراته أن علماء الأزهر قوم يميلون إلى الوداعة ولا يركبون الخيل . كما أنه كتب فى مذكراته أيضاً وصفاً دقيقاً لركوب المشايخ علماء الأزهر البغال يحيطها الأتباع .

(٣) كان بونابرت قد احتفل قبل ذلك بأسبوع — أى فى ١٧ أغسطس ١٧٩٨ — بوفاء النيل ، وهو عيد كانت تشارك فيه قطاعات مختلفة من سكان القاهرة المسلمين والأقباط ، وكذلك أفراد من أهل بلاد الشام المسيحيين ، ومن اليونانيين ، ويتضح من كلام الجبرقى أن المصريين انصرفوا عن المشاركة فى الاحتفال به ، على الرغم من أنهم كانوا يتهيجون به كل سنة قبل الغزو الفرنسى ، فهو يقول بعد أن وصف حفل وفاء النيل ، وما استحدثه الفرنسيون من مباحج : « وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه فى المراكب على العادة ، سوى النصارى والشوام والقبط والأروام والإفرنج البلديين ونسائهم ، وقليل من الناس البطالين حضروا فى صبحها » .

الظفر :

الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٤ — ١٥ .

احتفالات كبرى ، تفوق في روعتها وبهائها الاحتفالات التي كانت تقام في هذه المناسبة على عهود السلاطين المماليك ، وغيرهم من الحكام المسلمين ، كما أمر أن يشترك الجيش والموسيقى العسكرية في الاحتفالات ، وأن تطلق المدافع نهاراً ، والألعاب النارية والصواريخ ليلاً ، وأن تعلق أمام مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي في الألبانية قناديل ذات زجاج متعدد الألوان ، لتبدو في غاية البهجة عند إضاءتها ليلاً .

وقد مهد بونايرت لاحتفالات المولد بشغل منصب ديني كبير هو منصب نقيب الأشراف ، وقد ظل شاغراً منذ أن هاجر عمر مكرم إلى الشام عقب معركة إمبابية ، ولعل المشايخ أعضاء الديوان أو المتطلعين إلى هذا المنصب من أسرة البكري هم الذين فاتحوا بونايرت في ضرورة شغل منصب نقيب الأشراف قبل أن تبدأ احتفالات المولد النبوي الشريف ، والاحتمال الثاني هو الأصح ، لأن أسرة البكري كانت صاحبة المصلحة في إعادة نقابة الأشراف إليها^(١) . وتمشياً مع هذا التوجيه أصدر بونايرت قراراً بتعيين السيد خليل البكري نقيباً للأشراف ، وذهب بنفسه إلى دار الشيخ خليل البكري ، حيث كان المشايخ أعضاء الديوان قد سبقوه إليها ، وهناك وفي حضورهم خلع بونايرت

(١) كانت نقابة الأشراف في أسرة البكري ، وكان السيد محمد البكري هو نقيب الأشراف وشيخ السجادة البكرية ، فلما جاز إلى ربه بدون عقب في ١٨ ربيع آخر ١٢٠٨ - ٢٣ نوفمبر ١٧٩٣ ، عين الأميران المملوكيان إبراهيم بك ومراد بك في منصب النقيب السيد عمر مكرم ، كما عين السيد خليل البكري شيخاً للسجادة ، وكان تعيين عمر مكرم نقيباً للأشراف بمثابة مكافأة له على السفارة التي قام بها في يوليو ١٧٩١ من أجل إعادة إبراهيم بك ومراد بك إلى الحكم في القاهرة ، وكان في ذلك الوقت في الصعيد يسميان سعيًا حثيثاً لاستعادة حكمهما السليب ، الذي أطاحت به الحملة العثمانية بقيادة حسن باشا الجزائرلى على مصر سنة ١٧٨٦ .

انظر ملاحظات هذا الموضوع في مؤلفنا : عمر مكرم ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٤-٢٨

خلعة ثمينة على النقيب الحديد ، وكان هذا الإجراء بمثابة إعلام رسمي بتقاعده المنصب ، وممارسته لسلطات وظيفته ^(١) ، ويقول الجبرتي : « نودى في المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها إلى النقيب » ^(٢) .

ويصف الجبرتي اهتمام بونابرت باحتفالات المولد ، واشترك الجيش الفرنسي في الاحتفال به ، فيقول : « سأل صاري عسكر عن المولد النبوي ولمساذا لم يعملوه كعادتهم ؟ فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال ، فلم يقبل ، وقال لا بد من ذلك ، وأعطى له ثلثمائة ريال فرنساوي معاونة . وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل . واجتمع الفرنساوية يوم المولد

(١) انظر عرضاً لاختصاصات نقيب الأشراف ، وهلاقات الأشراف بنقبيهم ، وطرق محاكماتهم في بحث بعنوان :

Essai sur les mœurs des habitants (sic) modernes de l'Egypte, par M. de Chabrol.

وقد نشر في الجزء ١٨ المجلد الأول ص ١ - ٣٤٠ في موسوعة وصف مصر :

Description de l'Egypte, ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'Expédition de l'Armée Française. Seconde édition, dite de Panckoucke, Paris, 1821 - 1829. 26 volumes de texte et le même nombre de planches.

والمجموعة التي في متناول الباحثين في دار الكتب والوثائق القومية في القاهرة هي الطبعة الثانية المشار إليها في هذا الهامش ، وقد رجعنا إليها في بحث بعض النقاط التي تتضمنها هذه الدراسة ، ولذلك فإن الإحالة في هوامش الصفحات التالية من هذا البحث تشير إلى الطبعة الثانية من موسوعة « وصف مصر » .

(٢) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٥ .

ولعبوا ميادينهم ، وضربوا طبولهم ودبادبهم ، وأرسل الطبلخانة الكبيرة^(١) إلى بيت الشيخ البكرى ، واستمروا يضربونها طوال النهار والليل بالبركة^(٢) تحت داره ، وهى عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية ، وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة ، وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة ، وسوارىخ تصعد فى الهواء^(٣) .

واستمرت الاحتفالات بالمولد النبوى من ١٩ إلى ٢٣ أغسطس ١٧٩٨ ، أوقدت خلال لياليها القناديل ، وأمست شوارع القاهرة وطرقاتها بمشابة أسواق ليلية . واختص الفرنسيون ثلاثة بيوت فى القاهرة بالإضاءة القوية الكثيفة الممتازة طوال الليالى الخمس التى استغرقتها احتفالات المولد ، وكانت هذه البيوت هى : دار بونابرت ، ودار ديبوى الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة ، ودار السيد خليل البكرى^(٤) . وكان أرباب الطرق الصوفية والأتباع والمريدون والبدراویش وأصحاب الأَشَاير ومن لَهِم يطوفون فى مواكب جرارة ، يحملون المشاعل والأعلام ، وينشدون فى أصوات هادرة عبارات دينية بين دق الطبول والتكبير ، وذكر اسم الرسول صلوات الله عليه : وسارت فى أثر هذه المواكب الدينية مواكب الطوائف ، يتقدم كل طائفة شيخها ونقيبها وأعلامها وشاراتها :

وحضر بونابرت الليلة الختامية للمولد فى دار السيد خليل البكرى ، كما حضرها العلماء الفرنسيون أعضاء مجمع مصر العلمى ، وكبار ضباط الجيش :

(١) فرقة الموسيقى العسكرية .

(٢) يقصد بركة الأُزبكية بالقرب من ميدان الأوبرا حالياً .

(٣) الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٥ .

(4) Courrier de l'Egypte. No 1. en date du 12 Fructidor VI^e année de la République (29 août 1798). p. 3.

وجلس القائد العام أرضاً ساعات طويلاً يستمع إلى المقرئين يتلون آيات القرآن الكريم ، وإلى المنشدين وهم يتلون القصة النبوية ، والتواشيح الدينية : وكان كبار المشايخ يجلسون أرضاً حوله ، وكل منهم يمسك مسبحة في يده ، ينصت لما يتلى : وبلغ من دهاء بونابرت أنه أخذ يقلد الحاضرين ، فكان يهتذات اليمين وذات الشمال كأنه مدرك لما يقولون ، متأثر بما يتلون : وأظهر صبراً لم ينفد في شهود حفلة الذكر من بدايتها حتى نهايتها ، وقد تخللها مآدبة عشاء أقامها السيد خليل البكرى . ومدت الأسمطة على الطريقة الشرقية : واشترك الضيوف الفرنسيون مع المدعوين المصريين في الجلاس أرضاً على وسائل إلى هذه الأسمطة : وكان السباط الذى جلس إليه بونابرت ، والسيد خليل البكرى يتوسط الأسمطة الأخرى ، وقد بلغ عددها خمسين سباطاً : وكان بونابرت يأكل بيديه ، فيمد يمينه في تلال الأرز وأكوام اللحم وأطياب الطعام المقدم على صوان نحاسية ضخمة مستديرة ، وحذا الضيوف الفرنسيون على مضض حذو بونابرت ، فكانوا يأكلون بأيديهم مع المشايخ والأعيان ، ويشربون الماء المعطر برائحة الورد^(١) :

وانتهج بونابرت سياسة إعلامية نشيطة عقب الاحتفالات بالمولد النبوى الشريف ، أرسل رسالة مؤرخة في الحادى عشر من شهر فركتيدور Fructidor من السنة السادسة من التقويم الجمهورى (٢٨ أغسطس ١٧٩٨) إلى الجنرال

(1) Reybaud Louis et autres; Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition Française en Egypte, précédée d'une introduction, présentant le tableau de l'Egypte ancienne et moderne, depuis les Pharaons jusqu'aux successeurs d'Ali - bey, et suivi du récit des événements (sic) survenus en ce pays depuis le départ des Français et sous le règne de Mohammed - Ali, Paris, Denain 1830 - 1836, 10 vols. t. III. pp. 376 - 378.

مارمون^(١) Marmont يطلب منه مقابلة الشيخ محمد المسيرى كبير علماء الإسكندرية ورئيس ديوانها^(٢) ، ويشرح له كيف احتفل بونابرت بالمولد النبوى فى القاهرة، وأمره بأن يذكر له فى ثنايا الحديث أن بونابرت يجتمع ثلاث أو أربع مرات كل عشرة أيام مع كبار المشايخ ورؤساء الأشراف الذين ينحدرون من الدوحة النبوية الشريفة ، وأن له مع هؤلاء وأولئك أحاديث ومناقشات ، ثم قال فى رسالته : « إنه لا يوجد من هو أكثر منى اعتقاداً فى طهارة و قدسية الديانة المحمدية » .

“ , et que personne plus que moi n'est persuadé de la pureté et de la sainteté de la religion mohamétane.^(٣) ”

وفى ذات اليوم — ٢٨ أغسطس — أرسل بونابرت إلى الشيخ محمد المسيرى رسالة كان مما جاء فيها : « تعلمون التقدير الخاص الذى شعرت به نحوكم منذ اللحظة الأولى التى عرفتكم فيها ، إنى أرجو ألا يتأخر الوقت الذى استطيع فيه جمع كل الرجال العقلاء ، والمتعلمين فى البلاد ، وإقامة نظام موحد يقوم على مبادئ القرآن التى هى وحدها المبادئ الحققة ، والتى هى وحدها قديرة على إسعاد الناس » .

(١) تصفه الوثائق الفرنسية بأنه كان يشغل فى ذلك الوقت منصب قائد طابور متحرك بين رشيد وأبي قير .

commandant d'une colonne mobile entre Rosette et Aboukir.

(٢) عين الشيخ محمد المسيرى رئيساً لديوان الإسكندرية ، عندما أنشأ الجنرال كليبر هذا الديوان فى ٢١ أغسطس ١٧٩٨ ، تنفيذاً لأوامر أرسلها إليه بونابرت .

(3) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 3147, au Général Marmont, en date du 11 Fructidor VI^e année de la République. (28 août, 1798),

“ Vous savez l'estime particulière que j'ai conçue de vous au premier instant où je vous ai connu. J'espère que le moment ne tardera pas où je pourrai réunir tous les hommes sages et instruits du pays, et établir un régime uniforme, fondé sur les principes de l'Alcoran, qui sont les seuls vrais et qui peuvent seuls faire le bonheur des hommes. ”^(١)

ومضى بونابرت في سياسته الإعلامية ، مستغلا احتفالات المولد النبوى الشريف ، فأرسل في ٢٩ أغسطس إلى الجنرال كليبر نسخة من عدد جريدة Courier de l'Egypte الصادر في ذات اليوم ، وكان هو العدد الأول من هذه الجريدة الإخبارية الفرنسية التي أصدرتها قيادة الحملة ، وكانت تطبع في القاهرة . وقد تضمن هذا العدد مقالا عن الاحتفالات التي أقيمت بالقاهرة بمناسبة المولد النبوى ، ولإسهام الفرنسيين في هذه الاحتفالات إسهاماً رسمياً ، وقد طالب بونابرت من كليبر اتخاذ الإجراءات لترجمة هذا المقال إلى اللغة العربية ، والعمل على طبعه وإذاعته في كافة أنحاء الشرق ، وأن يرسل إلى بونابرت أربعائة نسخة من الترجمة العربية .^(٢)

تناقلت الجماهير بتحفظ شديد أنباء هذه المشاركة البونابرية في احتفالات المولد النبوى ، وأدرك الشعب بسايقته أن هذه الأفعال ليست صادرة عن عقيدة حقيقية وإيمان صحيح ، وإنما هي ضرب من الخداع والنفاق ، وأن بونابرت استهدف منها تخدير الشعب ، حتى تتوطد دعائم الحكم الفرنسي في مصر ، ثم يظهر بونابرت على حقيقته ، وهكذا جاء بنتيجة عكسية لإسراف بونابرت في التظاهر باحترام الإسلام ، ويقول أحد الباحثين الفرنسيين في هذا الصدد إن الطريقة الحقيقية لكسب قلوب المسامحين من وجهة النظر الدينية ،

(1) Ibid, doc. no. 3148, au Cheikh El Messiri. (la même date).

(2) Ibid, doc. no. 3176 au Général Kleber, en date du 12 Fructidor VI^e année de la République. (29 août, 1798).

هى إلفهامهم بالأقوال والأفعال أن الإسلام موضع الاحترام ، أما التحدى
فى إظهار مثل هذا الاحترام فإنه يثير شكوك المسلمين وسخرتهم ، ويجعلهم
ينظرون إلى متزعم هذه السياسة على أنه منافق أو دجال^(١) .

* * *

وكان منصب أمير الحج شاغراً ، إذ كان صالح بك قد تقلد إمارة الحج
فى منتصف ١٢١٢ هـ قبيل الغزو الفرنسى بشهور معدودات ، وكان من أتباع مراد بك
المقربين إليه . يذكر الجبرقى أن مراد بك شيد له داراً بجوار قصره فى الحيزة ، فلما
عاد صالح بك من الحجاز مع قافلة الحج المصرى رفض أن يذهب إلى القاهرة
وانضم إلى إبراهيم بك فى بليس ، ثم ارتحل معه إلى بلاد الشام حيث توفى
فى ذات السنة^(٢) . وأراد بونايرت استغلال هذه الفرصة بشغل المنصب ، وخلق
جو من الدعاية لسياسته الإسلامية ، ووقع اختياره على مصطفى بك كمتخذا
الباشا العثمانى . وقد مر بنا أن مصطفى بك قد آثر البقاء فى مصر ، ولم يباحق
بالباشا فى ارتحاله عن البلاد مع إبراهيم بك وعمر مكرم وغيرهما ، وكان رجلاً
مهيباً ، ذا نفوذ واسع . وقد نجح بونايرت فى حمله على قبول إمارة الحج :
واسمهدف بونايرت من تعيينه التقرب إلى الباب العالى ، لأن منصب أمير الحج

(١) "Au point de vue religieux, la vraie façon de gagner les
cœurs eût été de tout mettre en œuvre pour faire comprendre aux
musulmans, par des paroles et des actes, qu'on respectait sincère-
ment leur religion. Aller au-delà, c'était risquer d'exciter les
défiances de tous et de se rendre ridicule par des jongleries.

Chauvin Victor; ouvr. cit., p. 10.

(٢) انظر ترجمة صالح بك فى الجبرقى ج ٣ ، ص ٦٦ - ٦٧ ، ويقول الجبرقى : إنه بعد
أن مضت مدة على وفاته « أرسلت زوجته فأحضرت رملته ، ودفنتها بمصر بتربة المجاورين » .

كان يتولاه أحد كبار الأمراء المماليك من رتبة طباطبائية. ويقرر بونابرت أن هذا التعيين قد أدهش جميع الناس، وأنه أمر بأن تدفع لأمير الحج الجديد كل المخصصات المقررة لشاغل هذا المنصب^(١)، وكان منصب أمير الحج من المناصب الرئيسية في مصر. وكان يراعى في اختيار المرشح له شروط معينة، لأنه كان يتحمل مسؤوليات ضخمة، أهمها حماية الحجاج من اعتداءات البدو على قافلة الحج، وكذلك المحافظة على الأموال المعروفة باسم «الصرة» وغيرها من الخيرات التي ترسل من مصر إلى شريف مكة، للإتفاق منها على الحرمين الشريفين، وعلى فقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة. ونذكر بهذه المناسبة أن اتصال الحجاج بمصر كان حتى القرن التاسع عشر أقوى من اتصاله بالدولة العثمانية نفسها.

وأقيم الاحتفال بتعيين مصطفى بك أميراً للحج في ٢ سبتمبر ١٧٩٨، وذهب بونابرت إلى الديوان، وخلع عليه في حضور المشايخ علماء الأزهر خلعاً خضراء، وأهدى إليه جواداً كريماً، وغطاء للرأس مرصعاً بقطع من المساس والأحجار الكريمة^(٢)، وأمر بإطلاق المدافع كوسيلة إعلامية لإبلاغ سكان القاهرة بهذا التعيين. وغادر مصطفى بك مقر الديوان في موكب رسمي^(٣)، وفي أثناء مسيرة الموكب أطلقت المدافع ست طلقات، وردت عليها مدفعية القلعة. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، ففضى بونابرت يحيط شغل هذا المنصب بالجو الإعلامي، فعهد إلى ديوان القاهرة بإبلاغ أمر هذا التعيين إلى سلطان الدولة العثمانية، وإلى شريف مكة، وحكام طرابلس وتونس والجزائر. ويلاحظ أن حجاج شمالي أفريقيا كانوا يحضرون إلى مصر وينضمون إلى

1) Napoleon 1^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, p. 228.

2) Charles- Roux F.; Bonaparte, Gouverneur d'Egypte. Paris. 1935. p. 84.

3) Reybaud; Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, p. 80.

قافلة الحج المصرى قبل تحركها إلى الحجاز ، ومن هنا جاء اهتمام بونابرت بإبلاغ سكان شمالى أفريقيا أن الحكم الجديد فى مصر قد كفّل الأمن والطمأنينة للحجاج ، وبذلك لا ينقطع قدوم حجاج هذه الأقاليم إلى مصر فى موسم الحج . ثم توسع بونابرت فى سياسته الإعلامية ، فأمر بإذاعة مذكرة الديوان على أفراد الشعب المصرى عن طريق المصنفات فى شوارع القاهرة وعند مفارق الطرق . ثم خطا خطوة أخرى حين أمر بتوجيه هذه المذكرة إلى سائر حكام البلاد الإسلامية ، وهذه المذكرة تحمل تاريخ عشرين من ربيع أول سنة ١٢١٣ (أول سبتمبر ١٧٩٨) . ومن الواضح أنها وضعت أولاً باللغة الفرنسية ، ثم ترجمت إلى العربية ، ويقرر أحد الباحثين الفرنسيين أن الشيخ محمد المهدي هو الذى قام — بعد أن تمت ترجمتها — بتنميتها قبل إعدادها للطبع والنشر^(١) ، واهتمت المصادر الفرنسية بنشر النص الفرنسى الكامل لهذه المذكرة^(٢) ، زاعمة أنها ترجمة فرنسية للأصل العربى ، أما الجبرقى فقد ذكر ملخصاً لها^(٣) .

والمذكرة تحوى عرضاً عاماً لأعمال الفرنسيين فى مصر ، منذ أن انتصروا فى معركة إمبابة ، وقالت إن وفداً من المشايخ علماء الأزهر — ونعتهم المذكرة بأنهم دكاترة الشريعة *docteurs de la loi* — قد عبروا النيل إلى البحيرة ، وذهبوا إلى بونابرت عقب معركة إمبابة ، وطلبوا إليه الأمان ، فأجابهم إلى طلبهم ، ثم رجّوه أن يأذن فى أن يستمر الدعاء للسلطان فى خطبة الجمعة ، فأقرهم على ذلك ، وأعلن لهم أنه صديق مخلص للسلطان . وقررت المذكرة أن

(1) Chauvin (V.); ouvr. cit., p. 14, note 1.

(٢) نذكر على سبيل المثال :

Courrier de l'Egypte. No 6. Le 2ème jour complémentaire,
VIe année de la République. pp. 1 - 3. Voir aussi :
Reybaud (L.) et autres; ouvr. cit., t. IV, pp. 81 - 85.

(٣) الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢١ .

الفرنسيين حريصون حرصاً شديداً على احترام الشعائر الدينية الإسلامية، وعلى استمرار أداؤها بصورة رتيبة منتظمة، من حيث فتح المساجد، وإقامة الصلاة، وتلاوة القرآن. وقالت المذكرة أيضاً إن بونابرت ذهب إلى مديرية الشرقية وأنقذ الحجاج من اعتداءات العربان، وإنه احتفل بوفاء النيل والمولد النبوي، وقلد مصطفى بك وكيل الباشا العثماني إمارة الحج، وإن هذا الاختيار لابد أن يصادف الارتياح في دوائر الآستانة، لأنه يؤكد حقوق الباب العالي في مسألة هامة. وخلصت المذكرة إلى أن بونابرت مهتم بتيسير معدات الحج في الموسم الجديد، وأن قوافل الحج لن تتعرض لأى خطر وهى فى طريقها إلى مكة، لأنها ستكون فى حراسة عسكرية قوية، تجعلها بئمان من اعتداء البدو عليها :

ويلاحظ أن الجبرقى أغفل ذكر أجزاء من هذه المذكرة، ولعله اعتبر هذه الأجزاء نوعاً من النفاق، أو الدجل السياسى، فقد ورد فى النص الفرنسى أن بونابرت قد حطم الصليبان وهدم الكنائس فى البلاد التى فتحها فى أوروبا، وبخاصة فى البندقية، وأنه عصف بعرش البابا فى روما. أما الجبرقى ففسد قال إنه ورد فى تلك المذكرة ذكر « بمعنى الكلام السابق من قولهم إنهم مسلمون، وأنهم محترمون للقرآن والنبي ». وتلخيص الجبرقى للمذكرة يعطى القارئ العربى صورة عن جهود بونابرت فى سياسة الإسلامية. وعباراته أو عبارات الشيخ المهدي لا تخلو من الفائدة التاريخية، ولذلك نذكر هنا الفقرات الأخيرة كما وردت فى الجبرقى، فهى تقر بأن الفرنسيين « أوصالوا الحجاج المشتهين وأكرمهم، وأركبوا الماشى، وأطعموا الجيعان، وسقوا العطشان، واعتنوا بيوم الزينة يوم جبر البحر، وعملوا له شأنًا ورونقًا، استجلاباً لسرور المؤمنين، وأنفقوا أموالاً برسم الصدقة على الفقراء، وكذلك اعتنوا بالمولد النبوى، وأنفقوا أموالاً فى شأن انتظامه، واتفق رأينا ورأيهم

على لبس حضرة الجناح المحترم مصطفى أغا كتمخدا بكر باشا والى مصر حالا ،
فاستحسننا ذلك لبقاء علاقة الدولة العلية ، وهم أيضاً مجتهدون في إتمام مهمات
الحرمين ، وأمرونا أن نعلمكم بذلك ^(١) :

* * *

وأقام بونابرت في ٢٢ من سبتمبر ١٧٩٨ احتفالاً عسكرياً مهيباً بمناسبة
الذكرى السابعة لإعلان قيام الجمهورية الفرنسية . وعلى الرغم من أن مناسبة
هذا الاحتفال تتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ فرنسا القوي ، ولا تمت لسياسة
بونابرت الإسلامية بأية صلة ، إلا أنه أراد أن يستغل هذه المناسبة ذات الطابع
الفرنسي البحت ، ليرز إمام المصريين الجناح الديني الإسلامي في سياسته
في حكم مصر ، استعداد بونابرت لهذا الحفل قبل حلول مواعده بمدة طويلة ^(٢) ،

(١) المصدر السابق . ويلاحظ أن بونابرت سبق أن أرسل مذكرتين : الأولى في ٢٥ أغسطس
والثانية في ٢٧ أغسطس إلى غالب بن مساعد شريف مكة ، أبلغه فيها بتصميم الفرنسيين الأكيد على
حماية قافلة الحج المصري ، وأنهم سيرسلون إلى الشريف إيراد الأوقاف الخيرية المرصودة على الحجاز .
وجاء في المذكرة الأولى : « نحن أصدقاء للمسلمين ولدين النبي ، ونرغب أن نعمل كل ما في استطاعتنا
لتكون تصرفاتنا متمشية مع الدين ، وأرجو أن تذكروا في كل مكان أن قافلة الحج لن تتعرض لأي
اضطراب ، وأنها ستكون موضع حمايتنا ، وأنها لن تخشى من الأعراب شيئاً » .

Correspondance de Napoléon; t. IV :

Doc. no. 3110, en date du 8 Fructidor, VI^e année de la République (25 août 1798).

Doc. no. 3136, en date du 10 Fructidor, VI^e année de la République (27 août 1798).

(٢) أصدر بونابرت أمراً في ٢٦ أغسطس ١٧٩٨ يقضى بأن يقام احتفال القاهرة في ميدان
الأزبكية ، واحتفال الإسكندرية عند عمود السور ، واحتفال الصعيد عند أطلال طيبة ،
في الأقصر ، علماً بأن القوات الفرنسية بقيادة الجنرال ديزيه لم تكن قد بلغت بعد مدينة الأقصر .
انظر :

Correspondance de Napoléon; t. IV, doc. no. 3117, en date du
9 Fructidor, VI^e année de la République. (26 août 1798).

فأقام احتفال القاهرة في ميدان الأزبكية أمام مقر القيادة العامة لجيش الشرق ، وأمر بإقامة قوسى نصر كبيرين — أى بوابتين — ، وكتب على إحدى البوابتين « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ^(١) » ، ونقش على البوابة الأخرى صورة معركة إمبرابة ، كما تخيلها الفنان ريجو ^(٢) Rigo عضو لجنة الفنون بمجمع مصر العلمى ، كما أمر بنصب ١٠٥ سارية بعدد المقاطعات الفرنسية ، وسارية عظيمة في الوسط ، كان ارتفاعها سبعين قدماً ، زينها الفنان ريجو بنقوش بديعة ، وكان يرفرف في أعلاها العلم الفرنسى المثلث الألوان ، وأطلق الفرنسيون عليها « شجرة الحرية » . أما أهل القاهرة فقد أطلقوا على هذه السارية اسماً لاذعاً سجله نقولا ترك في مذكراته : « إن هذه شارة الخازوق الذى أدخلوه فينا ، واستيلاهم على مملكتنا ^(٣) » . كما أقيمت تماثيل جانبيسة من الخشب كتبت عليها أسماء قتلى الجيش الفرنسى في مصر .

وكان من بين المدعوين الذين وجهت إليهم الدعوة لحضور الحفل : مصطفى بك أمير الحج ، وقاضى القضاة العثمانى ، وأعضاء ديوان القاهرة ،

1) Reybaud (L.) et autres, ouvr. cit., t. III, p. 379. Voir aussi: Courrier de l'Egypte. N. 8. Le 6 Vendémiaire, VIIe année de la République.

وعلى الرغم من أن المصادر والمراجع الفرنسية ذكرت كتابة الشهادتين على قوس النصر ، إلا أن الجبرقى لم يشر إلى هذه الواقعة إطلاقاً ، ولعله اعتبر كتابة الفرنسيين للشهادتين نوعاً من النفاق الدينامى لا يستحق الذكر .

(٢) قام ريجو بأمر من بوناپرت برسم الشخصيات المصرية والعثمانية البارزة في مصر على عهد الحملة ، وضعت هذه الصور في موسوعة « وصف مصر » .

(٣) نقولا الترك : ذكر « تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » . نشر وترجمة ديجرانج . باريس ، ١٨٣٩ ، ص ٤٥ .

Nakouala El Turk; Histoire de l'expédition des Français en Egypte par Nakoula El-Turk, publiée et traduite par M. Desgranges aîné, Paris, 1839.

ودواوين الأقاليم ، والأعيان من المسلمين ، والأقباط ، والشوام ، ولبسوا في ذلك اليوم « ملابس الافتخار » ، وأجلسوا إلى المنصة الرئيسية التي أقيمت عند شجرة الحرية ، وفرشت المنصة وما حولها بالأبسطة الفاخرة ، وشاهد المدعوون عرضاً عسكرياً مهيباً ، تخلله إطلاق المدافع ، وكانت موسيقى الجيش تعزف الأناشيد العسكرية والوطنية . ولما انتهى العرض العسكري اصطفت وحدات الجيش حول شجرة الحرية ، وتليت عليهم خطبة باللغة الفرنسية ، يقول عنها الجبرتي : « إنها ورقة بلغتهم لا يدري معناها إلا هم ، وكأنها كالوصية أو النصيحة أو الوعظ^(١) » . ولكنها لم تكن شيئاً من ذلك ، كانت خطبة بليغة ، ألهم بها بونايرت حماس الجنود ، وأشاد بالأبجاد العسكرية التي حققوها على عهد الثورة في ميادين القتال في مختلف الجبهات الأوروبية ، وأكد لهم أن جميع المواطنين في فرنسا وعددهم أربعون مليوناً ، وهم يحتفلون بإقامة الحكم الدستوري ، يتجهون بعواطفهم وأفكارهم إلى رجال الحملة في مصر ، ويدكرون في احتفالاتهم في فرنسا أنهم « مدينون لجهادكم ودمائكم بما يتمتعون به من السلام والطمأنينة ، والرخاء والحرية »^(٢) . وأرسل بونايرت كتيبة من الجنود ليرفعوا على قمة هرم الجيزة الأكبر العلم الفرنسي المثلث الألوان ، ثم دعى المدعوون إلى دار بونايرت حيث أقيمت وليمة لمائة مدعو ، وبعد الظهر نظم سباق للخيل في ميدان الأزبكية^(٣) ، ولما سجا الليل « أوقدوا

(١) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٨ .

(٢) Napoléon I^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, pp. 348-349.

(٣) انظر وصفاً ضافياً للحفل في جريدة Courrier de l'Egypte تحت عنوان :

Détails de la Fête du 1^{er} Vendémiaire célébrée au Kaire, pour l'anniversaire de la fondation de la République.

No. 8. Le 6 Vendémiaire, VII^e année de la République (27 septembre, 1798). pp. 2-4.

والنظر أيضاً كلا من :

Napoléon I^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit. t. I. pp. 226-227.

Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. III, pp. 378-385.

جميع القناديل التي على الجبال والتماثيل ، والأحمال التي على البيوت ، وعند
العشاء عملوا حراقة بارود وسواريج ونفوط وشبهه سواقي ودواليب من قار
ومدافع كثيرة نحو ساعتين من الليل ، واستمرت التناديل موقدة حتى طامع
النهار^(١) ، وفي اليوم التالي أزال الفرنسيون كل هذه المنشآت ، وأبقوا شجرة
الحرية وقوس النصر المنقوش فوقه رسم معركة إمبرابة ، وأقاموا قوة فرنسية^(٢)
تتناوب الحراسة ليلاً ونهاراً . ولما أزال الفرنسيون السارية بعد عشرة أشهر
استبشر أهل القاهرة خيراً ، واعتبروا إزالتها فألاً حسناً بقرب جلاء الفرنسيين
عن مصر^(٣) .

لا ريب أن الأمر الذي أصدره بونابرت بأن تكتب على إحدى البوابتين
الشهادتان : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، وهما من أركان الإسلام
الخمسة ، وفي احتفال فرنسي قومي بحت ، كان وسياسة تنم عن نهاية الدهاء
السياسي لجذب قلوب الشعب المصري ، لأنه لا يمكن أن تكون الشهادتان
صادرتين عن عقيدة وإيمان في نفس بونابرت . ومن المعروف أن الثورة
الفرنسية — بتأثير حزب إيبير Jacques - René Hébert (١٧٥٧ — ١٧٩٤)
وشومت Pierre - Gaspard Chaumette (١٧٦٣ — ١٧٩٤) أعلنت إلغاء
الدين المسيحي في فرنسا ، وإحلال عبادة العقل culte de la raison محلها ،

(١) الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٨

(٢) يقول الجبرقي : إن قوس النصر قد سقط في الثاني من أكتوبر ١٧٩٨ بعد عشرة أيام من
انقضاء الحفل « وفي يوم الثلاثاء ٢١ من ربيع آخر ١٢١٣ — ٢ من أكتوبر ١٧٩٨ سقطت البوابة
المصنوعة بركة الأزيككية ، المقابلة لبساب الهواء ، التي كانوا وضعوها في يوم عيدهم ، وقد
تقدم شرحها ووصفها ، وسبب سقوطها أنهم لمسا منعوا المساء من دخوله للبركة ، وسدوا القنطرة
كما تقدم ، علا المساء في أرض البركة ، وتغلخلت الأرض ، فسقطت تلك البوابة . »

انظر : الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٢ .

(٣) نقولاً ترك ، نشر ديجرانج ، ص ٤٥ .

وكان على الإنسان أن يعبد العقل ، والعقل ممثل في سيدة ، وكان يدخل في الديانة الجديدة بعض مظاهر الفسق والمجون ، فالثورة الفرنسية العارمة تجهمت للديانات السماوية بوجه عام . ومجدير بالذكر أن بونابرت ، وهو ابن الثورة ، لم يكن له اعتقاد ديني صحيح ، وقد قرر في مذكراته أن الجيش الفرنسى لم يمارس أية عبادة منذ قامت الثورة الفرنسية ، وأنه في خلال الحملة التي خاضها الجيش في شبه جزيرة إيطاليا لم يذهب أحد من الجنود إلى الكنائس ، وقد نهج الجيش هذا النهج في مصر ، فلم يتردد على الكنائس ^(١) ، وجاءت الحملة إلى مصر وهي لاتضم أحداً من رجال الدين ، قسيساً كان أو أسقفاً ^(٢) .

* * *

وتابع بونابرت سياسته الإسلامية ، فأمر بالاحتفال بمولد الإمام الحسين ، وكانت نية أهل القاهرة منصرفة عن إقامته في تلك السنة (١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م) بالنسبة للظروف التي كانت تجتازها البلاد وقتذاك . وعلم بونابرت بهذا الاتجاه ، فأصر على إقامة الاحتفال كما جرت العادة ، وقيل له إن الاحتفال بهذا المولد يقام كل عام عقب الانتهاء من احتفالات المولد النبوى الشريف ، وقد أقيم الاحتفال في يوم الثلاثاء الثانى من أكتوبر ١٧٩٨ ، أو الحادى والعشرين من ربيع آخر ١٢١٣ ، وأشرف الشيخ محمد السادات على

(١) "Depuis la revolution, l'armée française n'exerçait aucun culte. Elle n'avait pas fréquenté les églises en Italie, elle ne les fréquentait pas davantage en Egypte".

Napoléon I^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, pp. 215.
(٢) نود بهذه المناسبة أن نصحح خطأ وقع فيه الجبرقى ، إذ قرر أن الخطبة التي أعدها بونابرت لحفل ٢٢ سبتمبر ١٧٩٨ في القاهرة قد ألقاها « كبير قسوسهم » . والحقيقة أن الذى ألقى هذه الخطبة نيابة عن بونابرت هو أحد كبار العسكريين الفرنسيين ، واسمه بويه
Adjutant Général Boyer.

انظر كلا من :

الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٨
Reybaud (L.) et autres; ouvr. cit., t. III, pp. 380-381.

الأحتفال ، وفي الليلة الختامية للمولد « حضر صارى عسكر وشاهد الوقدة » ،
ورجع إلى داره بعد العشاء ^(١) :

سياسة بونابرت الإسلامية في المجال الدبلوماسي

ومن مظاهر سياسة بونابرت الإسلامية — في المجال الدبلوماسي —
المحاولات التي بذلها للاتصال بالصدر الأعظم وبأحمد باشا الجزائر والى عكسا
والتودد إليهما . وكان من بين أهدافه من هذه الاتصالات إقناع المصريين بأن
السلطان العثماني صديق للفرنسيين وأنه راض عن احتلالهم لمصر . وقد وقع
اختيار بونابرت على بوفوازان Beauvoisins — مندوبه لدى ديوان
القاهرة — كى يسافر إلى الشام لإجراء مباحثات سياسية واقتصادية مع أحمد
باشا الجزائر . وقد زوده بتعليقات مسجلة في الوثيقة رقم ٣٠٧٧ وتاريخها ٢٢
أغسطس ١٧٩٨ ^(٢) وقد أمره فيها بالذهاب إلى دمياط والإبحار منها على سفينة
عثمانية أو يونانية إلى يافا ويطلب مقابلة أحمد باشا الجزائر « لكى يصرح له بصوت
عال أن المسلمين ليس لهم أصدقاء في أوروبا مثلنا . وأننى قد علمت مع الأسف
أنهم يعتقدون في بلاد الشام أنى اعترم الاستيلاء على بيت المقدس والقضاء على

(١) الجبرى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٢

(2) Correspondance de Napoléon, t IV.

(٣) يقول نقولا ترك في مذكراته إن هذا المندوب سافر على سفينة تابعة لأحمد باشا الجزائر
كانت راسية في ميناء دمياط وقت وصول الفرنسيين إلى مصر فاحتجزوها . ورأى الجنرال فيال
Vial الحاكم العسكري لدمياط إطلاق سراح السفينة كى يسافر عليها بوفوازان . وبعث في طلب
ربان السفينة واسمه اليبديروس ، وأمره بأن يستعد للإبحار وأن يأخذ معه على السفينة « مندوب
من طرف الدولة الفرنسية لمقابلة أحمد باشا الجزائر لأجل عقد الصلح وإقرار السلام » ، وأخذ
بوفوازان معه مقادير من الأرض بمثابة هدية للجزائر ، واصطحب معه ترجمانا وتاجرين عربيين شاميين
مسيحيين هما أفلون زغيب ، وحننا عطية .

انظر :

مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فيث ، ص ص ٣٣ - ٣٤ .

الدين الإسلامى : وليقل له إن هذه الظنون بعيدة عن رغبتي وميولي : فليكن مطمئن البال ويجب عليه ألا يخلط بيننا وبين غيرنا من الأوروبيين ، ذلك لأننا معشر الفرنسيين لانستعبد المسلمين ، بل على العكس إننا نفسح لهم طريق الحرية » وطلب بونابرت من مندوبه أن يسافر إلى عكا إذا لم يجد الجزائر باشا في يافا :

أما الخطاب الذى بعث به بونابرت إلى الجزائر وأخذه معه بوڤوازان فيحمل ذات ، التاريخ وهو الثانى والعشرين من أغسطس ١٧٩٨ : وهذا نصه .

« إلى أحمد باشا حاكم صيدا وعكا

« ماجئت مصر محارباً المسلمين ، ولكن جئت لمحاربة البكوات المماليك : واعتقد أنى باستئصال شأفتهم قد أديت عملا عادلا وموافقا لمصلحتك ، لأنهم كانوا أعداءك . ولا بد أنك تعلم أننى لما استوليت على مالطة كان أول إجراء قمت به هو أنى أطلقت سراح الأسرى العثمانيين ، وعددهم ألفان ، قضوا سنوات عديدة فى ذل الأسر والاستعباد . ولم أكد أصل إلى مصر حتى اطمأن بال الأهالى . وقد بالغت فى احترام العلماء ورجال الدين ومساجد المسلمين . ولم يسبق للحجاج المسلمين أن ظفروا بمثل العناية والرعاية التى لقوها منى ، ولم يسبق أن احتفل بالمولد النبوى بمثل ما احتفلت به وبمثل ما أضفيت على الاحتفال به من أبهة كاملة واحترام عميق :

« وقد بعثت إليك بهذا الخطاب مع ضابط يستطيع أن يوقفك على اتجاهاتى ورغبتي فى أن تسودنا علاقات صفاء وسلام لتتعاون معا على ترقية الوسائل المؤدية إلى نمو التجارة وخير البلدين . وأؤكد أنه لا يوجد للمسلمين أصدقاء أكثر إخلاصاً من الفرنسيين . » وقد فشل بوڤوازان فى مهمته فشلا ذريعا ، إذ رفض الجزائر باشا مقابلته كما رفض الهدية وقال « أخرج حالا

(١) التجار وأرزاقهم من البركندة . ونزل هذا الكافر مع ترجمانه في أحد النقاير ،
وأخبره بأن يرجع إلى حيث أتى ، وإن لم يرجع في هذه الساعة سأحرق فيه
النقيرة » وتم نقل بوفوازان وترجمانه إلى سفينة أخرى عادت بهما مع كميات
الأرز إلى دمياط . أما التاجران فقد أمر الحزار باشا بقتلهما ومصادرة بضائعهما .
(٢)

أما الاتصالات التي قام بها بونابرت مع الصدر الأعظم فقد أخذت صورة
مذكورة مؤرخة في ٢٢ من أغسطس ١٧٩٨ بعث بها ورد فيها قوله أو زعمه أن
الجيش الفرنسي قد جاء إلى مصر ليعاقب البكوات المماليك على الإهانات
التي دأبوا على توجيهها إلى التجار الفرنسيين ، وقال إن حكومة الديركتوار قد عينت
تاليران — بريجهور Talleyrand-Périgord وزير الخارجية سفيراً في الآستانة ،
وأنها زودته بتعليمات لعقد معاهدة تستهدف توطيد العلاقات الودية القديمة
بين الدولتين وتذليل ما قد ينشأ من صعاب بسبب احتلال الجيش الفرنسي
لمصر . وقال أيضاً إنه أرسل هذا الخطاب لتوضيح النوايا الطيبة
للحكومة الفرنسية نحو الدولة العثمانية ، لأنه يخشى أن يكون وصول السفير الفرنسي
إلى الآستانة قد تأخر بعض الوقت بسبب بعض الطوارئ : واقترح عليه

(١) بركندة لفظة تستعمل في اللغة التركية بمعنى سفينة ذات صاريين ، ولها سطح أو ظهر واحد ،
وهي مشتقة من الكلمة الإيطالية brigantino ، ومنها دخلت اللغة الفرنسية brigantin
انظر :

Meynard Barbier de; ouvr. cit., t. I, p.196, et p. 394.

(٢) نقاير مفردتها نقيرة ، وهي سفينة وكانت تطلق وقتذاك على القرفاطة . corvette
(٣) مذكرات نقولا ترك ص ص ٣٣ — ٣٤ وتتفق رواية نقولا ترك في جوهرها مع رواية
الخبير وإن كان نقولا ترك أكثر تفصيلاً . ذكر الخبير وهو يستعرض حوادث شهر ربيع أول
سنة ١٢١٣ « حضر القاصد الذي كان أرسله كبير الفرنساوية بمكاتبات وهدية إلى أحمد باشا الحزار
بمكا ، وذلك عند استقرارهم بمصر وصحبته أنفاد من النصاري الشوام في صفة تجار ودهم بجانب أرز ،
ونزلوا من ثغر دمياط في سفينة من سفائن أحمد باشا . فلما وصلوا إلى عكا وعلم بهم أحمد باشا أمر
بذلك الفرنساوي فنقلوه إلى بعض النقاير ، ولم يواجهه ولم يأخذ منه شيئاً ، وأمره بالرجوع من حيث
أتى . وعوق عنده نصاري الشوام الذين كانوا بصحبته » .

في هذه الحالة أحد حلين : إما أن يرسل الصدر الأعظم مندوباً مزوداً بالتعليمات والصلاحيات لإجراء مفاوضات سياسية ، أو يرسل الصدر الأعظم فرماً إلى بونابرت . وعلى ضوء مايجئ في هذا الفرمان يرسل بونابرت مندوباً للدخول في مباحثات لتحديد مستقبل مصر ولتسوية المسائل « التي تكون في مصلحة جلالة السلطان والجمهورية الفرنسية حليفته الأكثر أمانة ، وتوقع في الارتباك والحيرة البكوات المماليك أعداءنا المشتركين . »

ولم يكن لهذا الخطاب أى صدى في دوائر الباب العالي، لأن هذه الدوائر كانت قد حزبت أمرها على امتشاق الحسام ضد فرنسا ، وشجعها على ذلك تحطيم الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية ، ثم دخول روسيا الحرب إلى جانب الدولة العثمانية ضد فرنسا . وكان العامل الثاني هو الحاسم في تحديد موقف الدولة العثمانية .

* * *

الأزهر يتنادى إلى الثورة

حسبنا أن نقف مؤقتاً عند هذه المظاهر التي ذكرناها لسياسة بونابرت الإسلامية لتبين صدها في نفوس المصريين ، لأنه في صباح ٢١ من أكتوبر ١٧٩٨ اندلعت ثورة دينية عارمة في القاهرة ضد الحكم الفرنسي ، تنادى إليها الأزهريون ، وتزعمها الشيخ محمد السادات ، بعد أن كونوا مجلساً لقيادة الثورة ، جعل من الجامع الأزهر مقراً لهذا المجلس الثوري ، وانطلق المؤذنون من مآذن المساجد في القاهرة يدعون المسلمين إلى الحفاظ على دينهم ، بالقيام على الفرنسيين . وكانت استجابة المسلمين من سكان القاهرة والقرى الحطية بها لهذا النداء الديني الثوري استجابة فورية ، فنفتروا خفافاً وثقالاً يجاهدون الفرنسيين ، وأخذت شوارع القاهرة تموج بالثوار وهم يهتفون : نصر الله دين الإسلام .

الأزهر ملتقى المعارضين للحكم الفرنسي
ويلاحظ أن الجامع الأزهر كان ملتقى المعارضين للحكم الفرنسي ،
والساخطين عليه ، ويشير بوناپرت في أكثر من موضع في مذكراته إلى أن
هؤلاء الناقسين على الحكم الفرنسي كانوا يجتمعون في رحاب الجامع الأزهر
كلما صدر عن السلطات الفرنسية تصرف يسيء إليهم ، وحسبنا أن نشير هنا
إلى إحدى هذه المرات ، فقد ذكر بوناپرت أنه لما صدرت الأوامر بهدم
المقابر ، تقاطرت وفود سكان القاهرة إلى مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي
في الأزبكية ، وكان يتزعم هذه الوفود الشعبية أئمة المساجد ومؤذونها . ويصفهم
بوناپرت بأنهم قوم مسرفون في تعصبهم ، وأنهم تكلموا أمامه بانفعال شديد ،
وصبوا جام غضبهم على المهندسين الفرنسيين . وعلى الرغم من أنه أصدر
الأوامر بإيقاف عمليات هدم المقابر فوراً ، فإن المتظاهرين خرجوا من عنده
وذهبوا إلى الجامع الأزهر ليتدارسوا الموقف^(١) .

أحداث سبقت قيام الثورة

ولنمر مروراً سريعاً ببعض الأحداث التي سبقت قيام الثورة ، وهي أحداث
ذات صلة وثيقة بسياسة بوناپرت الإسلامية ، ولنبدأ بأول منشور وجهه هذا

(1) Napoléon I^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, pp. 229-230.

ويشير الجبرقي إلى هذا الحادث الذي أثار سكان القاهرة ، وهو يتكلم عن حوادث يوم
السبت ١٨ من ربيع آخر ١٢١٣ (٢٩ من سبتمبر ١٧٩٨) فيقول : « ذهبت جماعة من القواسمة
الذين يقدمون الفراساوية ، وشرعوا في هدم التراكيب المبنية على المقابر بتربة الأزبكية ، وتهيئها
بالأرض ، فشاع الخير بذلك ، وتساع أصحاب التربة بتلك البقعة ، فخرجوا من كل حذب
ينساون ، وأكثرهم النساء الساكنات تجارات المدايغ وباب اللوق وكوم الشيخ سلامة والفوالة
والمناصرة وقنطرة الأمير حسين وقاعة الكلاب ، إلى أن صاروا كالجراد المنتشر ، ولطم صياح
وضجيج ، واجتمعوا بالأزبكية ، ووقفوا تحت بيت صاري عسكر ، فنزل لهم المترجون ،
واعترضوا بأن صاري عسكر لا علم له بذلك الهدم ، ولم يأمر به ، وإنما أمر بمنع الدفن فقط ،
فرجعوا إلى أملاكهم ، ورفع الهدم عنهم » .

انظر الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢١ .

القائد إلى الشعب المصرى بتاريخ ٢ يوليو ١٧٩٨ ، فنقول إن استجابة الشعب إلى هذا المنشور جاءت على غير ما كان يرجو بونابرت ، إذ لمسا بلغت القاهرة أنباء انتصار الفرنسيين فى معركة شبراخيس^(١) ، ومواصلة زحفهم على القاهرة ، فودى بالنفير العام ، وصعد عمر مكرم نقيب الأشراف إلى القاعة وأنزل منها علماً كبيراً أطلق عليه العمامة « البيرق النبوى » ونشره بين يديه ، ومشى به من القاعة ، مطوفاً بشوارع القاهرة ، داعياً إلى الجهاد الدينى ، وانتهى به المطاف فى بولاق ، حيث كان الأمير إبراهيم بك قد أقام معسكراً لقواته المملوكية على الضفة الشرقية للنيل ، ووقف الأمير مراد بك بقواته فى إمبابنة على الضفة الغربية ، وأغلق التجار حوانيتهم ، وخالت الأسواق من روادها ، واشتركت طوائف الحرف فى التطوع ، وكانت كل دافئة تجمع الأموال من أفرادها ، كل على قدر طاقته ، واشترى رؤساء الطوائف الأسلحة والذخائر والخيام ، وتطوع الأثرياء بتجهيز جماعات من المغاربة والشوام بالسلاح والطعام وغير ذلك ، وتوافد على القاهرة جموع كثيفة العدد من عرب البحيرة والشرقية والصعيد ، ليشتبكوا فى الكفاح . يقول الجبرتي : « إن جميع الناس بذلوا وسعهم ، وفعلوا ما فى قوتهم وطاقاتهم ، وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم . فلم يشح فى ذلك الوقت أحد بشيء مما يملكه ... ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق ، وأقام بها من حين نصب إبراهيم بك العرضى هناك^(٢) ، إلى وقت الهزيمة ، سوى القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكاناً ولا مأوى ، ف يرجعون إلى بيوتهم ويبيتون بها ، ثم يصحبون إلى بولاق^(٣) »

(١) تذكر المصادر والمراجع العربية أن المعركة دارت فى بلدة شبراخيت ، بينما تذكر معظم المصادر الفرنسية المعاصرة لأحداث الحملة أن المعركة وقعت فى مكان يسمى شبراخيس Choubrâ Reïs وقد سبق أن تعرضنا لهذه المسألة وحددنا مكان قرية شبراخيس التى دارت فيها المعركة .

انظر ص ٢٤ هامش رقم (٢) فى هذا البحث .

(٢) العرضى كلمة مأخوذة من اللغة التركية : أوردو ، ومعناها معسكر ، وقد وردت فى كتابات بعض الباحثين : أوردى ، أوردو ، أرضى .

(٣) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧ .

وبعد انتصار الفرنسيين في معركة إمامية ، رفض عمر مكرم ومعه نفر من المصريين أن يكونوا من دعائم الحكم الجديد ، وآثروا الهجرة إلى بلاد الشام ، وفضلوا النفي الاختياري والتشريد وشظف العيش ، على التعاون مع الفرنسيين في أية صورة من صور التعاون :

وأصدر بونابرت قراراً بإنشاء ديوان القاهرة ، وحدد فيه أسماء أعضائه — كما ذكرنا — ولكن رفض ثلاثة منهم هم : عمر مكرم ، والشيخ محمد السادات ، والشيخ محمد الأمير عضوية الديوان أنفة ، فحل محلهم ثلاثة آخرون هم المشايخ : الدمهورى ، والشبراخيتى ، والدواخلى . وسنتعرض في موطن قادم من هذه الدراسة لطبيعة العلاقات بين الفرنسيين وبين المشايخ علماء الأزهر ، الذين قبلوا عضوية الديوان ، وسنرى كيف أدرك بونابرت وغيره من كبار رجال الحملة أن قلوب علماء الأزهر كانت نافرة من الحكم الفرنسى :

* * *

السبب الرئيسى للثورة

قامت ثورة أكتوبر ١٧٩٨ قبل أن تنتهى ثلاثة أشهر على دخول الفرنسيين القاهرة ، وكان بونابرت حريصاً الحرص كله خلال هذه الأشهر الثلاثة على انتهاج سياسته الإسلامية تقريباً إلى الشعب ، فكان نشوب الثورة دليلاً على إخفاق سياسته الإسلامية . وترجع هذه الثورة إلى سبب رئيسى وإلى عوامل مشجعة ، وأخرى مساعدة ، ويتمثل السبب الرئيسى فى استحالة إيجاد جو من التعايش السلمى بين الحكم الفرنسى لمصر الإسلامية وبين الشعب المصرى بسبب اختلاف الدين بين الفرنسيين والمصريين ، وكان الشعب فى القرن الثامن عشر يشكل مجتمعاً دينياً إسلامياً متزماً ، ينظر إلى الدولة العثمانية على

أنها دولة الإسلام الكبرى ، وأن سلطانها هو سلطان المسلمين ، ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت بعد بين أفراد الشعب المصرى ، وكانت ثقافتهم ثقافة دينية ، ولم تكن الدولة العثمانية بالنسبة لمصر دولة أجنبية من ناحية الفقه الإسلامى ، لأنه من المبادئ المقررة فى الشريعة الإسلامية أن بلاد المسلمين جميعها تعتبر داراً واحدة ، مهما تعددت أقاليمها ، والفقه الإسلامى يقسم العالم إلى قسمين : دار الإسلام ، ودار الحرب ، وتشمل الأولى البلاد التى يكون للمسلمين ولاية عليها ، وتضم إلى جانب المسلمين أشخاصاً من غير المسلمين هم الذميون والمستأمنون ، أما دار الحرب فتشمل البلاد التى ليس للمسلمين ولاية عليها ، ولا تقام فيها أكثر شعائر الإسلام^(٢) ، يضاف إلى ذلك أن اشتباك الدولة العثمانية فى حروب خارجية، شنتها عليها الدول الأوروبية طوال القرن الثامن عشر ، والانتصارات التى أحرزتها النمسا والروسيا عليها ، كل أولئك جعل الشعب المصرى يزداد تعلقاً بالدولة العثمانية ، وولاء لسلطانها :

فى هذا الجو الدينى المتميزت هبط الفرنسيون أرض مصر ، واستولوا عليها عنوة ، وغادر مصر أبو بكر باشا الطراباسى الوالى العثمانى ، ومعه الأمير إبراهيم بك شيخ البلد ، وعمر مكرم نقيب الأشراف ، وعدد من المصريين ،

(١) نذكر هنا حادثين يؤكدان هذه الحقيقة ، وقد وقعا إبان الحكم الفرنسى ، وكان الحادث الأول عندما قدم نلسن بالأسطول الإنجليزى إلى الإسكندرية ، قبل مجيء الحملة الفرنسية يبحث عنها ، وأرسل نلسن مندوباً إلى حاكم الثغر ، وهو السيد محمد كريم ، فقال له الأخير فى سياق حديث مثير : « هذه بلاد السلطان ، وليس للفرنسيين ، ولا لغيرهم عليها سبيل » . أما الحادث الثانى ، فقد وقع فى أعقاب ثورة القاهرة الثانية (٢٠ مارس - ٢١ أبريل ١٨٠٠) حين حدد الجنرال كليبر يوم ٣ من مايو ١٨٠٠ موعداً لمقابلة المشايخ علماء الأزهر ، وفى هذا الاجتماع قال المشايخ عن السلطان العثمانى إنه « سلطاننا القديم ، وسلطان المسلمين » . انظر عن هذين الحادثين :

الجبرى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢ - ٣ ، وص ١٠٧ على التوالى .
(٢) دكتور محمد حافظ غانم : مبادئ القانون الدولى العام . دراسة لقضاياه الأصولية ، ولأحكامه العامة . القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٤١ - ٤٦ .

وبمغادرة الباشا العثماني البلاد زال مظهر من مظاهر السيادة العثمانية على مصر ، وأصبح بونابرت على رأس النظام الجديد Le Nouveau Régime ، أو الحكم الجديد ، ولم يكن بونابرت مسلماً ولا عثمانياً ولا مملوكياً . ونظر المصريون إليه على حقيقته : حاكماً مسيحياً أوروبياً عسكرياً أجنبياً ، استولى على بلادهم عنوة . وكان المصريون حتى ذلك الوقت لا يعرفون عن أوروبا إلا وجهها الكريه ، فذكريات الحروب الصليبية كانت لا تزال عالقة في أذهانهم . ولم تكن هناك اتصالات اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية بين الشعب المصري وبين الشعوب الأوروبية ، لأن رواسب الحروب الصليبية كانت تحول دون قيام مثل هذه الاتصالات من ناحية ، ولأن الدولة العثمانية نفسها كانت قد فرضت العزلة على مصر وغيرها من الولايات العربية من ناحية ثانية ، ولأن الظروف التي عاش في ظلها المصريون كانت لا تسمح لهم على الإطلاق أن يمدوا أبصارهم عبر البحر المتوسط إلى أوروبا ، لينشئوا معها تلك الصلات حتى ولو كانت الدولة العثمانية قد أذنت لهم في إيجاد مثل تلك العلاقات من ناحية ثالثة ، فستوى معيشتهم كان هابطاً ، والاقتصاد المصري كان اقتصاداً محلياً ، وثقافتهم كانت دينية بحتة ، ولم يتجهوا لدراسة الهندسة ، أو الطب ، أو الزراعة ، أو غيرها من الدراسات العلمية التي كانت تقوم بها معظم الجامعات الأوروبية .

كان المصريون قد اعتادوا الانقلابات السياسية بكثرة ملحوظة ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، بحيث كادت تصبح هذه الانقلابات أمراً عادياً في الحياة السياسية بمصر ، ولكن كانت جميعها على وتيرة واحدة ، لم يأت واحد منها بجديد على النظام السياسي ، أو التقاليد الدينية ، أو الحياة الاجتماعية . كان الأمراء المماليك يتكتلون ضد الباشا العثماني ، ويجمعون

كلمتهم على إنهاء حكمه ، ويتحرك أرباب العكاكيز ويصعدون إلى القلعة لإبلاغ الباشا بقرار عزله ، فيصدع بما يؤمر ، ويهبط من القاعة إلى إحدى الدور الخاصة ، ريثما تتم محاسبته على تصرفاته المالية ، ثم تتخذ إجراءات ترحيله عن البلاد ، وينزل الباب العالى على رغبة الأمراء المماليك ، ويرسل والياً جديداً يستقر في قلعة الجبل ، ويمضى في حكم البلاد ، دون إحداث تغيير أو تطوير في أجهزة الحكم. وكان شيخ البلد — وهو كبير الأمراء المماليك ، وثانى شخصية في مصر بعد الباشا — يواجه منافسة خطيرة من أمير مملوكي آخر يتطلع إلى الظفر بهذا المنصب ، تأسيساً على أنه أكثر منه جمعاً ، وأعز نفراً ، وأشد بأساً ، ويقع صراع دهوى بين هذين الأميرين المملوكيين ، وينتهى هذا الصراع بمصرع أحدهما أو هزيمته ، وفراره مع فاول قواته إلى أقاصى الصعيد . ويمضى الأمير المنتصر في مشيخة مصر ، يحكم البلاد ، كما حكمها سلفه من قبل ، دون المساس بالأوضاع السائدة ، ثم يظهر عليه بعد فترة — قد تطول وقد تقصر — أمير مملوكي جديد ، ويتكرر المشهد الدائم ، من اندلاع حرب داخلية بين قوات كل منهما ، تسفر عن هزيمة أمير ، وانتصار أمير ينصرف إلى حكم البلاد ، مبقياً على كافة النظام السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، التي اعتادها الشعب جيلاً بعد جيل .

عرفت أهل القاهرة بصفة خاصة هذه الانقلابات ، وشاهدوها عن كثب ، ولكنهم وقفوا منها موقفاً سلبياً ، ولم يكن يعينهم انتصار أمير مملوكي معين أو هزيمته ، لأن هذه الانقلابات لم تمس أساليبهم في الحياة ، على الرغم مما كان يسبقها ، أو يصحبها ، أو يعقبها من اضطراب الأمن ، وتعسف الحاكم المنتصر ، إذ يسرف في فرض ضرائب جزافية على الشعب الكادح .

هذه الانقلابات المكرورة كانت كلها انقلابات « إسلامية » و « فردية » ، وفي « نطاق الدولة العثمانية » ، ويقصد بالإسلامية أن القادة الذين تزعموا هذه

الانقلابات مسلمون . ويقصد بالفردية أن فرداً واحداً قاد الانقلاب ، وجنى ثمرته حكماً وجاهاً ونفوذاً ، إذا نجح الانقلاب ، أو دفع حياته ثمناً لهذه المغامرة إذا باء بالفشل . ويقصد بعبارـة « في نطاق الدولة العثمانية » أن هذه الانقلابات لم تستهدف الاستقلال عن الدولة العثمانية ، ولذلك فإن الانقلابات أو الحركات التي قامت في الشرق العربي العثماني الإسلامي تختلف اختلافاً جذرياً عن الحركات التي قامت في الولايات العثمانية الأوروبية المسيحية ، فهذه كانت حركات انفصالية أو استقلالية ، دفعت إليها الروح القومية والدينية معاً ، وغدتها الدول الأوروبية مثل النمسا والروسيا . ومما يذكر أن على بك الكبير الذي قام بحركته (١٧٦٨ - ١٧٧٣) لم يجبرو على إعلان انفصاله عن الدولة العثمانية ، واستقلاله بمصر : حقيقة أنه شـل نفوذ الديوان ونفوذ الفرق العسكرية العثمانية ، وانتهز فرصة اندلاع الحرب الروسية التركية في سنة ١٧٦٨ ، وتخلص من الباشا العثماني في أكتوبر من ذات السنة ، ولم يسمح لأي وال عثماني بدخول مصر ، أو كما يقول الجبرتي : « منع ورود الولاة العثمانيين »^(١) ، وامتنع عن إرسال الجزية إلى السلطان ابتداء من سنة ١٧٦٨ ، ولكنه لم يلقب نفسه سلطاناً ، وكانت الوثائق الرسمية الخاصة بهذه الفترة من بدء حركته حتى وفاته تصدر باسم « حضرت على بك ميرلوا - أي أمير لواء قائمقام بحروسة مصر »^(٢) ، وأكثر من ذلك أمر على بك بضرب خطيب مسجد الداودية بالقاهرة ، لأنه دعا في خطبة الجمعة للسلطان العثماني ، ثم دعا لعلي بك ، وامتنع على بك من هذا التصرف ، وكان يريد أن يكون دعاء الخطيب

(١) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٣٨١ .

(٢) دكتور محمد رفعت رمضان : على بك الكبير . القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع ، الناشر

دار الفكر العربي ، ص ٦١ .

(١) مقصوداً على السلطان وحده ، على الرغم مما كان بين الاثنين من نفور ووحشة كما أنه أمر - بعد أن قام بحركته - بسك عملة جديدة ، فضية أولاً ، وذهبية بعد ذلك ، جعل على أحد وجهيها طغراء باسم السلطان مصطفى الثالث سلطان الدولة العثمانية وقتذاك (١٧٥٧ - ١٧٧٤) ، وعلى وجهها الآخر نقشت عبارة « ضرب في مصر » ، ونقش اسم « علي » بطريقة تم عن التحايل على عدم ذكر اسمه صراحة ، إذ استخدم حرف الباء في كلمة ضرب كمحرف ياء لكلمة « علي »^(٢) . واستناداً إلى هذه الأسانيد نستطيع أن نقرر أن علي بك الكبير حافظ على بعض الروابط بين مصر والدولة العثمانية ، مثل الخطبة والعملة ، وأنه استهدف من حركته الانفراد بحكم مصر ، مع بقائها داخل نطاق الدولة العثمانية ، فحركة علي بك كانت « إسلامية » و « فردية » ، و « في نطاق الدولة العثمانية » .

نخلص من هذا التحليل السريع لحركة الانقلابات التي شهدتها مصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، إلى أن هذه الانقلابات كانت تختلف

(١) ذكر الجبرتي هذا الحادث فقال : « إن علي بك صلى الجمعة في أوائل شهر رمضان ١١٨٣ هـ (٢٩ ديسمبر ١٧٦٩ - ٢٧ يناير ١٧٧٠) بجامع الداودية ، فخطب الشيخ عبد ربه ، ودعا للسلطان ، ثم دعا لعل بك ، فلما انقضت الصلاة ، وقام علي بك يريد الانصراف أحضر الخطيب ، وكان رجلاً من أهل العلم ، يغلب عليه البلبه والصلاخ . فقال له : « من أمرك بالدعاء باسمي على المنبر ؟ أقيل لك إنني سلطان ؟ فقال : نعم ، أنت سلطان ، وأنا أدعو لك . فأظهر الغيظ ، وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى . فقام بعد ذلك متألماً من الضرب ، وركب حماراً وذهب إلى داره وهو يقول في طريقه : بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، ثم إن علي بك أرسل إليه في ثاني يوم بدراهم وكسوة ، واستسمحه » .

انظر : الجبرتي ؛ مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

(٢) انظر البحث الذي وضعه Samuel Bernard عن تطور النقود في مصر عبر العصور التاريخية ، منذ عصر الخلفاء حتى عصر الحملة الفرنسية ، ونماذجها ، وأشكالها وأوزانها وأنواعها ، وطرق سكها ، وما إلى ذلك . وقد نشر هذا البحث الضافي بعنوان :

Mémoire sur les monnoies (*sic*) d'Egypte.

dans :

Description de l'Egypte, t. XVI, pp. 267 - 506.

اختلافاً جذرياً عن الانقلاب الذى تم بنزول الحملة الفرنسية أرض مصر سنة ١٧٩٨ ، فكان اختلاف الدين بين المصريين والفرنسيين هو الحائل الأكبر دون إيجاد جو من التعايش السامى بين الفريقين ، وكان هو العامل الأهم الذى حدد نوع العلاقات بين الطرفين .

بونابرت يعترف بأهمية العازل الدينى

وقد أوضح بونابرت أهمية اختلاف الدين فى تحديد العلاقات بين الفرنسيين وبين الشعب المصرى ، واعتقد بونابرت بعد إقامته فى مصر ، أو لعله ازداد اعتقاداً ، فى سلامة الآراء التى سبق أن ردها الرحالة الفرنسى فولنى Volney عقب زيارته للشام ومصر سنة ١٧٨٥ ، فقد ذكر بونابرت فى مذكراته ، هذه الآراء منسوبة إلى صاحبها الرحالة الفرنسى ، وتتلخص فى أن اختلاف الدين بين الفرنسيين وبين المصريين هو العقبة الرئيسية التى تحول دون توطيد دعائم الحكم الفرنسى فى مصر ، لأن الاستيلاء على مصر يتطلب — فى نظر هذا الرحالة — ثلاثة حروب : الحرب الأولى ضد إنجلترا ، والثانية ضد الدولة العثمانية ، والثالثة وهى أشقها وأصعبها هى ضد المسلمين سكان مصر ، وتتطلب الحرب الأخيرة تضحيات جسيمة ، بحيث تعتبر حرب استنزاف للفرنسيين ، ولا يمكن التغلب عليها^(١) .

ومضى بونابرت يقول فى صراحة تامة : إن الجيش الفرنسى قد استولى على الإسكندرية والقاهرة ، وانتصر فى معركة شبراخيت وإمبابة ، ولكن

(١) كان فولنى قد قام برحلة إلى بلاد الشام ومصر فى السنوات ١٧٨٣ ، ١٧٨٤ ، ١٧٨٥ ، وأصدر كتاباً عن هذه الرحلة ، وأهدى نسخة منه إلى كاترين الثانية قيصرية روسيا ، وأظهرت تقدير المؤلف ، فمنحته وساماً ذهبياً ، وأعيد طبع هذا الكتاب عدة مرات ١٧٩٢ ، ثم فى سنة ١٧٩٩ ثم فى ١٨٠٧ كما ترجم إلى الألمانية والهولندية ، وفى السنة التالية لصدور كتابه ، أى فى سنة ١٧٨٨ أصدر فولنى كتاباً جديداً ، أوضح فيه الصعاب التى تحول دون نجاح الفرنسيين فى استعمار مصر ، وكان فى مقدمتها اختلاف الدين والعادات ، والأخلاق .

موقف الفرنسيين لم يكن مستقراً ، بل ظل مزعزعا ، ولم يتحمل المصريون وجود الفرنسيين في بلادهم إلا كرهاً ، لأن سرعة الحوادث قد أذهلتهم ، ولم يدعوا إلا أمام القوة المادية ، ولكنهم — كمؤمنين مسلمين — لا يخفون حسرتهم واستياءهم من انتصار غير المؤمنين الذين دنسوا بوجودهم مياه النيل المقدسة ، وكانوا يعتبرون أنه من العار والخزى أن تسقط مصر فريسة في أيدي الفرنسيين ، لأنها تقع على الطريق المؤدى إلى الحجاز ومهد الكعبة ، وغيرها من الآثار المقدسة الإسلامية ، ثم قال إن أئمة المساجد كانوا يختارون في تلاوة القرآن الكريم الآيات التي تحض المؤمنين على قتال غير المؤمنين Les infidèles ، وقرر بونا برت في عبارة صريحة أنه كان من الواجب العمل على وقف انتشار هذه الآراء الدينية ، لأن الجيش على الرغم من انتصاراته كانت تحيط به الأخطار ، وكان يصعب على الجيش أن يصمد في حرب دينية^(٢) .

نقولاً ترك يؤكد أهمية العازل الديني

وما هو جدير بالذكر أن المعلم نقولاً ترك — وهو من موارد لبنان ، وعاصر أحداث الحملة في مصر — يصور تصويراً دقيقاً هذا العازل الديني

== النظر :

Volney Constantin F.; Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785. Paris - 1787.

t II, Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785, suivi de considérations sur la guerre des Russes et des Turcs, publiées en 1788 et 1789. Paris, 1822.

وبما يذكر أن بونا برت أراد ضم قولى إلى لجنة الفنون والعلوم المرافقة للحملة الفرنسية على مصر ، ولكنه اعتذر لكبر سنه ، ومع ذلك فقد امتد به الأجل حتى سنة ١٨٢٠ (١٧٥٧-١٨٢٠) ،
(١) كانت اللفظة التي استخدمها بونا برت هي idolâtres ، ومعناها الكفار ، الوثنيون .

(2) Napoléon 1er, Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t I, p. 211.

الذى كان يفصل بين الشعب المصرى وبين الحكيم الفرنسى ، فهو يقول إن بونابرت أغرق الشعب بالمنشورات ، وإنه كان دموياً على إذاعتها وتعليقها على حوائط المحلات والمنازل وفي الأسواق « لكى يقرأها الشارذ والوارد » . وفى كل منها كان يؤكد تعلقه بالدين الإسلامى ، وبمحمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، واحترامه للقرآن الكريم ، ويعد الشعب بأنه سيعتبق هو وجنوده الإسلام ، وأنه يعتزم بناء مسجد ضخم لا مثيل له فى العالم الإسلامى : ولم يقف الشعب المصرى من هذه المنشورات موقف الخنزير والريبة فحسب ، بل أعلن رأيه فى بونابرت . ولندع نقولاً ترك يعبر بقلمه فى صراحة مفرطة عن هذا رأى : « أما المصريون فكانت قلوبهم غير آمنة ولا مطمئنة ، وكانوا يقولون : كل هذا خداع ومخاتلة ريثما يتملك ، وأما هو نصرانى ابن نصرانى^(١) » . وهى جملة معبرة تصور نظرة المجتمع المصرى الدينى إلى بونابرت ، فلم يصف المصريون بونابرت بأنه أوروبى ابن أوروبى ، ولم يقولوا عنه إنه فرنسى ابن فرنسى ، بل اتخذوا من الدين معياراً لتقييم بونابرت .

وفى موطن آخر من مذكرات نقولاً ترك يقول إنه كان مما يحز فى نفوس المصريين خضوع بلادهم لحكم أوروبى مسيحى ، لأن مصر بلد إسلامى منذ أن فتحها عمرو بن العاص ، ولأنها ظلت على هذا الوضع الإسلامى على توالى الأدهر والعصور ، واختلاف الحكام الذين تعاقبوا على حكمها ، وأما محاولة الصليبيين الاستيلاء عليها فى العصور الوسطى فقد باءت بالفشل ، وكان الشعب المصرى يردد أن بلاده كانت فى بعض الفترات مقراً للخلافة الفاطمية ، ثم الخلافة العباسية ، وأنها كانت حصناً حصيناً للإسلام ، ومركزاً مرموقاً للثقافة الدينية العلمية الإسلامية ، ويخلص المعلم نقولاً ترك من وصف ومشاعر

(١) النص العربى لمذكرات نقولاً ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ نيت ، ص ٦٠ .

المصريين إلى القول بأن محاولات الفرنسيين اكتساب قلوب المصريين قد أخفقت ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك ، فقرر أن قبول المصريين للحكم الفرنسي إنما هو أمر ضد الطبيعة ^(١) :

اختلاف اللغة والزى والثقافة

وهناك عوامل كانت تتصل على نحو من الأنحاء بالسبب الرئيسي للثورة ، وتزيد الفجوة بين الفرنسيين وبين المصريين اتساعاً وعمقاً ، كان من بينها عامل اللغة ، فالفرنسيون لا يعرفون اللغة العربية ، والمصريون يجهلون بدورهم الفرنسية ، فحال اختلاف اللغة دون حدوث لقاء فكري بين الحاكمين والمحكومين ، أو على الأقل اتسم موقف كل فريق من الآخر بطابع العداء ، أو الشك ، أو الحذر . وهناك عامل آخر هو اختلاف الزى بين الفرنسيين والمصريين ، وقد حال هذا العامل دون حدوث تقارب بين الفريقين ، فإن اختلاف الزى كان له أثره السيكلوجي في نفوس العامة ، كانت البدلة والقبعة عند الفرنسيين يابلهما القفطان والحبة والعمامة عند المصريين ، وقد عاشت العمامة عصوراً وأدهاراً متعاقبة عند المصريين شعاراً للإسلام ، ورمزاً للفضائل : وارتبطت القبعة في نظر المصريين — ونحن نتكلم هنا أيها السادة العلماء عن المجتمع المصري في القرن الثامن عشر — بالحروب الصليبية وبالأجانب الذين عاشوا في مصر إبان الحكم العثماني في أحياء خاصة بهم ، يخضعون لقيود معينة . وقد عبر عن هذه العوامل مجتمعة أحد المعاصرين لأحداث الحملة الفرنسية ، وهو المعلم نقولا ترك ، فقال إن المصريين لم يستطيعوا إطلاقاً تحمل الفرنسيين بسبب اختلاف الدين واللغة والزى ، فضلاً عن عداء قديم متأصل بين الفرنسيين

(١) النص العربي في المرجع السابق ، ص ٣٠ . ويلاحظ أن الأستاذ فيت في ترجمته النص العربي إلى الفرنسية كتب ما تعريبه : « أمر ضد الطبيعة الإنسانية » .

Mais c'était faire fi de la nature humaine. p. 43. (trad. fr.).

والمصريين يرجع إلى أيام لويس التاسع ملك فرنسا، حين بلغ المنشورة^(١). ونضيف إلى هذه العوامل عاملاً آخر هو أن الفرنسيين ذوو ثقافة أوروبية كانت غريبة على المصريين، أو كما يقول الجبرتي «لا تسعها عقول أمثالنا»^(٢)، وقد انتهجوا سياسة إعلامية نشيطة، فغمروا المصريين بمنشورات تلاحقت بعضها إثر بعض. حقيقة أن هذه المنشورات كتبت باللغة العربية أو ترجمت إلى اللغة العربية، ولكن وجدت فيها بعض الثغرات والمآخذ، جعلت المصريين يرتابون في أمر هذه المنشورات، بل ويتوجسون خيفة من واضعها، ونذكر على سبيل المثال المنشور الأول الذي أذاعه بونابرت على المصريين، فهو يبدأ بالبسملة، ثم يذكر إحدى الشهادتين، ويغفل تماماً الشهادة الثانية، إذ يقول «بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له، ولا شريك له في ملكه» والمسلمون يحرصون دائماً على ذكر الشهادتين، مقرونتين بعضهما ببعض. حقيقة جاء ذكر النبي الكريم - صلوات الله عليه - في ثنايا هذا المنشور، ولكن كيف يستطيع المصريون تصديق قوم يقررون في منشورهم أنهم مساهمون مخلصون، ويغفلون في صدر المنشور الشهادة الثانية، وهي أن محمداً رسول الله؟ والمنشور أيضاً يشير إلى النظام السياسي لفرنسا في عبارات كانت تجارب المصريين السياسية طوال الحكم العثماني لاتساعدهم على تفهم معانيها، فالمنشور الأول أيضاً صدر «من طرف فرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية». وصدر هذا المنشور مؤرخاً بشهر لم يسمع به المصريون من قبل، ولم يفتقروا له معنى، وهو الرابع عشر من ميسيدور. وجاء في المنشور الثاني الذي أذاعه بونابرت عقب انتصاره في معركة إمبابه، وأصبحت نسخ منه في شوارع القاهرة، مؤرخاً في الرابع من تيرميدور، وكانت ثقافة الشعب لا تسمح له

(١) مذكرات نقولا ترك، نشر وترجمة وتعليق ثيت، ص ٢٤.

(٢) الجبرتي، ج ٣، ص ٣٦، وقد كتب هذه العبارة عقب زيارته لمجمع مصر العلمي.

بمعرفة مادلول كل من هذين اللفظين ، وهل كان منتظراً من المثقفين المصريين فضلاً عن الجاهل في أواخر القرن الثامن عشر أن يعلموا أن ميسيدور Messidor هو الشهر العاشر من التقويم الجديد الذي أدخلته الثورة الفرنسية ، ليحل محل التقويم الجريجوري عقب إعلان إلغاء الملكية في فرنسا ؟ وأن هذا الشهر يبدأ من اليوم العشرين من شهر يونيو ، وينتهي في التاسع عشر من يوليو ؟ وأن معناه شهر الحصاد ^(١) ، وهل كان معقولاً أن تدرك الجاهل وقتذاك أن تيرميدور Thermidor الذي أرخ به المنشور الثاني هو الشهر الحادي عشر من ذلك التقويم ؟ وأن هذا الشهر يبدأ من اليوم العشرين من يوليو ، ويمتد إلى الثامن عشر من أغسطس ؟ ، وأن معناه شهر الحر والقيظ ^(٢) ؟ ولقد تابعت المنشورات والأوراق الرسمية تحمل أسماء شهور أخرى ، مثل بريريال ^(٣) Prairial ، ومعناه شهر المروج الخضراء ، ونيفوز Nivose ^(٤) ومعناه شهر الثلج ، وجرمينال ^(٥) Germinal ، ومعناه شهر البذور ، وبلقيوز Pluviôse ^(٦)

(١) لفظة ميسيدور Messidor مشتقة من الكلمة اللاتينية Messis، ومعناها Moisson، أى الحصاد .

(٢) لفظة تيرميدور Thermidor مشتقة من الكلمة اليونانية Thermé ، ومعناها الحر .

(٣) لفظة بريريال Prairial مشتقة من الكلمة الفرنسية La Prairie، ومعناها مروج الحشائش، وتطلق على الشهر التاسع من التقويم الجمهوري ، ويبدأ من ٢٠ مايو ، إلى ١٨ يونيو .

(٤) لفظة نيفوز Nivose مشتقة من الكلمة اللاتينية Nivis ، ومعناها الثلج ، وتطلق على الشهر الرابع من التقويم الجمهوري ، ويبدأ من ٢١ ديسمبر حتى ١٩ يناير .

(٥) لفظة جيرمينال Germinal مشتقة من الكلمة اللاتينية Germen ومعناها البذور ، وتطلق على الشهر السابع من التقويم الجمهوري ، ويبدأ من ٢١ مارس إلى ١٩ أبريل .

(٦) لفظة بلقيوز Pluviôse مشتقة من الكلمة اللاتينية Pluvia ، ومعناها المطر ، وتطلق على الشهر الخامس من التقويم الجمهوري ، ويبدأ من ٢٠ أو ٢١ أو ٢٢ يناير إلى ١٩ أو ٢٠ أو ٢١ فبراير .

(١) ومعناه شهر المطر ، وفريكتيدور Fructus ، ومعناه شهر الفواكه ، وفضلاً عن ذلك فقد كانت هذه الأسماء الغربية لشهور السنة تذكر مقرونة بعبارات غريبة أيضاً على المصريين ، فهي تارة تقول شهر كذا « من إقامة الجمهور الفرنسي » ، وتارة أخرى تقول شهر كذا « من انتشار الجمهور الفرنسي ».

منشور السلطان إلى الشعب المصري

ولم يلبث أن وقع حادث خارجي جعل العاطفة الدينية تزداد تأججاً في نفوس المصريين ، فقد أعلن سليم الثالث — سلطان الدولة العثمانية — الحرب على فرنسا في سبتمبر ١٧٩٨ ، وأدرك بوناپرت خطورة إذاعة هذا النبأ بين جماهير الشعب ، فحاول جهده أن ينفيه ، ونعته بأنه شائعة خبيثة ، روج لها الإنجليز ، والمماليك ، وال دراويش المتعصبون . ويقول بعض الباحثين إنه كان لبوناپرت مقدرة فائقة على إخفاء الحقائق ، ولكن القوى التي كانت تعمل ضده ، سواء من خارج الحدود المصرية ، أو من داخل البلاد ، كانت أقوى منه وأشد فاعلية ، فقد تسلل إلى القاهرة من بلاد الشام رسل يحامون معهم منشوراً أصدره السلطان ، دعا فيه المصريين إلى الجهاد الديني ضد الفرنسيين ، واتخذ أولئك الرسل طريقهم إلى الجامع الأزهر سرياً ، وتلقف علماء الأزهر وطلاب الأزهر هذا المنشور^(٢) :

(١) لفظة فريكتيدور Fructidor مشتقة من الكلمة اللاتينية Fructus ومعناها فواكه ، وتطلق على الشهر الثاني عشر من التقويم الجمهوري ويبدأ من ١٨ أغسطس إلى ١٦ سبتمبر . وما هو جدير بالذكر أن أوراق الفرنسيين ووثائقهم ظلت طوال إقامتهم في مصر تصدر مؤرخة بالتقويم الجمهوري ، وبالتالي بهذه الأسماء الغربية على المصريين ، وقد ألغى هذا التقويم في فرنسا سنة ١٨٠٤ .

(٢) La Jonquière; ouvr. cit., t. III, p. 277.

حمل منشور السلطان على الفرنسيين حملة عنيفة ، فوصفهم بأنهم قوم لا ينكرون وحدانية الله فقط ، ولا ينكرون رسالة محمد فحسب ، بل ينكرون وجود الله ، ويهزأون بكل الأديان ، ولا يعتقدون في يوم البعث والحساب ، والحياة الآخرة ، وأنهم يحللون ما تحرمه الأديان ، ويعتقدون أن الكتب السماوية ليست إلا مجموعة من الأكاذيب ، أو نوعاً من الأساطير ، وأن موسى وعيسى ومحمداً ليسوا إلا رجالاً عاديين لم يخصهم الله بالرسالة التي عهد إلى كل منهم بتبليغها إلى نبي الإنسان :

واهتم المنشور بعد هذا الهجوم على الفرنسيين بتحريض الشعب المصرى على الجهاد الدينى ضدهم ، وأثار في المصريين العاطفة الدينية ، فخطبهم بقوله : « يا حماة الإسلام ، يا مدافعين عن العقيدة ، يا من تعبدون الله وحده ، يا من تؤمنون برسالة محمد بن عبد الله ، أجمعوا كلمتكم وانفروا إلى الحرب والله القدير يرعاكم :... إن الإسلام محفور في قلوبنا ، إنه ينساب في عروقنا مع دمائنا . وقد قال الله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ^(١) » ، والحديث الشريف يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » : ومضى المنشور يقول مخاطباً المصريين : « لقد دقت ساعة الخلاص ، وآن الوقت لكي تببدوا قوى الشر ، ولا ترهبكم جموعهم ، لأن الأسود لا تخشى الثعالب . وقد أصدرنا الأمر إلى الباب العالي بحشد قوات من أنحاء الإمبراطورية ، وبعد قليل تتحرك جيوش عديدة مهيبة ، وستغطي مراكز عالية كالجبال سطح البحر ، وستصل مدافع تترق وترعد ، وأبطال يسترخصون الموت انتصاراً لقضية الله ، وسوف يلتقي الفرنسيون الهلاك ، وتنهار آمالهم ، لأن وعد الله حق ، والعظمة لله رب العالمين » .

(١) سورة آل عمران ، صدر الآية رقم ٢٨ .

والأمر الذي يلفت نظر الباحث ، هو أن الباحثين الفرنسيين قد حرصوا على ترجمة هذا المنشور ترجمة كاملة إلى اللغة الفرنسية ، نذكر منهم مارتا^(١) Martin ، وقد نشر كتابه في جزعين سنة ١٨١٥^(٢) ، ولوى ريبو وزملاؤه ، وقد نشروا كتابهم الضخم في عشرة أجزاء في الفترة من سنة ١٨٣٠ إلى ١٨٣٦^(٣) ، وقد استقينا من هذين المصدرين الاقتباسات التي أثبتناها في المتن . أما الجبرتي فقد ذكر صورة موجزة للمنشور في عبارات عامة ، كأنها رعوس موضوعات ، فقال : « ومضمون ذلك بعد براعة الاستهلال والآيات القرآنية ، والأحاديث والآثار المتعلقة بالجهاد ، ولعن طائفة الإفرنج والخط عليهم ، وذكر عقيدتهم الفاسدة ، وكذبهم وتحيلهم^(٤) » . وقد رجعنا إلى الكتاب الأول الذي وضعه الجبرتي باسم مظهر التقديس ، فوجدنا أنه نهج فيه نفس النهج ، فلم ينشر فيه نص المنشور . ويوجد خلاف بين الجبرتي وبين المؤرخين الفرنسيين ، المعاصرين للحملة ، فالأول يقرر أن المنشور حمله هيجان من بلاد الشام ، وبلغ به القاهرة في ليلة السبت الرابع والعشرين من جمادى الأولى ١٢١٣ (الثالث من

(١) كان مارتا أحد مهندسي الحملة ، وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وأحد الذين أسهموا في وضع الموسوعة العلمية « وصف مصر » ، فكتب فيها بحثين هما :

a) Notice sur un grand monument souterrain à l'ouest de la ville d'Alexandrie. t.V, pp. 519 - 530.

b) Description hydrographique des provinces de Beny - Souei et du Fayoum. t. XVI, pp. 1 - 72.

وله عدة أبحاث منشورة ، منها بحث عن فيثاغورس ، فكان الحملة الفرنسية .

Vivant Denon en Egypte, 1798 - 1799. (Ann. de l'Acad. de Mâcon, 2e série IV, pp. 119 - 141.

(2) Martin P.D.; Histoire de l'Expédition française en Egypte. (1798 - 1801) précédée d'un précis de la domination arabe. Paris, 1815. 2 vols. vol. I, pp. 243 - 251.

(3) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, pp. 142 - 152.

(٤) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

نوفمبر ١٧٩٨) ، أى بعد الثورة بأسبوعين^(١) ، بينما يقرر المؤرخون الفرنسيون أن هذا المنشور وزع في القاهرة في شهر فانديمي^(٢) من السنة السابعة من التقويم الجمهوري ، وهم في هذا التحديد الزمنى التقريبي أدنى إلى الحقيقة من الجبرقى ، كما أنهم يقررون أنه لم يكذب يوماً شهر أكتوبر حتى علم سكان القاهرة على بكرة أبيهم أن السلطان العثماني - سلطان المسلمين - قد أعلن الجهاد الديني ضد الفرنسيين :

والدراسة التحليلية للمنشور السلطان توضح أنه كشف للشعب المصري عن عدة مسائل على جانب كبير من الأهمية ، نذكر منها :

أولاً : أطاح المنشور بكل إدعاءات ومزاعم بوناپرت ، والتي كان يرددها في منشوراته للشعب المصري بأنه صديق السلطان ، وأن الفرنسيين لم يحضروا إلى مصر إلا باتفاق تام ومسبق مع السلطان ، وأن مصالح الشعب المصري تتلاقى مع مصالح الفرنسيين ، لأنهم مسلمون مخلصون ، فقرر المنشور أن السلطان قد أعلن الحرب عليهم ، كما وصفهم بأنهم قوم كافرون .

(١) كان الجبرقى قد ذكر قبل ذلك في حوادث اليوم الثالث من شهر ربيع آخر ١٢١٣ ، (١٤ من سبتمبر ١٧٩٨) أنه وصلت إلى القاهرة عدة خطابات ، وجهها إبراهيم بك إلى المشايخ علماء الأزهر ، وإلى غيرهم ، طلب فيها بذل الجهود لبقاء الجبهة الداخلية في مصر متمسكة ، ومناشدة الجماهير كى تقف موقفاً عدائياً من الفرنسيين ، وقال : « إن حضرة السلطان مولانا وجه لنسا عساكر ، وإن شاء الله تعالى عن قريب نحضر عندكم . » ، وأضاف الجبرقى إلى ذلك أن أمر هذه الخطابات قد تراءى إلى مسامع بوناپرت ، واستطاع رجال المخابرات الفرنسية أن يحصلوا له على نسخة منها ، ولما ترجمت له أظهر استخفافاً بها ، وعلق عليها بقوله : « إن المماليك كذابون » انظر ذات المصدر ، ج ٣ ، ص ١٧ .

(٢) Vendémiaire هو الشهر الأول من التقويم الجمهوري الذى أدخلته الثورة الفرنسية ، ويبدأ هذا الشهر في ٢٢ من سبتمبر ، وينتهي في ٢١ من أكتوبر ، واللفظة الفرنسية مشتقة من الكلمة اللاتينية vindemia ، ومعناها عملية جنى العنب la vendange أو موسم جنى العنب .
Les vendanges

ثانياً : آثار المنشور الحمية الدينية في نفوس المصريين بذكر بعض الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والعبارات الدينية :

ثالثاً : وصف المنشور الحرب التي دعا السلطان إليها الشعب المصري ، بأنها حرب مقدسة ، أو جهاد ديني^(١) ، ومن المبادئ المقررة في الشريعة الإسلامية أن الجهاد الديني يعتبر فرض عين على كل مسلم بالغ قادر ، والمنشور من هذه الناحية له أهميته ، لأنه أضفى على الثورة الطابع الديني الإسلامي ، وحدد المشتركين فيها بأنهم المسلمون المؤمنون برسالة محمد ابن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — ، ولم يفت المعاصرون الفرنسيون للثورة أن يصفوها بأنها حرب مقدسة :

رابعاً : شحذ المنشور عزائم المصريين بقوله : إن قوات عسكرية جسارة ، برية وبحرية ، في طريقها إلى مصر ، لشد أزركم في محاربة الفرنسيين ، وقد كان هذا المنشور سلاحاً قوياً في يد دعاة الثورة ، استطاعوا بفضلها أن يضموا إلى جانبهم جماهير سكان القاهرة ، ويقول الأستاذ محمد شفيق غربال : إنه كانت هناك فرمانات مثيرة تصدر عن السلطان بصفته أمير المؤمنين ، وكانت هذه فرمانات تقرأ علناً في المساجد ، وقد ذكر فيها أن الفرنسيين قد صحت عزيمتهم على القضاء على الدين الإسلامي ، وكانت هذه فرمانات تدعو المؤمنين إلى مقاومة رغبة الفرنسيين في تحطيم الإسلام^(٢) .

(١) من الكلمات التي كانت منتشرة في مصر إلى عهد قريب لفظة « الجهادية » ، فكان يقال ديوان الجهادية ، ويقابلها المصطلح الحديث وزارة الحربية أو وزارة الدفاع ، وكان يقال إن فلاناً ذهب إلى الجهادية ، أي تم تجنيده في الجيش المصري ، أو نفر إلى ساحة الوغى .

(2) "Inflammatory firmans from the Commander of the Faithful were read aloud in the mosques, ascribing to the French the intention of destroying Islam, and the faithful were called upon to resist."

Shafik Ghorbal; ouvr. cit., p. 74,

ومما يذكر أن مارتا Martim أشار إلى واقعة أخرى سبقت إرسال منشور السلطان ، وتتلخص هذه الواقعة في أن مدينة القاهرة أغرقت منذ ٢٢ من سبتمبر ١٧٩٨ — وهو أول يوم في شهر فانديميير Vendémiaire — بمنشور صدر عن الصدر الأعظم يحوى تكذيباً قاطعاً لكل ما رددته بونابرت في منشوراته من حدوث تفاهم بينه وبين السلطان ، وقد قرئ هذا المنشور في المساجد ، وكان فيه تحريض للشعب المصرى على قتل الفرنسيين .^(١)

مكتابات الجزائر باشا وإبراهيم بك

ولمى جانب منشور الصدر الأعظم ، ثم منشور السلطان ، كان أحمد باشا الجزائر والى الشام يرسل^(٢) المنشورات — أو « البيورديات »^(٣) بمصطلح ذلك العصر — إلى المصريين يبلغهم أن السلطان قد عينه والياً على مصر ، بالإضافة إلى منصبه في بلاد الشام ، وأنه سيزحف على رأس قوات جرارة لطرد الفرنسيين منها ، ويدعو المصريين إلى « القيام ضد الكفار »^(٤) . وكان الأمير إبراهيم بك من ناحيته يبعث بمنشورات أخرى إلى المشايخ علماء الأزهر ،

(1) Martin P.D; ouvr. cit., t. I. p. 241.

(٢) يقول بونابرت في مذكراته إن الحكومة العثمانية عمدت إلى مد نفوذ أحمد باشا الجزائر إلى كل بلاد الشام ، من حلب شمالاً حتى بيت المقدس جنوباً ، وذلك رغبة منها في زيادة إمكانياته البشرية والمادية ، لحشد مزيد من القوات العسكرية لجرارة ، وتوجيهها إلى مصر .
انظر :

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, p. 244.

(٣) بيورديات : كلمة تركية ، مفردا بيوردى ، ومعناها أمر صادر من الصدر الأعظم ، أو من شخصية كبيرة مثل الوزير ، وتظهر هذه الكلمة في صور شتى ، سواء في صيغة المفرد ، أو في صيغة الجمع في المصادر العربية على النحو التالى :

صيغة المفرد : بيوردى — بيورلى — بيورلى — بيورلى .

صيغة الجمع : بيورديات — بيلورديات — بيلورديات — بيورلايات .

انظر :

Meynard Barbier de; Dictionnaire turc - français. Paris, 1881 - 1886, 2 vols., t. I, p. 366.

Deny; ouvr. cit., p. 147.

(٤) المعلم قولاً تركياً ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فهد ، النص العربى ، ص ٢٧ .

يبلغهم أنه في طريقه إلى القاهرة ، ويطلب منهم تحريض الشعب على الثورة على الفرنسيين ، وكان هناك رسل يأتون خفية من بلاد الشام يحملون تلك المكاتبات ، ويتسللون إلى الجامع الأزهر ، ويلتقون بالعلماء والطلاب ، ويتداولون المنشورات فيما بينهم ، ليقرءوها في مساجد القاهرة .

عوامل مشجعة

كانت هناك عوامل شجعت سكان القاهرة على القيام بالثورة . وكان من بين هذه العوامل تخطم الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية ، وقد تسربت أنباء هذه الكارثة إلى أهل القاهرة ، على الرغم من حرص الفرنسيين الشديد على تكتم أخبارها ، وتهديدهم بقطع لسان كل مصرى ، أو تغريمه مائة ريال إذا خاض في ذكر هذه الواقعة ^(١) ، وقد أطاحت هذه الكارثة الحربية بالفكرة التي استقرت في أذهان المصريين عن تفوق الفرنسيين عسكرياً بعد انتصارهم الحاطف في معركة إمبابية :

وقد تكلم بونايرت في إفاضة عن النتائج السيئة لهذه المعركة ، بالنسبة للفرنسيين في نظر الشعب المصرى ، وقال إنه أمر بزيادة تحركات فرق الجيش الفرنسى في القاهرة ، وقيام الجيش بعروض عسكرية ، إشعاراً للمصريين بأن الجيش الفرنسى لا يزال قوة ضاربة ، كما حاول بونايرت أن يدخل في روع علماء الأزهر أن أسطولاً فرنسياً يتعقب أسطول نلسن الذى ولى الأدبار ، وكان الأسطول الإنجليزى بعد خروجه منتصراً في هذه المعركة قد اتجه إلى نابولى لعلاج الجرحى ^(٢) ، وترميم بعض وحداته :

(١) الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٥ .

(٢) انظر مقاله بونايرت تحت عنوان :

Effet de la bataille navale sur le peuple d'Egypte.

« نتيجة المعركة البحرية على شعب مصر » .

في

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I, pp, 197-202.

وعلم أهل القاهرة بعد ذلك أن الإنجليز فرضوا حصاراً محكماً على السواحل المصرية ، بحيث أصبح في حكم الاستحالة قدوم نجدات عسكرية إلى بونايرت من فرنسا ، وكما يقول المعلم نقولا ترك : « ربط الإنكليز عليهم بوغاز الإسكندرية وبوغاز دمياط ، ولا عاد خارج ولا داخل ، ولا طير يطير وفهموا (أى فهم المصريون) أن الانكليز قفلوا عليهم (أى على الفرنسيين) البواغيز بأقفال إنكليزية ، وانقطع أملهم من إمداد يأتهم من بلادهم ^(١) » .

وهناك عامل ثالث شجع سكان القاهرة على الثورة ، هو أنهم علموا أن أهل المنصورة قد قاموا بثورة عارمة على الفرنسيين ، ونالوا منهم منالاً عظيماً ، وأن سكان دمياط قد نهجوا هذا النهج الثورى ، وانتصروا على الفرنسيين . وإذا كان هذا شأن سكان الأقاليم مع الفرنسيين ، فلا أقل من أن يجذو سكان العاصمة هذا الخلدو النضالى الدينى الثورى :

عوامل مساعدة

وكانت هناك أيضاً عوامل مساعدة ، هيأت « المناخ الصحى » لنشوب الثورة ، ولم تكن هذه العوامل بنت ساعتهما ، فقد نشأت في أوقات متفاوتة ، وترك كل منها رواسب عميقة في نفوس المصريين ، وكلما مضت الأيام كانت تلك العوامل يتجمع بعضها مع بعض ، وتسلك مسارب واحدة ، انتهى بها إلى انفجار دينى على الحكم الفرنسى الذى اقترن بإجراءات ، كانت في نظر زعماء الشعب وجهائره ، خروجاً على التقاليد الإسلامية .

ونمر مروراً سريعاً على بعض هذه العوامل المساعدة :

(١) مذكرات لقولا ترك ، لشر وترجمة وتعليق الأستاذ فيث ، النص العربى ، ص ٢٧ .

أولاً : النسائيات

انتشر إبان الحكم الفرنسي نوع من التحرر النسائي ، لم يكن يطيقه مجتمع القاهرة في ذلك الوقت ، إذ نظر إليه أهل القاهرة على أنه إباحية وفوضى خلقية لا تتماشى مع التقاليد الإسلامية ، التي كان الحكم العثماني يحرص على احترامها حرصاً بالغاً . انتشر سفور المرأة واختلاطها بالرجال ، وقد بدأت هذه الظاهرة الاجتماعية في وقت مبكر ، منذ أن دخل الفرنسيون القاهرة . كان بعض الضباط الفرنسيين قد اصطحبوا زوجاتهم أو عشيقاتهم إلى مصر ، ويقرر أحد المؤرخين أن هؤلاء السيدات لم يستطعن الصعود إلى سفن الحملة وهي راسية في موانئ فرنسا إلا بعد أن تنكرن في زي الرجال^(١) ، ويقدر أحد الباحثين عددهن بثلاثمائة سيده تقريباً^(٢) ، وهو عدد ضئيل جداً بالنسبة لحملة عسكرية جارية ، تضم ٣٦,٠٠٠ جندي .

وقد عاشت هؤلاء الزوجات أو العشيقات في مصر حياة متحررة من قيود مجتمع شرقي إسلامي محافظ ، وكن يشبعن ما كانت تهفو إليه نفوسهن من كل ما هو جديد وطريف . ولندع الخبر في تكلم عن الحرية التي مارسها السيدات الفرنسيات في شوارع القاهرة ، وعن ملاسهن ، وعن مداعبتن للعامة وهن يركبن الحمير : « ومنها تبرج النساء وخروج غالبن عن الحشمة والحياء ، وهو أنه لما حضر الفرنسيين إلى مصر ، ومع البعض منهم نساؤهم ، كانوا يمشون في الشوارع مع نساؤهم وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات ، والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ، ويسوقونها سوقاً عنيفاً ، مع الضحك

(١) Reybaud (L.) et autres; ouvr. cit., t. IV, p. 70.

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى : عبد الله چاك مينو وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ،

والقهقهة، ومداعبة المكارية معهم، وحرافيش العامة :...^(١) وكانت السيدات
الفرنسيات يراقصن الرجال في ميدان الأزيكية في أثناء المهرجان الكبير الذي
أقامه الجيش احتفالاً بذكرى قيام الجمهورية :

وكان العنصر الثاني من السيدات المتحررات في مصر يتمثل في السيدات
الشركسيات واليونانيات والأرمنيات ومن إليهن، وقد كن زوجات أو مستولدات
أو جوارى للأمراء المماليك والكشاف، جىء بهن إلى مصر، وأقن في قصور
كانت غاية في الروعة والبهاء^(٢)، وعشن حياة مترفة ناعمة باذخة، وارتدين
أرقى أنواع الملابس الحريرية، المستوردة من مصانع ليون^(٣)، والملابس الصوفية
وغيرها، وقد قتل عدد كبير من أزواجهن أو أسيادهن في المعارك التي
خاضوها ببسالة ضد الفرنسيين، وارتفع عدد القتلى منهم في معركة إمبابية،
وتشتت شمل العائلات المملوكية، وانطلقت السيدات إلى حياة التحرر، بعد
أن كن يقضين أحلى سنوات العمر وراء المشربيات، لا يراهن أحد من
الأفراد سوى الأغوات الطواشية الذين يقومون على خدمتهم.

(١) الجبرقي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ١٦١.

(٢) انظر وصفاً لمساكن البكوات المماليك والكشاف في ص ٣٣٠ من البحث الضافي الذي
وضعه جومار، أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون، بعنوان :

Description de la ville et de la citadelle du Kaire accompagnée
de l'explication des plans de cette ville et de ses environs, et de
renseignemens(*sic*) sur sa distribution, ses monumens (*sic*), sa popula-
tion, son commerce et son industrie. par M. Jomard.

daus :

Description de l'Egypte. t. XVIII, 2ème partie, pp. 113-538.

(3) Hanotaux (Gabriel); Histoire de la Nation Egyptienne. t.
V; L'Egypte turque. Pachas et Mameluks du XVI^e au XVIII^e
siècle. L'Expédition du général Bonaparte par H. Dehérain.

انظر بحثاً بعنوان :

La Demeure des Beys à la ville et à la Campagne. pp. 83-87.

ومما يذكر أن بونا بـرت قد تكلم في مذكراته عن نساء المماليك والكشاف — وكن قد طلبن مقابلته بعد دخوله القاهرة — وقد بهره ما كن يتمتعن به من قوام رائع ، وأيد جميلة صغيرة ، وصوت رخيم . وأطرى طريقتهم في الحديث والجلوس والمناقشة ، وقال لهن من حيث السلوك الاجتماعي الممتاز ، ومن حيث مظهرهن وأناقتهن ، كن يضارعن أرقى السيدات في المجتمعات الأوروبية . وتكلم بونا بـرت عن إتمام كثير من الزيجات بتدخله ^(١) ، وقد عاشت هؤلاء السيدات بعد زواجهن من الفرنسيين حياة أوروبية ، مترفة منعمة ، وخرجن سافرات في صحبة أزواجهن ، وكن يذهبن معهم إلى نادى القوات المسلحة المسمى تيفولى ^(٢) Tivoli في ميدان الأزبكية ، وإلى غيره من أماكن اللهو والتسلية .

(1) Napoléon I^{er}; Guerred' Orient. etc., ouvr. cit., t. I. pp. 235-236.

(٢) فكر في إنشاء هذا النادى أحد الفرنسيين واسمه Dargevel ، واختار له قصرأ من قصور الأمراء المماليك ، بالقرب من ميدان الأزبكية ، وكانت تحف بالقصر حديقة ذات أشجار باسقة ، وأدخلت تعديلات على أبناء القصر وحجراته ، وخصصت فيه قاعة للموسيقى ، ومرقص ، ومطعم ، ومكتبة ، وقاعة للبيارد ، واختير له اسم ملهى التيفولى في باريس ، فأطلق عليه التيفولى المصرى Le Tivoli Egyptien ، أما الخبر في فقد سماه « دار الخلاء » ، ويقول إن الفرنسيين « أحدثوا بغيظ النوب المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة منتزه ، يجتمع بها النساء والرجال ، اللهو والخلاء في أوقات مخصوصة ، وجعلوا على كل من يدخل إليه قدراً مخصوصاً يدفعه ، أو يكون مأذوناً وبيده ورقة » .

ويقرر الأستاذ كرسنوفر هيرولد إنه من المحتمل أن يكون هذا النادى أول ناد للقوات المسلحة في التاريخ .

انظر :

ج . كرسنوفر هيرولد : « بونا بـرت في مصر » ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٢٤ .

ترجمة فؤاد أندراوس .

واسم الكتاب بالإنجليزية :

Christopher Herold (J.) ; Bonaparte in Egypt. New York, 1962.

وجاءت الإماء عنصراً ثالثاً متحرراً إلى أبعد حدود التحرر في مدينة القاهرة ، والإماء هن الجوارى السود ، وكن أيضاً يعشن في قصور الأمراء المماليك والكشاف ، وانطلقن من إسطار الرق ، وكن أوفر عدداً ، وأكثر جرأة في تطوير أسلوب حياتهن . قدم الفرنسيون هن الملابس الأوروبية ، فارتدينها ، وقدموا هن الخيول ، فركبها ،^(١) وكن يغادرن منازلهن في أمى وقت ، ويطفن في شوارع القاهرة ، سافرات الوجوه ، تبدو عليهن الأناقة في الملابس وزينتهن ، ومشيتهن ، وحركاتهن .^(٢)

ثم جاء عنصر رابع هو زواج الفرنسيين من المصريات المسلمات ، ويكشف الجبرتي عن الدافع على هذا الزواج فيقول : « خطب الكثير منهم بنات الأعيان ، وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونوالهم » ،^(٣) وقد أفتى البعض بشرعية زواج الفرنسي من المسلمة ، مادام يذكر الشهادتين ، فكان الفرنسي يتدرب على النطق بهما ويعقد قرانه عليها ، وهكذا كانت عقود الأنكحة هذه — في نظر البعض — زواجاً شرعياً لا شائبة فيه ، ويعلق الجبرتي على زواج الفرنسي بالمسلمة فيقول : « ينطق بالشهادتين ، لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها » . وكان الأزواج الفرنسيون يصفون عليهن الكثير من مظاهر التقدير والكرام ، ويقول الجبرتي « وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها على

(١) مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ جاستون فويت ، ص ٦٠ النص العربي .

(2) Galland Antoine; Tableau de l'Egypte pendant le séjour de l'armée française, avec la position et la distance réciproque des principaux lieux de l'Egypte; un coup d'œil sur l'économie politique de ce pays, quelques détails sur ses antiquités, et la procédure exacte de Soleyman, assassin du général Kléber. Paris, 1803, 2 vols., vol. I. p. 87 et vol. II. p. 307.

(٣) الجبرتي ، مصادر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

مثل شكلها ، وأمامها القواسة^(١) والخدم ، وبأيديهم العصي ، يفرقون لمن الناس مثل ما يمر الحاكم ، ويأمرن وينهين في الأحكام^(٢) .

نظر سكان القاهرة إلى هذا الزواج المختلط ، وإلى تحرر المرأة المسلمة ، على أنهما نوع من الرذيلة . وقد عبر نقولا ترك في مذكراته عن الاستياء الشديد الذي عم المصريين في ذلك الوقت بقوله : إن المصريين لم يهتموا إطلاقاً بوجود الفرنسيين في القاهرة ، وأنهم كادوا يموتون حزناً وكهداً وغيظاً ، حين رأوا « نساءهم وبناتهم مكشوفات الوجوه ، مملوكات من الفرنسيين جهاراً ، ماشيات معهم في الطريق ، نائمت وقاعدات في بيوتهم » ، وأضاف نقولا ترك إلى ذلك أن المصريين كانوا يطلبون الموت في كل ساعة ، للتخلص من هذه المناظر^(٣) :

وتزوج الحاكم العسكري الفرنسي لمنطقة الأزهر بسيدة مصرية « من أولاد البلد المخلوعين » ، وكان يقضى سهراته معها في مقهى صرح لتابع له وترجمانه بفتحته في هذا الحى الشعبى ، وكان أحد صاحبي المقهى يهودياً ، والآخر مسلماً من مدينة حلب ، كان من بين أسرى جزيرة مالطة ، الذين أطلق بوناپرت سراحهم . وكانت تحدث في المقهى أعمال منافية للأداب العامة ،

(١) القواسة ، وتكتب أحياناً « القواصة » جمع قواس أو قواس un Cawas ومعناها أحد رجال الشرطة .

(٢) الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٦٢ ، وانظر أيضاً :

Jehan d'Ivray (Mme Fahmy Bey) ; Bonaparte et l'Egypte. Paris, 1914.

وقد أفردت المؤلفة الجزء الثانى من كتابها لموضوع النسائيات إبان الاحتلال الفرنسى .

Les femmes sous l'occupation française.

(٣) لقولا ترك : نشر وترجمة وتعليق الأستاذة ذئبت ، ص ٣١ من النص العربى ،

بمقصود « التسلي والخلاعات » ، وكثير تردد سكان هذا الحى على المقهى ، وأغرموا بشقى ضروب « المجون والخلاعة » ، وتلك طبيعة الفرنسية » -

وكانت قلة عدد السيدات الأوروبيات في مصر من أهم المشكلات التي واجهتها قيادة الحملة منذ الأيام الأولى لدخول القاهرة ، وجعلت قيام هذه الزيجات المختلطة من ناحية ، والعلاقات الآثمة بين الجنود وبعض النسوة المسلمات من ناحية أخرى ، ظاهرة متفشية . وقد طاب بونابرت من حكومة الديركتوار أن ترسل إلى مصر زوجات جميع رجال الحملة ، فضلاً عن أعداد وفيرة من السيدات الفرنسيات ، وفرقة من راقصات الباليه ، وقد تعذر على حكومة الديركتوار إرسال هذه الشحنتات الآدمية بسبب الحصار الذي فرضه الإنجليز على الشواطئ المصرية في أعقاب انتصارهم في معركة أبي قير البحرية .

ولجأت القيادة العامة للجيش الفرنسى إلى حلول ارتجالية : كانت تشجع السيدات الأوروبيات في القاهرة على حضور الحفلات الساهرة التي كان الفرنسيون يقيمونها في دورهم أولاً ، ثم في نادى تيفولى Tivoli ثانياً ، لإعطاء هذه الحفلات لوناً من ألوان البهجة في نفوس الفرنسيين ، ولإبعاد السأم عن نفوسهم ، ولجأت قيادة الجيش إلى الاتفاق مع المغنيات والراقصات المصريات المحترفات « العوالم » Les Almas ، كي يشتركن في إحياء الحفلات التي كانت تقام في هذا النادى ^(١) . وهكذا فرضت المسألة النسائية نفسها فرضاً على المجتمع القاهري منذ الأيام الأولى للاحتلال الفرنسى .

(1) Reybaud Louis et autres, ouvr. cit., t. IV, pp. 66-72.

القاهرة الخليعة

والحق أن موجة التحرر النسائي التي شهدتها القاهرة ، جعلت بعض المؤرخين الفرنسيين يقررون أن القاهرة أصبحت باريس صغرى ^(١) un petit Paris وجعلت نقولا ترك يقول في هذا المعنى أيضاً وهو يسمى أولئك المصريات المسلمات - نساء كثرات من الإسلام - : « وخرجت النساء خروجا شديداً مع الفرنسيات ، وبقيت مدينة مصر مثل باريس في شرب الخمر والمسكرات والأشياء التي لا ترضى رب السموات » ^(٢) . ويتفق الجبرتي ونقولا ترك في رأى واحد هو شغف الفرنسيين الزائد بالنساء ، فالأول يقول إن للفرنسيين رغبة شديدة « في النساء وخضوعهم لهن ، وموافقة مرادهن ، وعدم مخالفة هواهن » ، ويقول أيضاً إنهم كانوا ينفقون بسخاء على المصريات. أما الثاني ^(٣) ، وهو المعلم نقولا ترك ، فيقول : « إن الجنس الفرنسي لا يملك له مداخلة وموانسة ومسايرة لجنس النساء بنوع آخر عن باقي الأجناس الموجودة في العالم بأسره » ^(٤) .

وقد حولت بعض البيوت إلى أماكن عامة للتسلية والمجون ، ووضعت خارجها لافتات باللغة الفرنسية ، تبين نوع اللهو الذي يمارس داخلها ، وفُرشت هذه البيوت بالأثاث الشرقى أو الأوروبى ^(٥) ، وكان أبسط ما يقال عن هذه البيوت إنها تقدم الخمر لروادها ، وتبني لهم رقص المخاصرة مع السيدات على أنغام الموسيقى . وأنشئت في أحياء القاهرة مشارب البيرة - البارات -

(١) Loc. cit.

(٢) نقولا ترك ، نشر وترجمة ديجرانج ، ص ٢٢٢ .

(٣) الجبرتي : مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

(٤) نقولا ترك ، نشر وترجمة الأستاذ فيث ، ص ٦٠ من النص العربى .

(٥) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV. pp. 66 - 72.

وحولت بعض المقاهى فى الأحياء الشعبية إلى مرقص ، فى حى الخليفة — على سبيل المثال — حول مقهى إلى مرقص ، وكانت الرقصات يتناوبن الرقص لرواده ليلاً ونهاراً . وفتحت محال الدعارة بكثرة فى شتى أنحاء القاهرة . وأقبل الجنود الفرنسيون على ارتيادها إقبالاً شديداً^(١) ، واتخذ الفرنسيون من ميدان الأزبكية مكاناً لحفلاتهم ومهرجاناتهم التى كانوا يقيمونها فى المناسبات السياسية ، وعند بداية أول كل شهر ، طبقاً للتقويم الذى جاءت به الثورة ، وكانت تمارس فى هذه الحفلات على نطاق واسع أمور تنساف مع الآداب العامة ، من وجهة نظر المسلمين فى ذلك الوقت :

لقد أراد الفرنسيون أن يجعلوا من القاهرة مدينة أوروبية ، تضارع عاصمتهم باريس فى بهائها وملاهيها ، ومقاهيها وأنديتها^(٢) ، حتى يكفوا الجنودهم حياة تجمع بين أسباب المتعة والتسلية واللهو ، وبذلك تتراح نفوسهم إلى الإقامة فى القاهرة ، وتخف حدة تدمرهم وسخطهم^(٣) . ولكن فات السلطات

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : عبد الله چاك مينو ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٥٢ — ٥٥٣ .

(٣) يتضح عمق كراهية رجال الحملة الفرنسية للإقامة فى مصر من الخطابات الشخصية التى بعث بها رجال الحملة إلى ذويهم فى فرنسا ، وقد وقعت هذه الخطابات فى يد الأسطول الإنجليزى بقيادة فلنس ، وذلك فى أثناء نقلها من مصر إلى فرنسا ، فصادرها فلنس وبعث بها إلى لندن ، وقصد سارعت الحكومة الإنجليزىة إلى نشر هذه الخطابات ، مع ترجمة لها بالإنجليزىة ، واستعانت بأحد المهاجرين الفرنسيين فى التعليق عليها ، كما وضعت مقدمة لها ، وقامت الحكومة الفرنسية من ناحيتها بالرد على الملاحظات والتعليقات التى جاءت فى الطبعة الإنجليزىة ، وأردفت بردها الخطابات المصادرة ، فأصبحت هناك مجموعتان :

المجموعة الأولى :

Copies of Original letters from the Army of General Bonaparte in Egypt, intercepted by the Fleet under the command of Admiral Lord Nelson. With an English translation. 1798-1799, 2vols., XXIII - 248 pages; XXXI - 236 pages.

وقد طبعت من المجموعة الأولى عدة طبعات .

الفرنسية أن تدرك أن مثل هذه الحياة الاجتماعية المتحررة الصاخبة المستهتره ، كانت تتعارض تعارضاً جذرياً مع تقاليد مجتمع إسلامي متزمت ، وبالتالي تعصف بالسياسة الإسلامية التي حرص بونا برت على انتهاجها في حكم الشعب المصري . ولم يكن من المنتظر أن يغير الشعب المصري في مجموعه ، وبين عشية وضحاها ، أسلوبه في الحياة الاجتماعية ، وهو أسلوب درج عليه أعصرراً وأدهراً وأحقاباً ، ولم يجد المصريون من أهل الرأي في مظاهر الإباحية التي انتشرت في القاهرة دليلاً على انغماس الفرنسيين في حياة المجون واللذاعة فحسب ، ولم ينظروا إليها على أنها فوضى خلقيّة فقط ، بل اعتدوا أن الفرنسيين إنما يهدفون إلى ما هو أخطر من ذلك كله بكثير : إنهم يريدون نشر الفساد والرذيلة بين شباب الشعب المصري . لقد أطلق أحد الأساتذة المصريين على القاهرة منذ أن دخلها الفرنسيون وصفاً معبراً هو « القاهرة الخليعة » ، وقال إن هذه التسمية مستمدة من الفكرة التي جالت في ذهن الخبرقي ونظرائه من عقلاء المصريين : والحق أن الفرنسيين استهتروا بتقاليد الشعب المصري ، وعاداته ، وأخلاقه ، ومثله العليا . وبقدروا استهوت حياة المجون والفسق ، أفئدة الطبقة الدنيا من سكان القاهرة ، وبعض أفراد قلائل من العائلات الكبيرة ، بقدر ما نفرت بقية قطاعات الشعب منها : وكان القاهريون يقارنون بين

== المجموعة الثانية :

Correspondance de l'Armée française en Egypte, interceptée par l'escadre de Nelson, publiée à Londres, avec une introduction et des notes de la chancellerie anglaise. Traduites en français et suivies d'observations par E. Th. Simon. Paris, an VII (1799).

وقد ترجمت المجموعة الثانية إلى اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية .

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك مينو ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٧٣ ، ص ٨٠٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٧١

الإباحية التي نشرها الفرنسيون ، وبين ما جاء في منشور بوناپرت أن الفرنسيين مسلمون مخلصون .

ثانيا : تعيين يوناني شمس وكيلا لمحافظة القاهرة

ومن بين تصرفات الفرنسيين التي جانبهم فيها التوفيق ، وأثارت سكان القاهرة عليهم ، أنهم عينوا أحد اليونانيين العتاه في منصب كتيخدا مستحفظان — أى وكيل محافظة القاهرة — وكان اسمه برتلمى Barthélemy ^(١) ، ويسميه الجبرتي برتلمين ، وأطلق عليه أهل القاهرة « فرط الرمان » ، وكان هذا اليوناني — وهو من مواليد جزيرة كسيو Chio إحدى جزر الأرخبيل — معروفا لأهل القاهرة بكراهيته العميقة للصنزيين ، ويقول الجبرتي عنه إنه من سفلة اليونانيين ، اتخذ من العسكرية حرفة له ، والتحق بخدمة الأمير المملوكي محمد بك الأنفي في فرقة الطوبجية — أى سلاح المدفعية — ، كما كان له محل بشارع الموسيقى يبيع فيه القوارير الزجاج أيام بطالته . وكان هذا الرجل ضخيم الجسم ، فارح القامة ، عريض المنكبين ، تهفو نفسه إلى المشاجرات ، لأنها تتيح له الفرصة لإبراز عضلاته ، وإظهار قوته . وكان سكان القاهرة يتقنون شره . ولما جاء الفرنسيون عرض خدماته عليهم ، فعينوه وكيلا لمحافظة القاهرة ، وغدا من صنائع الفرنسيين ، ومن أبرز أعوان الاحتلال الفرنسي . بدت النزعة المظهيرية في خالقه ، منذ أن صدر قرار تعيينه في منصبه ، إذ خرج من مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي في موكب رسمي يصفه الجبرتي في حوادث شهر صفر ١٢١٣ (١٥ يوليو — ١٢ أغسطس ١٧٩٨) ، فيقول : « قلدوا برتلمين النصراني الرومي ، وهو الذي تسميه العامة (فرط الرمان) ، كتيخدا مستحفظان ، وركب بموكب من

(١) يرد اسمه في بعض المراجع التاريخية برتلميو سيرا Bartholomeo Sera
(٢) يرد في مراجع أخرى هذا الاسم القاهري مترجما إلى اللغة الفرنسية Grain - de - Grenade

بيت صارى عسكر ، وأمامه عدة من طوائف الأجناد والبطالين^(١) ، مشاة بين يديه^(٢) ، وعلى رأسه حشيشة^(٣) من الحرير الملون ، وهو لابس فروة بزخادة^(٤) ، ومن بين يديه الخدم بالحرايب المفضضة^(٥) ، ورتب له بيوك باشى وقائدات^(٦) عينوا لهم مراكز بأخطاط البلاد يجلسون بها ، وسكن الماكور بيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين ، أخذه بما فيه من فرش ومتاع وجوارى وغير ذلك^(٧) .

(١) البطالون : هم الجنود غير النظاميين .

(٢) حشيشة ، معناها لفافة .

(٣) في الترجمة الفرنسية لكتاب الجبرق ترد هذه العبارة : un riche pelisse sur le dos . ومعناها معطف ثمين ، مبطن بقرو يتبدل على ظهره .

انظر

Merveilles Biographiques et Historiques, ou Chroniques du Cheikh Abd - El - Rahman El Djabarti. Traduites de l'arabe par Chafik Mansour Bey, Abdul Aziz Khalil Bey, Gabriel Nicolas Kahl Bey et Iskender Announ Effendi. Le Caire, Imprimerie Nationale. 1888-1897. 9 vols. t. VI. (1891) p. 25.

(٤) بيوك ، كلمة تركية معناها كبير ، وبيوك باشى تحمل معنى الموظف الكبير أو اليار .
(٥) قلقات مصطلح تاريخي ، مفردة قلق ، وهذه اللفظة مأخوذة من الكلمة التركية قولاق ، ومعناها أحد أفراد الشرطة الذين يطوفون ليلاً في دورة عس .

والجبرق يعطى فكرة عن المكانة الهامة التي كان يشغلها أولئك القلقات فيقول : إن كبار الفرنسيين كانوا يذهبون إلى القلق المختص بمنطقة الجامع الأزهر عقب إخماد ثورة القاهرة الأولى ، وتسرب الأنباء بأن الفرنسيين أعدوا عدداً من مشايخ الأزهر سرّاً ، وكان هؤلاء الفرنسيين الكبار يجتمعون عند القلق من أجل إرهاب المصريين ، خشية قيام فتنة (ج ٣ ، ص ٢٩) .

والجبرق يعطى أيضاً تحديداً دقيقاً لاختصاصات القلقات ، وهو يتكلم عن سياسة محمد علي ، إبان حملة فريزر Fraeser البريطانية على مصر سنة ١٨٠٧ في توضيح الخناق على الأمراء المماليك الممتصين بالوجه القبلي — ويسمى الجبرق القبلي — خوفاً من حدوث اتصالات مشمرة ، بين الأمراء المماليك في الصعيد وبين الحملة البريطانية ، مما يؤدي إلى تحالف بين الفريقين ضد محمد علي . يقول الجبرق وهو يتكلم عن حوادث شهر صفر ١٢٢٢ (١٠ أبريل — ٨ مايو ١٨٠٧) « وكذلك نهوا على القلقات الذين يسمونهم الضوابط المتقيدين بأبواب المدينة مثل باب النصر ، وباب الفتوح ، والبرقية ، والباب الجديد ، بمنع النساء عن الخروج ، خوفاً من خروج نساء القبلى وذهابهن إلى أزواجهن » . (ج ٤ ، ص ٥٧) .

(٦) أخطاط ، جمع خط بضم الخاء ، معناها أقسام المدينة .

(٧) الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١١ — ١٢

ومن الغريب أن يصدر قرار تعيينه في مستهل الحكم الفرنسي وفي ذات اليوم الذي صدر فيه قرار تشكيل ديوان القاهرة ، وفي الوقت الذي كان بونابرت يحاول استمالة قلوب المصريين إلى الحكم الفرنسي : ولا عبء بما يقرره أحمد حافظ عوض من أن التبعة في تعيينه تقع على علماء الأزهر أعضاء الديوان^(١) ، فقد اعتمد على رواية الجبرتي بعد أن أدخل تعديلا عليها ، عصف بمعناها . والعبارة التي ذكرها الجبرتي هي أن أعضاء الديوان أبلغوا الفرنسيين « أن سوق مصر لا يخافون إلا من الأتراك ، ولا يحكمهم سواهم »^(٢) ، والعبارة التي جاء بها قلم أحمد حافظ عوض منسوبة إلى الجبرتي هي « إن الذنب في ذلك واقع على المشايخ الذين أفتوا لهم بأن سوق مصر لا يخافون إلا من المماليك وأشباههم » . وفارق كبير بين العبارتين ، والأمانة العلمية تقتضي عدم إدخال تعديل على نص تاريخي يعصف بمعناه ، ولم يكن الرأي الذي قرره الجبرتي ينسحب على هذا اليوناني ، ولعل الأستاذ أحمد حافظ عوض قد فاتته ما ذكره الجبرتي في كتابه الأول الذي وضعه باسم « مظهر التقديس » إذ حل فيه حملة عنيفة على الفرنسيين لتعيينهم هذا اليوناني في منصب إداري كبير ، وقال إن هذا التعيين يثنأى مع ما جاء في المنشور الأول الذي وجهه بونابرت إلى الشعب المصري في ٢ من يوليو ١٧٩٨ ، والذي قال فيه : إن الحكم الفرنسي سوف يديخ الفرص أمام المصريين لتقادم المناصب السامية ، واكتساب المراتب العالية ، وأضاف الجبرتي إلى ذلك قوله : لأنه مما عصف بهذه الوعود « تقليد هم مناصب

(١) أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث أو تاليف بونابرت في مصر . القاهرة ، ١٩٢٥ ، ص

(٢) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١١

الأحكام الحليّة للأسافل والرعاع ، كجعلهم برطانيين ، وهو المسمى عند العامة (فرط الرمان) ، كتحذنا مستحفظان ^(١) .

ويعطى أحد المؤرخين الفرنسيين تفسيراً أو تبريراً ، لإقدام السلطات الفرنسية على تعيينه في هذا المنصب ، فيقول إنه عقب معركة إمبابة وهروب إبراهيم بك مع قواته إلى الشرقية ، انتمز بعض الغوغاء فرصة عدم وجود قوات أمن في القاهرة ، فمارسوا عمليات النهب والسلب . وحدث أن هاجمت جموع غفيرة من الرعاع حى الإفرنج ، وكادوا يفتكون بسكانه ، ويسابون ثرواتهم ، لولا أن تصدى لهم شخص يوناني بمفرده ، كان ذا شجاعة نادرة ، وقوة بدنية جبارة ، وأخذ يطلق النار على المهاجمين ، فردهم على أعقابهم ، وكان هذا اليوناني « الشجاع » هو برتلمى ، فعينه الفرنسيون في منصب وكيل محافظة القاهرة ، تقديرًا منهم لموقفه ، وجهوده في حماية أرواح الأوروبيين وأموالهم ^(٢) .

ولما شغل برتلمى هذا المنصب برزت بروزاً واضحاً هوايته ، وهى القتل الجماعى للمماليك والمصريين على السواء . كان يطوف في شوارع القاهرة والسيوف مسلول في يده ، وحوله وأمامه قوة تبلغ المائة من اليونانيين غلاظ القلوب على شاكلته ^(٣) . وكان يجمع في ملبسه بين الملابس اليونانية والملابس الشرقية .

(١) الجبرقى : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين . النسخة الخطية المودعة في المكتبة التيمورية بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تحت رقم ١٣٢٨ تاريخ ، المكتبة التيمورية ، ص ٣٣ .

(2) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t., III, p. 211.

(٣) تقرب اليونانيون المقيمون في مصر من سلطات الاحتلال الفرنسى ، وقد أمر بونايرت بتكوين ثلاث كتائب من هؤلاء اليونانيين تتولى الحراسة النهرية للسفن الفرنسية ، بعد أن كثر تعرض المصريين لهذه السفن ، وفتكهم بركابها الفرنسيين ، وقد تضمن أمر بونايرت بأن تتكون كل كتيبة من مائة يوناني ، وأن يكون مقر الكتيبة الأولى القاهرة ، ورئيسها نقولا ماركو =

كان يرتدى عمامة بيضاء كبيرة ، يزيد في بياض لونها لمن يشاهدها بشرته
البرونزية ، وكان يرتدى أيضاً سراويل واسعة ، وسترة ضيقة وقصيرة على
صدره ، ويضع حول وسطه حزاماً عريضاً أحمر . وكان يطوف أحياناً
في صحبة زوجته ، مرتدية الملابس اليونانية الوطنية ، وكانت زوجته على
شاكلته ، لا يربحها منظر الدماء المسفوكة ، وكان يداهم البيوت ليلاً ، بحجة
البحث عن الأسلحة . وكان في بعض الأحيان يخرج إلى أطراف القاهرة ،
بحجة البحث عن الفارين ، أو البدو المتمردين ، فاذا لم يجد أحداً من هؤلاء
وأولئك كان يقتل الفلاحين الذين يصادفهم في طريق عودته إلى القاهرة ،
ويجمع رعوسهم ويحملها رجاله معهم ^(١) . ولذلك كان يحرص على أن يعود من
جولاته بنتائج إيجابية ، تتمثل في رعوس قتلاه . وكان يرى أن أكبر معرة
تلقق به من طوافه أن يعود إلى القلعة بدون « إيراد آدمي » ، سواء كان هذا
الإيراد أشخاصاً مقبوضاً عليهم أو رعوس قتلى موضوعة في زكايب ، وبسبب
إسرافه في القسوة ، وإمعانه في الظلم ، ورغبته في التشفى من الشعب المصري ،
أطلق عليه أحد المؤرخين الفرنسيين اسم « تريستان المصري » ^(٢) Le Tristan Egyptien ^(٣)

== Nicolas Marco ، والثانية في دمياط ، والثالثة في رشيد .

انظر :

الوثيقة رقم ٣٥٤٢ مؤرخة في ٦ برومير من السنة السابعة للتقويم الجمهوري (٢٧ أكتوبر ١٧٩٨)
والوثيقة رقم ٣٥٤٣ مؤرخة في ذات التاريخ السابق ، وموجهة إلى الجنرال برتيه

Correspondance de Napoléon, t. V.

وبالإضافة إلى كتائب الحراسة النهرية شكل الفرنسيون من اليونانيين المقيمين في مصر كتائب
انضمت إلى الجيش العامل ، سداً للنقص في صفوف الجيش .

(١) حدث أن عاد هذا الرجل في إحدى المرات من جولاته ، وذهب إلى الجنرال دييوى الحاكم
العسكري لمدينة القاهرة ، وكان يتناول الغذاء مع بعض ضيوفه ، فقدم إليه زكيبة ، كان الجنرال
أول الأمر أنها تحوى بطيخاً أو شاماً ، فأمر بقبض الزكيبة ، فإذا بمحتوياتها عبارة عن اثني عشر رأساً
من رعوس المصريين الذين قتلهم . وامتعض الحاضرون من هذا المشهد الدامى ، وأمر الجنرال بإخراجه
مع زكيبته من قاعة الطعام .

(2) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV. pp. 128 - 131.

(٣) تريستان ، هو رجل سياسى فرنسى ، عاش في القرن الخامس عشر ، واستطاع شربه
في فرنسا ، إذ اشتهر عنه إسرافه في القسوة ، والتجسس على مواطنيه ، والتحريض على ارتكاب

ويقول مؤرخ فرنسي آخر: إن كل الآثام الفظيعة التي نسبت إلى الفرنسيين إنما تتجسد في هذا الرجل اليوناني^(١) ، وجدير بالذكر أن الهتافات التي ردها أهل القاهرة إبان الثورات والفتن كانت تدوى بهذا القول المسجع : الله ينصر السلطان ، ويهلك قرط الرُّمَّان^(٢) ، وسنرى أن رعونة هذا اليوناني كانت السبب المباشر في استفحال الثورة التي تنادى إليها رجال الأزهر في أكتوبر ١٧٩٨ :

ثالثاً : استيلاء المسيحيين على إيراد الأوقاف الإسلامية

ومن الأسباب المساعدة استيلاء الأقباط ونصارى الشوام على إيراد الأوقاف الخيرية الإسلامية ، وقد اعتبروها غنيمة لهم ، وتأثر من هذا الإجراء المستحقون في الأوقاف ، إذ قطعت عنهم المرتبات التي كانوا يعتمدون عليها في معيشتهم ، وكان معظمهم من الفقراء ، وقد وصفهم الجبرتي بأنهم : « أولاد الكتائب والفقهاء ، والعميان والمؤذنين ، وأرباب الوظائف ، والمرضى بالمارستان المنصوري ، وأوقاف عبد الرحمن كتمخذا » وقد ذهبوا

= الجرائم التي وصلت إلى حد القتل أو الاغتيال ، وانتهاز فرصة الحروب التي كانت مشتتة بين فرنسا وإنجلترا ، وقيام الاضطرابات الداخلية في فرنسا ، فأشيع هوايته الإجرامية ، وكان قد وضع نفسه في خدمة ملكين تعاقبا على حكم فرنسا ، هما الملك شارل السابع (١٤٢٢ - ١٤٦١) ، والملك لويس الحادي عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣) ، منح له الأول بأن يباشر نفوذاً على كبار قادة الجيش ، وعينه الثاني في منصب كبير الياوران ، وفي جميع المناصب التي شغلها كان تريستان صورة قبيحة من صور استغلال النفوذ والبطش ، والاستهتار بالقانون ، وسفك الدماء لأتفه الأسباب ، وقد انقطعت أخباره بعد سنة ١٤٧٥ ، ويعرف في تاريخ فرنسا القوي باسم « لويس تريستان ليرميت Louis Tristan Lhermite » وتكتب هذه اللفظة الأخيرة أحياناً L' Hermite ، وأحياناً أخرى Lhermite ، وأحياناً ثالثة L'Ermite .

وهكذا توجد أوجه كثيرة للشبه بين هذه الشخصية الفرنسية وبين برتلي الذي فرضه الفرنسيون في منصب حساس في مدينة القاهرة ، فاستغل سلطات منصبه لممارسة هوايته الإجرامية من ناحية ، ولإشفاء غليله من الشعب المصري من ناحية أخرى .

(1) Wiet Gaston; Nicolas Turc; ouvr. cit., (Trad. fr.) p.113, note. 2.

(٢) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٨٨ ، ص ٩٣ .

إلى السيد خليل البكرى نقيب الأشراف ، يلتفون تدخله لدى السلطات الفرنسية لإعادة الأمور إلى أوضاعها السليمة ، وكانوا جميعاً غفيراً « فواعدهم على حضورهم الديوان وينهوا شكواهم ، ويتشفع لهم ، فذهبوا راجعين »^(١).

رابعاً : استعلاء المسيحيين على المسلمين

يضاف إلى هذا الاستيلاء التعسفي سبب آخر ، هو استعلاء العناصر غير الإسلامية في مصر على مسلميها ، فقد كان المسلمون يحرصون أنفسهم بامتيازات ، نذكر منها على سبيل المثال : الحق الذي قرروه لأنفسهم دون سواهم ، وهو ارتداء عمامة بيضاء ، وكذلك السير في الطرقات على الجانب الأيمن . ولما جاء الحكم الفرنسي لم يتخلص غير المسلمين من القيود المفروضة عليهم فحسب ، بل شتموا بأنوفهم على المسلمين ، وخاطبواهم بلهجة كانت تنم عن التهمك والازدراء والسخرية . وواجه الفرنسيون هذه المشكلة منذ الأيام الأولى للحكم الفرنسي^(٢). وكان مركزهم حرجاً ، فالجيش في حاجة إلى معاونة الأقباط والشوام المسيحيين واليونانيين ومن إليهم ، لعدة أسباب ليس هذا البحث مكاناً لمناقشتها ، والجيش تابع لدولة أوروبية ذات نظام جمهوري ، وشعارها الحرية والإخاء والمساواة ، فإذا لم يعمل الفرنسيون على تطبيق هذه المبادئ على الأقليات في مصر ، فكأنما تنكر الجيش للمبادئ التي جاءت بها الثورة الفرنسية . ولكن أدرك بونايرت من ناحية أخرى أن هذا التحزير يسيء إلى الرأي العام في مصر ، ويعصف بالسياسة الإسلامية التي أخذ نفسه بها في حكم الشعب ، فقال في مذكراته : إنه من العبث إضفاء مظاهر الاحترام والتقدير على علماء الأزهر كوسيلة لاجتذاب قلوب المصريين للحكم الفرنسي « إذا لم نظهر نحن

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤ .

(2) Reybaud Louis et autres ; ouvr. cit., t. IV, pp. 138-139.

مزیداً من الاحترام العمیق للدين الإسلامی ، وإذا كنا نسمح للأقباط واليونانيين واللاتین (المسیحیین الغربیین) بقسط من التحرر ، یغیر من أوضاعهم وعلاقاتهم المعتادة . وقد أردت أن یكونوا أكثر خضوعاً ، وأكثر احتراماً لكل ما یتصل بالإسلام وبالمسلمین ، مما كانوا فی الماضی^(١) . والجسبرتی یؤكد هذا الاتجاه الذی صدر عن بونابرت ، ویقرر أنه حاول الأخذ به ، بعد انتهاء ثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، فیدكر فی حوادث الیوم السابع من شهر رمضان ١٢١٣ (١٢ من فبراير ١٧٩٩) « أن نصاری الشوام رجعوا إلى عاداتهم القديمة فی لبس العائم السود والزرقي ، وتركوا لبس العائم البیض ، والشیلان الکشمیری الملون والمشجرات ، وذلك بمنع الفرنسیس لهم من ذلك . ونهوا أيضاً بالمناداة فی أول رمضان (٦ من فبراير ١٧٩٩) بأن نصاری البلاد یمشون علی عاداتهم مع المسلمین أولاً . ولا یتجاهرون بالأكل والشرب فی الأسواق ، ولا یشربون الدخان ولا شینا من ذلك بمرأى منهم ، كل ذلك للاستیجلاب لخواطر الرعية »^(٢)

خامساً : كثرة الخمارات والمراقص

ومن جهة أخرى كثرت عدد محلات بیع الخمر أو « الخماير » بمصطلاح ذلك العصر ، وتحولت المقاهی فی الأحياء الشعبية إلى مرقص تعمل فیها الراقصات المصريات ، ومن إلیهن من « بنات البلد المخلوعات » . وكان الدهر فی هذه المراقص یمتد إلى ساعة متأخرة بعد منتصف اللیل ، وكانت تتم فیها

(١) " Mais ce serait en vain qu'on prendrait ces soins pour eux (les Ulémas), si on ne se montrait pas pénétré du plus profond respect pour la religion de l'Islamisme et si on permettait aux Coptes chrétiens, grecs et latins des émancipations qui changeassent leur rapports habituels. J'ai voulu qu'ils fussent encore plus soumis, plus respectueux pour les choses et les personnes qui tenaient à l'Islamisme, que par le passé".

Napoléon I^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. II, p. 152.

(٢) الجبرتی ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٩٥ .

أعمال مخلة بالآداب العامة ، ونذكر بهذه المناسبة أنه اختفت ، أو كادت تختفي من القاهرة ظاهرة كانت تميز الحياة الاجتماعية في مصر قبل قدوم الحماية الفرنسية ، فقد كانت المقاهي تقدم لروادها ألواناً من الأدب الشعبي ، وكان المنشدون يجلسون في صدر المقهى على أريكة مرتفعة ، ياشدون على نغمات الربابة قصص البطولة والفداء والحب العذري ، ويروون فصولاً من قصص الأميرة ذات الهمة ، وأبي زيد الهلالي ، وعنترة ، وألف ليلة وليلة ، وغير ذلك ، وحل محل الأدب الشعبي أعمال نفرت منها الغالبية الساحقة من مجتمع إسلامي محافظ .

سادساً : تدخل الحكومة في مسائل اعتبرها المصريون مسائل شخصية وازداد ضغط سكان القاهرة على الحكم الفرنسي ، حين اتخذ الفرنسيون تدابير صحية وقائية لمنع انتشار الطاعون ، وغيره من الأوبئة في مدينة القاهرة بالذات ، نظراً لكثافة السكان بها نسبياً عن سائر مدن مصر ، فأمروا القاهريين بأن ينشروا ثيابهم وأمتعتهم وفرشهم على سطوح المنازل ، وتعريضها للشمس والهواء طوال النهار يومياً ، وتبخير البيوت ، وعزل المصابين بأي مرض وبائي عن الأصحاء ، والإبلاغ عن كل مريض ، كي ترسل السلطات الفرنسية طبيباً لفحصه ، خشية أن يكون مصاباً بالطاعون . واهتمت هذه السلطات اهتماماً زائداً بتنفيذ هذه الإجراءات الوقائية ، وعهدت إلى مشايخ الحارات ، وعدد من السيدات بالمرور على المنازل ، للتأكد من تنفيذ التعليمات الصحية . وكانت السيدات يصعدن إلى دور الحريم لهذا الغرض ، كما صدرت الأوامر بمنع دفن الموتى في المقابر القائمة في أحواش المساكن ، أو القرية منها . وكانت توجد مقابر في الأزبكية والرويعي وغيرهما ، فنع الفرنسيون الدفن بهما ، وأمروا باستخدام المدافن الموجودة في أطراف العاصمة . أما العائلات التي

ليست لها مدافن ، فيسمح لها بأن تدفن موتاهها في مدافن المماليك ، كما طأنب من القاهريين تعميق القبور ، بحيث لا يكون القبر قريباً من سطح الأرض . وصدرت الأوامر لأهل القاهرة بكنس الشوارع ورشها ، ومداومة تنظيفها من القمامة والقاذورات ، وقد نظر المصريون شذراً إلى هذه الأوامر واعتبروا صابورها فضولاً لا يطاق من السلطات الفرنسية ، وتدخلها منها فيما لا يعنها ، لأنهم كانوا يعتبرون مثل هذه الموضوعات مما يدخل في نطاق المسائل الشخصية يعالجها كل إنسان بأسلوبه الخاص ، وبطريقته الخاصة . وقد اعتاد المصريون إبان الحكم العثماني أن يكون التدخل الحكومي محصوراً في أضيق نطاق لا يتعدى عادة ثلاث مسائل ، هي : جمع الضرائب ، والقضاء ، والأمن ، ولذلك نفرسكان القاهرة من هذه « القيود » التي فرضها الحكم الفرنسي عليهم :^(١)

(١) وتتصل بهذه المسألة الأوامر التي أصدرتها السلطات الفرنسية بإزالة الطرقات والأسواق ليلاً ، وبوضع قنديل أمام كل دار ، وقنديل آخر أمام كل ثلاثة حوانيت . وقد تعسف رجال الشرطة في تنفيذ هذه الأوامر ، واتخذوا منها وسيلة للكسب الحرام . كانوا إذا وجدوا قنديلاً خياً نوره لنفاد زيته ، أو أطفأه الهواء في ليل ذات ريح عاصف ، فرضوا على صاحب القنديل مبلغاً من المال يذهب بغيرهم مباشرة . يقول الجبرقي وهو يستعرض حوادث شهر رجب ١٢١٣ : « ومنها كثرة تعدى القلقات ، وتشديدهم على وقود القناديل بالأزقة وهم من أهل البلد ، وإذا مروا بالليل ووجدوا قنديلاً أطفأه الهواء ، أو فرغ زيته سمروا الحانوت أو الدار التي هو عليها . ولا يقلعون المسار حتى يصلحهم صاحبها على ما أحبوه من الدراهم ، وربما تعدوا كسر القناديل لأجل ذلك . واتفق أن المطر أطفأ عدة قناديل بسوق أمير الجيوش بسبب كونه في ظروف من الورق والجريد ، فابتل الورق وسال المساء فأطفأ القناديل ، فسمروا حوانيت السوق ، وأصبح أهلها صالحوها عليها ، ووقع مثل ذلك في طرق عديدة ، فجمعوا في ذلك اليوم جملة من الدراهم ، وأمثال ذلك حتى في الأزقة والمطافئ النيران ، حتى كان الناس ليس لهم شغل إلا القناديل وتفقد حالها ، وخصوصاً في ليل الشتاء الطويل » . وفي الشهر التالي أدخل الفرنسيون تطويراً على نظام الإنشاء في طرقات القاهرة ، وكان من أهداف هذا التطوير تخفيف الأعباء عن الفقراء ، أو كما يقول الجبرقي : « إزالة هذه الكربة عنهم » نظراً لما لا يس نظام الإنشاء من تعنت القلقات مسيع الجاهل الكادحة . وفي عرشة لحوادث شهر شعبان ١٢١٣ قرر الجبرقي أن الفرنسيين « نادوا بإبطال القناديل التي توقد في الليل على البيوت والدكاكين ، وأن يوقد عوضها في وسط السوق بجامع ، في كل مجمع أربع قناديل ، بين كل مجمع ثلاثون ذراعاً ، ويقوم بذلك الأغنياء ، دون الفقراء ، ولا علاقة للقلقات في ذلك ، ففرح بذلك فقراء الناس ، وانفجرت عنهم هذه الكربة » . انظر الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٩ ، ص ٣٩ ، ص ٤١ .

وأمر الفرنسيون بخلع البوابات التي كانت قائمة عند رءوس الشوارع والدروب والحارات النافذة إلى طرق ومسالك أخرى ، وكان جنود فرق الهندسة العسكرية هم الذين يقومون بعمليات خلع وتحطيم البوابات ، تحت إشراف الضباط المهندسين . وارتاع أهل القاهرة من هذا الإجراء ، لأن هذه البوابات كانت تغلق يومياً من بعد صلاة العشاء حتى مطلع فجر اليوم التالي . وكان وجودها وغلقها ليلاً مبعث طمأنينة في نفوس السكان ، إذ يكونون بمأمن من اعتداء اللصوص . وانتهر المرجفون في المدينة فرصة هذا الإجراء ، وأذاعوا أن الفرنسيين يعزمون مهاجمة البيوت ، وقتل من فيها وقت صلاة الجمعة ، حين يكون الرجال محتشدين في المساجد يؤدون شعائر صلاة الجمعة . وفي شهر سبتمبر ١٧٩٨ مضى الفرنسيون يخلعون البوابات المقامة على المسالك غير النافذة أيضاً . وكانت البوابة الكبيرة تقطع نصفين ، ثم يرفعها العتالون وينقلونها إلى بركة الأزبكية عند رصيف الخشاب ، وزاد هلع الجماهير ، وأغلق التجار حوانيتهم تعبيراً عن احتجاجهم وتذمرهم ، ولكن لم يأبه بونايرت بسخطهم ، واعتقد أن تذرهم ليس إلا فورة غضب سوف تخبو وشيكاً ، ولكنه كان واهماً في اعتقاده ، لأن إجراء خلع البوابات ظل عالقاً في أذهان سكان القاهرة ، فما أن قامت الثورة حتى تحركت الجماهير إلى الدار التي كان يسكنها الجنرال كافا، يلى Caffarelli قائد سلاح المهندسين في الجيش ، باعتباره الضابط الذي كان يتولى الإشراف على تنفيذ خلع البوابات ، واقتحم القاهريون داره ، وقتلوا من كان فيها ، ولم ينقذ هذا الضابط الكبير من الموت في ذلك اليوم إلا تواجده خارج القاهرة مع بونايرت . ويجمع الباحثون على أن الضرورات الحربية كانت وراء خلع البوابات ، إذ خشى بونايرت أن تعرقل هذه البوابات تحركات وحدات الجيش في حالة اندلاع ثورة ضد الفرنسيين ، وقد يستخدم الأهالي البوابات بمثابة متاريس يهتمون بها ،

وتتضح الأهمية التي كان يعلقها بونابرت على خلع البوابات من كثرة عدد الأوامر التي كان يصدرها تبعاً في هذا الصدد إلى سلاح المهندسين^(١) ، وقد ربط أهل القاهرة في أذهانهم بين خلع البوابات وتخطيها ، وبين تسليم القلعة الذي كان قائماً على قدم وساق قبيل نشوب الثورة ، كما سئرى في موطن قادم :

سابعاً : لإعدام السيد محمد كريم

ومن التصرفات التي أثارت المسلمين بوجه خاص على الحكم الفرنسي لإعدام السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية الوطني رمياً بالرصاص في الرميّة بالقاهرة ، في السادس من سبتمبر ١٧٩٨ ، ثم أقدم الفرنسيون على قطع رأسه وأمرؤا برفعها على [نبوت] ، وطافوا بها في شوارع القاهرة ، والمنادى يقول : « هذا جزاء من يخالف الفرنسيين » . وقد اعتبر سكان القاهرة هذا العمل من جانب الفرنسيين تمثيلاً بجثمان رجل من الأشراف^(٢) :

(١) انظر على سبيل المثال الوثائق الآتية :

الوثيقة رقم ٢٩٤٥ - أمر من بونابرت إلى الجنرال كافاريل ، مؤرخ في ١٦ من ترميدور من السنة السادسة من التقويم الجمهوري (٣ من أغسطس ١٧٩٨) .

الوثيقة رقم ٢٩٥٦ - أمر من بونابرت إلى الجنرال دومارتا Dommartin ، مؤرخ في ١٦ من ترميدور من السنة السادسة من التقويم الجمهوري (٣ من أغسطس ١٧٩٨) .

الوثيقة رقم ٢٩٥٧ - أمر من بونابرت إلى الجنرال ديبوي Dupuy في ذات التاريخ السابق .

الوثيقة رقم ٢٩٧٨ - أمر من بونابرت إلى الجنرال كافاريل مؤرخ في ٢٨ من ترميدور من السنة السادسة من التقويم الجمهوري (٥ من أغسطس ١٧٩٨) .

وهذه الوثائق المذكورة في المجلد الرابع من :

Correspondance de Napoléon.

(٢) انظر على سبيل المثال، الوثائق ذات الأرقام الآتية :

٢٨٨٥ ، ٢٩٢٥ ، ٢٩٢٦ ، ٣٠٢٥ ، ٣٢٤٧ ، ٣٢٤٨ في المجلد الرابع من المصدر

السابق ، وكل هذه الوثائق خاصة بإعدام السيد محمد كريم . وانظر أيضاً :

جريدة Courrier de l'Egypte ، العدد الرابع الصادر في ٢٤ من شهر فركتيدور من السنة السادسة من التقويم الجمهوري ، (١٠ من شهر سبتمبر ١٧٩٨) ، وقد أذيع في هذا المدد نبأ إعدامه ، وأسباب الإعدام ، والطواف برأسه في شوارع القاهرة .

ثامنا : القروض الإجبارية

وأُسرف بونابرت في فرض قروض إجبارية على سكان القاهرة من التجار والصناع والحرفيين ومن إليهم ، وكانوا يلتمسون تخفيض قيمتها ، ولكنهم لم يجدوا استجابة لالتماساتهم المكرورة ، وعمد بونابرت بعد ذلك إلى مصادرة الممتلكات ، وإبزاز الأموال من نساء البكوات المماليك ، ولم تكن هذه الإجراءات المالية التعسفية ، أو معظمها بعبارة أدق ، أمراً جديداً ، بالنسبة لمجتمع القاهرة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، حين كان الأمراء المماليك يملأون القاهرة ظلماً وعدواناً ونهباً واغتصاباً .

ويمكن أن يضاف إلى أسباب التدمير تعرض التجارة للكساد ، بسبب توقف قدوم القوافل التجارية من شمالي أفريقيا ومن السودان ، وتعطل التجارة الخارجية البحرية استيراداً وتصديراً ، على الرغم من أن حجم هذه التجارة الخارجية كان ضئيلاً نسبياً ، إلا أنها كان لها دور في الاقتصاد المصري في ذلك الوقت :

ولم تكن جميع هذه الأسباب تبرر اندلاع ثورة عارمة كالتى قام بها سكان القاهرة في صباح ٢١ من أكتوبر ١٧٩٨ ، إن كل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد إن تلك الأسباب قد أضافت مزيداً إلى رصيد النفور الذى شعر به المصريون من الحكم الفرنسى ، ثم جاءت تشريعات مالية استحدثتها الفرنسيون واستغلها رجال الأزهر ، لتحريك ثورة كانوا يعدون لها من قبل ، كما سنرى في سياق هذه الدراسة :

تاسعا : التشريعات المالية

كان بونابرت قد عهد إلى أحد رجال الاقتصاد الفرنسيين وهو پوسيليج Poussielgue تدبير موارد جديدة للمالية المصرية ، لمواجهة نفقات

الإدارة والحكم والحرب ، وكان بوسليج يشغل منصب مدير الشؤون المالية لجيش الشرق ، ويسميه الجبرقي تارة « بوسليك المعروف بمدير الحدود ، وهو عبارة عن الروزنامجي » ، ويسميه تارة أخرى « بوسليك رئيس الكتاب ومدير الحدود » ، وتارة ثالثة « مدير الجمهور » . أما المعلم نقولا ترك فيطلق عليه « بوسليج مدير الحدود في مشيخة الفرنساوية » ، وقد تفتق ذهن هذا الفرنسي عن وضع عدة مشروعات مالية ، منها ما يتصل بفرض ضرائب جديدة على التركات والعقارات والهبات والمبيعات والإشهادات ، وعلى السفر من مكان إلى آخر ، وتسجيل المواليد ، وكان يطلق على العملية الأخيرة : « إثبات الحياة » ، وتسجيل عقود الملكية ، والمواجرات وما إلى ذلك ، ولكي

(١) الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

والروزنامجي هو المدير العام لديوان الروزنامة ، وكانت مهمة هذا الديوان إبان الحكم العثماني جمع الأموال الأميرية ، وصرفها في وجوهها المقررة ، تحت إشراف إيديوان الدفترى .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٢ .

(٤) مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فثيت ، ص ٦٥ ، ويلاحظ أن نقولا ترك يذكره في مواضع أخرى بحرف الكاف ، فيقول بوسلك (ص ٦٧) .

ويلاحظ الخلط الذي وقع في كتاب الجبرقي ، فأحيانا (ص ٢٨) تظهر عبارة (مدير الحدود) بحرف الباء في كلمة مدير . وأحيانا أخرى (ص ٩٠) تظهر بحرف الباء . أما نقولا ترك فيذكره دائماً مدير الحدود بحرف الباء . ونجم عن هذا الخلط أن ظهرت هذه العبارة في المراجع

الفرنسية تارة بمعنى مدير الحدود

أو

Commissaire pour la délimitation des frontières.

انظر :

Desgranges ; Histoire de l'Expédition des Français en Egypte par Nakoula - el - Turk, Paris, 1839, p. 140, et. pp. 150- 151.

وظهرت تارة أخرى بمعنى مدير الحدود .

Régulateur des Limites.

انظر :

Deny ; ouvr. cit., pp. 137 - 138.

يضمنى على التشريعات المالية الجديدة صفة شرعية جمع بونابرت فى العاصمة منذ الأسبوع الأول من أكتوبر ١٧٩٨ مجلساً أطلق عليه الديوان العام ، أو « الديوان العمومى » ، ضم علماء وأعيان القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط « وبقية البنادر » ، وعرض عليهم مشروعات هذه القوانين ومسائل أخرى ، ونجح فى استصدار موافقة الديوان العام على هذه التشريعات ، قبل أن يفض جلساته فى العشرين من أكتوبر .»

تكوين مجلس الثورة

ذكرنا أن بعض علماء الأزهر رأوا ضرورة القيام على الفرنسيين ، وكان المنشور الذى وجهه السلطان العثمانى — سلطان المسلمين — إلى الشعب المصرى بإعلان الجهاد الدينى ضد الفرنسيين ، وكذلك رسائل الجزار باشا وإبراهيم بك ومن إليهم ، بمثابة خطة عمل لعلماء الأزهر ، فتكونت فى الجامع الأزهر ، وفى وقت مبكر على صدور التشريعات المالية لجنة لقيادة الثورة ، أطلق بونابرت عليها حيناً « مجلس الثوار » ^(١) Le Conseil de Revoltés وحيناً آخر « ديوان المتمردين » ^(٢) Le Divan des Insurgés ، وحيناً ثالثاً « ديوان الدفاع » ^(٣) Le Divan de Défense ، كما أطلق عليها بعض الفرنسيين اسماً رابعاً هو « اللجنة المتآمرة » ^(٤) Le Comité Conspirateur ، وكان يرأس هذه اللجنة أحد علماء الأزهر المرموقين ، وهو الشيخ محمد السادات ، ولقبه الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار بن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين

(١) انظر التقرير الذى وضعه بونابرت عن ثورة أكتوبر ، ورفعته إلى حكومة الديركتوار

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient etc., ouvr. cit., t. I. pp. 369 - 371.

(2) Op. cit., p. 250.

(3) Loc. cit.

(4) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, p. 139.

سبب بنى الوفاء ، وكان يجمع بين شرف المحتد ومجد العلم ، تولى خلافة آل السادات ومشیخة سجادتهم على عهد على بك الكبير ، أما أعضاء مجالس الثورة فكانوا من علماء الأزهر من غير أعضاء الديوان وأئمة المساجد وبعض المغاربة . وقدر بونا برت عدد أعضاء اللجنة بما يقرب من المائة ، ويبدو أن بونا برت كان مبالغاً في هذا التقدير ، لأن التشكيلات الثورية تكون في العادة محصورة في نطاق ضيق ، وخصوصاً في مرحلة الإعداد للثورة . وأخذت اللجنة تخطط للثورة ، وتدرس الوسائل اللازمة لتحريك الثورة ، واختيار الوقت المناسب لإشعالها ، وشراء الأسلحة وإيداعها في أماكن بعيدة عن عيون الفرنسيين وعملاتهم :

وقد وضع مجلس الثورة في اعتباره الاعتماد على التكوين الطائفي لمجتمع القاهرة في ذلك الوقت ، فقد كان من سمات المجتمع المصري وجود طوائف الحرف guilds ، وكان شيخ كل طائفة يمارس سلطات واسعة فنية وإدارية وتأديبية على أفراد طائفته . وكان علماء الأزهر على صلات وثيقة بشيوخ الطوائف^(١) ، ومن المظاهر المألوفة في حياة المجتمع القاهري أن شيوخ بعض الطوائف كانوا يتخذون من المساجد مكاناً مختاراً ، يمارسون فيه

(١) كان علماء الأزهر في العصر العثماني يعتمدون على شيوخ الطوائف إذا أرادوا تحريك ثورة شعبية عارمة ضد أمير مملوكي ظلم ، وكان شيخ الطائفة يحرص الحرص كله على أن يشهد عدد من كبار علماء الأزهر الاحتفالات التي تقيمها طائفته في شئ المناسبات ، وبخاصة تلك التي تشبه الاحتفالات التي تقام في الوقت الحاضر ، ويطلق عليها حفلات التخرج . فكانت تقام احتفالات عندما يرتقى « عريف » إلى مرتبة « معلم » ، ويصبح له الحق في مزاوله مهنته أو حرفته في محل مستقل . وكان أحد كبار علماء الأزهر يخطب في مثل هذا الحفل ، كما كانت « الإجازة » التي تعطى « للمعلم » الجديد من صياغة أحد علماء الأزهر ، وكان يغلب عليها الطابع الديني ، وذكر بعض الآيات القرآنية ، والإحاديث النبوية .

اختصاصاتهم العديدة المتشعبة^(١) ، وفي القرن الثامن عشر حدث تلاحم شديد بين رؤساء ثلاث هيئات : علماء الأزهر ، وشيوخ طوائف التجار والحرف ، وأرباب الطرق الصوفية^(٢) ، وكان هذا التلاحم نتيجة طبيعية لتدهور نظم الحكم العثماني من جهة ، وللمظالم التي انتهالت على الجماهير الكادحة من جهة أخرى ، وكان الجامع الأزهر هو ملتقى هذه القيادات ، وفي ظل هذه الأوضاع حدثت اتصالات مسبقة بين مجلس الثورة وبين شيوخ الطوائف كي يصدر كل شيخ التعليمات إلى أفراد طائفته ، إما بإغلاق محلاتهم عند صدور أول إشارة ، وإما بالامتناع عن العمل إذا لم يكونوا من أصحاب المحلات ، وأن يكون الجامع الأزهر هو مكان التجمع :

ولجأ مجلس الثورة إلى تعبئة الشعور الديني ضد الفرنسيين ، وكان مؤذنو المساجد من بين الذين اعتمد عليهم المجلس في هذا المجال ، وأخذ المؤذنون يحرصون الشعب على القيام على الفرنسيين ، من منارات المساجد خمس مرات في اليوم مع آذان الصلاة ، فكانت الدعوة إلى الصلاة والدعوة إلى الثورة تختلطان علناً في آذان سكان القاهرة ، ويقول بونابرت في مذكراته في هذا

(1) Ibrahim Salama Dr. ; L'Enseignement Islamique en Egypte. Le Caire, 1939, p. 217.

وانظر أيضاً بحث de Chabrol الذي سبقته الإشارة إليه في هذه الدراسة .

(2) انظر البحث الذي تقدمت به الدكتور عفاف لطفي السيد إلى مؤتمر تاريخ مصر الحديث الذي عقد في لندن في أبريل ١٩٦٥ ، وكان عنوان بحثها :

The Role of the "Ulamā" in Egypt during the early nineteenth century.

وانظر على وجه التخصيص الجزء الذي جاء في بحثها عن مصر في العصر العثماني المملوكي ، بعنوان : Mamluk Egypt

وقد نشر بحثها في مجلد أبحاث المؤتمر :

Political and Social Change in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic ; edited by Holt P.M. London, 1968, pp. 264 -280.

الصدد : « إنه من فوق أربعائة منارة من مساجد القاهرة كانت تنطلق أصوات المؤذنين تطلب من المسلمين القيام على الفرنسيين ، وكان المؤذنون يصفونهم تارة بأنهم أعداء الله ، وتارة أخرى بأنهم غير مؤمنين ، وتارة ثالثة بأنهم كفرة^(١) ». واعتمد المجلس أيضاً على أئمة المساجد ومقرئها في إلهاب المشاعر الدينية لدى الجماهير . كانت خطب الجمعة التي تلي في المساجد تدور حول ضرورة الجهاد الديني ، وكذلك كانت تختار الآيات القرآنية التي يرد فيها ذكر الجهاد ، ليتلوها المقرئون في المساجد ، سواء قبل صلاة الجمعة أو يومياً ، قبل أداء صلاة العصر :

وكانت حرب الشائعات من الوسائل التي لجأ إليها مجلس الثورة ، لإثارة نفوس المصريين ، تمهيداً لإشعال الثورة في الوقت المناسب ، وتحريكها جارية هادرة ، فأذاع أنباء غير صحيحة ، كان بعضها أنباء دينية مثيرة ، تتلخص في أن بونابرت قرر تنصير جميع المسلمين من سكان القاهرة ، وأنه يعزم استخدام العنف ضد أي فرد تحدثه نفسه بالاستمسك بالدين الإسلامي . وكان الهدف من إذاعة هذا النوع من الشائعات هو شحن عواطف المصريين الدينية وإشعارهم أن هناك أخطاراً تهددهم في عقيدتهم ، مما يحتم عليهم التصدي للفرنسيين : وكان البعض الآخر من الأنباء التي روج لها مجلس الثورة ذا طابع عسكري ، فأذاع أن الأمير مراد بك رد الفرنسيين في الصعيد على أعقابهم إلى الجيزة ، وأن الجزائر باشا قد عين قائداً عاماً للجيش العثماني الزاحف على مصر من بلاد الشام ، وأنه وصل فعلاً ومعه الأمير إبراهيم بك إلى بلبيس ،

(1) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. p. 251.,

عاصمة مديرية الشرقية في ذلك الوقت ، وأن جيشاً عثمانياً آخر سوف ينزل إلى الشواطئ المصرية . وكان الهدف من إطلاق هذا النوع من الشائعات هو تأكيد المعاني التي استقرت في أذهان الشعب المصرى عن ضعف القوات الفرنسية بعد معركة أبي قير البحرية ، وانقطاع الاتصال بين الحملة وبين فرنسا ، ونقص عدد أفراد الجيش يوماً بعد يوم ، ثم تشجيع الجماهير على انهماز هذه الفرصة التي يحيق فيها الخطر من كل جانب بالقوات الفرنسية كي يقوهوا على الفرنسيين . وأضاف مجلس الثورة إلى هذه الشائعات شائعة أخرى هي أن الفرنسيين يستعدون للنجاة بأنفسهم ، وأنهم هدموا أبواب الأزقة ، تمهيداً لنهب البيوت عند رحيلهم :

وكان من بين حرب الشائعات التي بلأ إليها مجلس الثورة ، تشويه جمعية أعضاء الديوان . فأثار دعاة الثورة جواً من الظنون والشكوك حول أعضاء الديوان ، وصورهم أمام الشعب بمظهر الخونة المسارقين ، المتعاونين مع الفرنسيين . وكان الهدف من هذه الشائعة الإساءة إلى مراكزهم بصفاتهم الدينية والشعبية ، فلا يستمع شعب القاهرة إلى أية نصيحة من المشايخ علماء الأزهر أعضاء الديوان بالإخلاد إلى السكينة . وقد نجحت هذه الوسيلة ، إذ أخذ الشعب ينظر شذراً إلى أعضاء الديوان ، واهتزت صورتهم في ذهنه . ويقول بونابرت في مذكراته إن مجلس الثورة تولى تنظيم الثوار ، وتوزيع العمل الثورى عليهم ، وأخرج الأساحة من مخابئها ، ولم يترك هذا المجلس صغيرة ولا كبيرة من المسائل التي تكفل نجاح الثورة إلا ناقشها ونظمها :

(١) انظر بخصوص حرب الشائعات كلا من :

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. ouvr. cit., t. I, pp. 244 - 245.

Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, pp. 139 - 140.

وأراد الفرنسيون الرد على هذه الشائعات ، بعد أن استفحل أمرها ، وتناقلها الخاص والعام ، فأصدروا منشوراً وجهوه إلى سكان القاهرة كذبوا فيه تكديباً قاطعاً الأنباء التي تداولتها الألسنة ، وقالوا إن محيى أحمد باشا الحزار واجتيازه الصحراء أمر من نسج الخيال ، أما نزع البوابات فأمر يخضع للوائح الشرطة ، وأما تسليم القلعة فليس إلا استكمالاً لمنشآت عسكرية : وعمد الفرنسيون في منشورهم إلى تهديد سكان القاهرة بتذكيرهم بما حدث في معركة إمبابة من سحق قوات المماليك : ويقرر بونابرت أن هذا المنشور جاء بنتيجة عكسية ، لأن دعاة الثورة أذاعوا أن الفرنسيين خائفون ، فازداد سكان القاهرة عداء للفرنسيين ، واستخفافاً^(١) بهم :

مجلس الثورة يحدد ساعة الصفر

وفي مساء السبت ٢٠ أكتوبر اجتمع في الجامع الأزهر ثلاثون من أعضاء مجلس الثورة ، وعدد من رسل المماليك ، ولم يكن اجتماعهم ليثير شكوك الفرنسيين ، لأن الاجتماع يتم في المسجد ، وتقام فيه شعائر الصلاة بانتظام ، والفترة التي اجتمعوا فيها تقع بين موعد صلاة المغرب وموعد صلاة العشاء ، وهي لا تزيد عن ساعة ونصف ساعة ، وكثير من المسلمين يفضاون البقاء في المسجد بعد أداء صلاة المغرب ، انتظاراً لحاول موعد صلاة العشاء ، فيؤدونها قبل أن يعودوا إلى بيوتهم : واستقر رأى المجتمعين على إشعال الثورة في صباح الأحد ٢١ أكتوبر ، وأن يكون أول مظهر لها إغلاق الحوانيت ، ودعوة التجار والصناع والحرفيين وغيرهم إلى التوجه في هذا الوقت المحدد إلى الجامع الأزهر ، حيث تبدأ المسيرة الشعبية إلى القيادة العامة للجيش الفرنسي في الأزبكية ، بحجة التظلم من فرض النظام الضريبي الجديد الذي صدرت به التشريعات المالية في اليوم السابق (٢٠ أكتوبر) ، وقد وضع

(1) Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I, p 251,

أعضاء مجلس الثورة في حسابهم أن يكون اجتماع هذه الحشود ومسيرتها في شوارع القاهرة ، مقدمة لإحداث الشغب ، والإخلال بالأمن ، مما يتيح الجو المناسب لإشعال الثورة . وعلى هذا النحو اتخذ دعاة الثورة من التشريعات المالية شرارة أوقدوا بها ثورة عارمة ، كانت بواعثها الدينية قد اختمرت في نفوس سكان القاهرة ، وحوّلتها إلى عداء ديني متأجج ضد الحكم الفرنسي . ويلاحظ أن العوامل المشجعة ، والعوامل المساعدة ، التي سبق أن استعرضنا طرفاً منها ، يجب ألا تحجب حقيقة ثورة القاهرة في أكتوبر ١٧٩٨ ، فهي في لحمتها وسداها ثورة دينية ، انبثقت عن سبب رئيسي ديني ، وسنعود لمناقشة الطابع الديني لهذه الثورة في موطن قادم من هذه الدراسة .

أربع حقائق عن بداية الثورة

وهناك عدة حقائق تفرض نفسها فرضاً في هذا الموقف ، نذكر منها :
أولاً : إن التلاحق السريع بين إقرار التشريعات المالية في ٢٠ أكتوبر وبين اندلاع الثورة في صباح ٢١ أكتوبر ، دليل على أن مجاس الثورة كان يعد لها في داخل الأزهر التدابير منذ زمن سابق على صدور التشريعات المالية ، وأن غالبية سكان القاهرة المسلمين كانوا على علم مسبق بأمر الثورة ، ومن ثم كانت الاستجابة السريعة لأول نداء ديني يذاع في شوارع القاهرة بتحديد بدء الجهاد ضد الفرنسيين ، والانتصار لدين الإسلام . يقول نقولا ترك : « وكان أغلب أهل البلد معهم ألاس بذلك^(١) في الحين والساعة قفلت البلد^(٢) » .

ثانياً : إن الاتصالات المسبقة بين بعض أعضاء المجلس وبين شيوخ الطوائف ، جاءت بالنتيجة المرتجاة ، فقد كان الأزهر يموج بالحشود الشعبية في ساعة الصفر .

(١) ترجم الأستاذ فليت كلمة « ألاس » على هذا النحو :

“La plupart des habitants étaient au courant.”

كان غالبية السكان على علم بها ، أي بالثورة .

p. 41 (trad. fr.)

(٢) مذكرات نقولا ترك ، النص العربي ، ص ٢٨ من الأصل العربي .

ثالثا: إن التشريعات المالية لم تمس إلا مصالح الموسرين من أهل القاهرة. وهؤلاء لم يسهموا إسهاماً فعالاً في وقائع الثورة، أما العامة والسوقة — أو الحرافيش — بمصطلح ذلك العصر — والذين كانوا وقود الثورة، فلم تلحق التشريعات المالية بهم أضرارا تذكر:

رابعا: إن الثوار لم يصبوا جام غضبهم في أثناء ثورتهم على أعضاء « الديوان العمومي » الذين أقروا مشروعات القوانين المالية، بل اتجه نشاطهم الثوري ضد الفرنسيين، وبعض الأجانب المستوطنين في مصر ممن انضموا صراحة إلى الفرنسيين:

كان الفرنسيون يتوقعون قيام القاهرة بالثورة

يقرر بعض الباحثين أن الفرنسيين لم يتوقعوا نشوب ثورة في القاهرة، ويستند هذا الفريق من الباحثين إلى واقعيتين: أولاها أن بونابرت غادر القاهرة في الصباح المبكر من يوم الأحد الحادى والعشرين من أكتوبر، وذهب في صحبة جماعة من كبار قادة الجيش إلى جزيرة الروضة، وتفقد ترسانة الخيزة، وأنه لو كان يتوقع قيام الثورة، لظل في القاهرة. وثانيتهما أن الجنرال ديوبى Dupuy الحاكم العسكرى لمدينة القاهرة استخف بالثورة عند نشوبها، وانتقل إلى مكان الاضطرابات الشعبية، دون أن ترافقه قوة عسكرية كافية، فكان أن لقي مصرعه في أول مواجهة مع الثورة:

والواقع أن الفرنسيين كانوا يتوقعون من يوم لآخر اندلاع الثورة في القاهرة، ولكنهم كانوا يجهلون ساعة الصفر، أى لم يكونوا يعلمون توقيت قيامها، والأدلة على ذلك التوقع متوفرة، نستقيها من الأوامر الرسمية التى أصدرها بونابرت تباعاً قبل نشوب الثورة، ومن مذكراته، ومن يوميات الجبرقى، ومن كتابات المؤرخين المعاصرين لأحداث الثورة. ويفهم من هذه المصادر العديدة أن السلطات الفرنسية قبل اتخذت تدابير أمن مشددة، وإجراءات

عسكرية، وأخرى مدنية وقائية . وكان اتخاذ هذه الإجراءات دليلا على شعور الفرنسيين بأن نذر الثورة تتجمع في سماء القاهرة، واتسم بعض هذه التدابير بطابع العنف الذى وصل إلى حد إزهاق الأرواح :

أصدر بوناپرت قبيل نشوب ثورة القاهرة أوامر بتسليح القاهرة بصفة عامة ، وقلعة الجبل بصفة خاصة. وإن مما يلفت نظر الباحث كثرة عدد هذه الأوامر وتلاحقها . وكان من بين هذه الأوامر أمر مؤرخ في الخامس من أغسطس ١٧٩٨ إلى الجنرال كافاريلي قائد سلاح المهندسين بتسليح القلعة^(١)، وأمر مؤرخ في السابع والعشرين من سبتمبر إلى الجنرال برتية رئيس أركان حرب الجيش يطلب منحه موافاته بمعلومات عن القلعة وتسليحها، وأمر مؤرخ في الثامن والعشرين من سبتمبر إلى كافاريلي بأن يكون في القلعة خمسمائة رجل بصفة دائمة، يخصصون لأعمال التحصينات^(٢)، وأمر مؤرخ في التاسع من أكتوبر بإنشاء بطارية مدفعية في جزيرة الروضة^(٣)، وأمر مؤرخ في الثانى عشر من أكتوبر إلى كافاريلي بضرورة الإسراع في أعمال التحصينات في مدينة القاهرة

(١) وثيقة رقم ٢٩٧٨ - بتاريخ ١٨ من شهر ترميدور من السنة السادسة من التقويم

الجمهورى ، في Correspondance de Napoléon, t. IV.

(٢) وثيقة رقم ٣٣٩١ - بتاريخ ٦ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى في الجزء الخامس من المصدر السابق .

(٣) وثيقة رقم ٣٣٩٤ - بتاريخ ٧ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى في الجزء الخامس من المصدر السابق .

(٤) وثيقة رقم ٣٤٤٥ - بتاريخ ١٨ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى في الجزء الخامس من المصدر السابق .

وعما يذكر أن بوناپرت أصدر أمراً بتاريخ ١٨ فانديمير من السنة السابعة (٩ من أكتوبر ١٧٩٨) إلى پوسيلج Poussielgue بأن تكون كل جزيرة الروضة ملكاً للجمهورية الفرنسية ، وأن يستولى على جميع الدور والمباني القائمة بها ، وأن يقيم منشآت عسكرية في الجزيرة . انظر :

الوثيقة رقم ٣٤٥٠ - في الجزء الخامس من المصدر السابق .

حتى يمكن الفراغ من هذه الأعمال في أسرع وقت ، وفي المذكرات التي أوملاها بوناپرت في منفاه بجزيرة سانت هيلانة قرآن الفرنسيين اشتغلوا ليلاً ونهاراً في أعمال التحصينات ، وهدموا عدداً كبيراً من المنازل ومسجداً ، وأقاموا مكانه بطارية مدفعية ^(٢) :

والدراسة الدقيقة للأحداث التي كتبها الجبرتي ، وهو يسجل يوميات شهر ربيع الآخر سنة ١٢١٣ تكشف عن تدابير الأمن والإجراءات العسكرية التي اتخذها الفرنسيون في خلال هذا الشهر الذي انتهى قبل نشوب الثورة بعشرة أيام (١٢ سبتمبر - ١٠ أكتوبر ١٧٩٨) ، وكان هذا الشهر حافلاً بالأحداث حتى كادت تضيق في زحمتها تلك التدابير والإجراءات ، ونستخلص من دراستنا ليوميات الجبرتي أربعة مظاهر :

١ - اتجاه الفرنسيين إلى ترحيل المغاربة من مصر :

استشعر الفرنسيون الخطر من وجود عناصر إسلامية غير مصرية في مدينة القاهرة ، واتجهت أنظارهم إلى المغاربة ، واستقر رأي السلاطات الفرنسية على أنهم عنصر غير مرغوب في تواجده ، فطلبت من المغاربة في منتصف شهر ربيع آخر ١٢١٣ (حوالى ٢٦ سبتمبر ١٧٩٨) مغادرة الديار المصرية كلية ، وأمهلهم ثلاثة أيام للرحيل ، ثم مدت لهم المهلة أربعاً وعشرين ساعة . وذهب وفد من المغاربة إلى بوناپرت ، وشرحوا له تعذر رحيلهم ، لأن الطريق البحري مغلق بسبب الحصار الذي فرضه الأسطول البريطاني على شواطئ مصر ، وأما الطريق البري فقد وقفت فيه حركة سفر القوافل التي تسير على

(١) وثيقة رقم ٣٤٥٥ بتاريخ ٢١ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهوري ، في الجزء الخامس من المصدر السابق .

(2) Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I, p. 245.

الشريط الساحلى ، وأضافوا إلى ذلك أنه يتعذر عليهم الرحيل من القاهرة ، والإقامة فى الإسكندرية لارتفاع أسعار المعيشة فيها نسبياً عن مثيلاتها بالقاهرة ، وعدم توفر ماء الشرب فيها . وقد صرف بونايرت النظر عن ترحيلهم ^(١) :

ب - إخراج سكان القلعة :

أخرج الفرنسيون سكان القلعة من منازلهم ، وأنزلوهم إلى المدينة ، وأخذ هؤلاء السكان يبحثون عن مساكن لهم ، بينما شرع الفرنسيون فى إقامة تحصينات عسكرية فى القلعة ، وأقاموا فيها مدفعية ثقيلة : يقول الجبرقى : إن الفرنسيين « أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم ، والنزول إلى المدينة ، ليسكنوا بها فنزلوا ، وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع ، وهدموا بها أبنية كثيرة ، وشرعوا فى بناء حيطان وكرانك وأسوار ، وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة ، وبنوا على بدئات ^(٢) باب العزب بالرميلة ، وغيروا معالمها ، وأبدلوا محاسنها ، ونحو ما كان بها من معالم السلاطين ، وآثار الحكماء والعظماء ^(٣) » .

ج - قتل رسل المماليك :

لاحظ الفرنسيون أن الاتصالات قد نشطت بين رجال الدولة العثمانية فى بلاد الشام وبين رجال الأزهر ، فقبضوا على اثنين من الرسل الذين يعملون

(١) الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٩ .

(٢) بدئات معناها جوانب ، أو حواف ، أو كتل حجرية .

(٣) باب العزب موجود بقلعة الجبل ، وهو يطل على ميدان صلاح الدين ، وكان يعرف باسم باب « السلسلة » أو « باب الاصعبل » ، وله بدئتان ضخمتان ، وقد جدداه الأمير رضوان كتنخدا الجلفى سنة ١٧٤٧ ، ثم أقيم الممر الذى أمامه سنة ١٨٦٨ ، والداخل منه يقابله مسجد أحمد كتنخدا هزبان .

انظر :

دكتور عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٢٢ .

(٤) الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

فى نقل المكاتبات ، وأمروا بإعدامهما ، وبأن يطاف برأسيهما فى شوارع القاهرة ، مهددين متوعدين كل من تسول له نفسه إحضار مكاتبات من الخارج ، أو نقل الردود عليها . يقول الخبرتى فى سياق استعراضه لأحداث ذلك الشهر إن الفرنسيين « قتلوا شخصين وطاقوا برؤوسهما ، وهم ينادون عليهما ويقولون : هذا جزاء من يأتى بمكاتيب من عند المماليك ، ويذهب إليهم بمكاتيب ^(١) » .

الامر بعدم استضافة الأعراب

أصدر الفرنسيون أوامر إلى سكان القاهرة ألا يستضيفوا فى منازلهم أحداً من « الأعراب » ، وبمقتضى هذه الأوامر أيضاً كان على القاهريين أن يخطرأ أغات مستحفظان — أى محافظ القاهرة — بأسماء الراغبين فى السفر ، على ألا يسمح لأحد بالرحيل بدون حصوله على إذن من المحافظ ^(٢) .

الفرنسيون يجهلون ساعة الصفر

وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا يتوقعون نشوب ثورة فى القاهرة ، وكانت بعض مدن الوجه البحرى قد سبقت القاهرة فى القيام على الفرنسيين ، فإنهم كانوا يجهلون تماماً ساعة الصفر . وكان جهلهم بها دليلاً على براعة أعضاء مجلس الثورة ، فإنهم أخفوا التخطيط والتوقيت للثورة ، ولم يتيحوا للسلطات الفرنسية الفرصة لضرب الثورة فى مهدها ، واعتقال زعمائها من

(١) المصدر السابق ، ص ٢١ ، وفى الأوامر الصادرة عن بوناپرت نجد أمراً مؤرخاً فى ٢٧ سبتمبر ١٧٩٨ إلى الجنرال ديبوى حاكم القاهرة العسكرى بقطع رأس جاسوسين ، والطوائف برأسيهما فى شوارع القاهرة .

وثيقة رقم ٣٣٩٢ : — بتاريخ ٦ من شهر فافديير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى فى :

Correspondance de Napoléon, t. V.

(٢) الخبرتى ج ٣ ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢ .

أول لحظة ، ولذلك نجحوا في تجنب الثورة عوامل الفشل الأولى ، وكم من ثورات لم تر النور بسبب تسرب أخبارها قبل قيامها . كان بونابرت قد غادر القاهرة في شروق ذلك اليوم إلى البحيزة والروضة ، وصحب معه بعض كبار القادة ، وكان من بينهم الجنرال كافاريلى Caffarelli قائد سلاح المهندسين ، والجنرال دومارتا Dommartin قائد سلاح المدفعية ، والكولونيل ديتروا Detroye أركان حرب سلاح المهندسين ، وقد قرر بونابرت في مذكراته أنه ذهب لزيارة ترسانة البحيزة ، وأخذت المصادر والمراجع الفرنسية بهذا التفسير أو التبرير ، لتغطية موقفه وموقف زملائه :

عرض سريع لأحداث الثورة

ونمر مروراً سريعاً على أحداث الثورة التي بدأت وفق التخطيط الذي وضعته لجنة الثورة ، ففي الصباح الباكر من يوم الأحد ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ انطلق رجال الأزهر - شيوخه وطلابه - في شوارع منطقة الأزهر يتنادون إلى الثورة ، ويلهبون مشاعر الأهالي بخطبهم الحماسية ، ويدعونهم إلى الجهاد الديني ضد الفرنسيين ، ويطلبون منهم التجمع في الجامع الأزهر ، وصعد المؤذنون إلى مآذن المساجد يدعون المسلمين إلى المشاركة في حماية الدين بالقيام على الفرنسيين^(١) ، ووقفت النساء على سطوح المنازل ، وعند طيقان البيوت ، يطلقن بأعلى أصواتهن صيحات مدوية ، تعبيراً عن مشاعر الغضب على الفرنسيين ، فكانت أصواتهن تبعث في سكان القاهرة مزيداً من الرغبة في التحرك والانضمام

(١) يقول لاجونكيير : إن تجمعات الجماهير بدأت في الساعة السادسة من صباح يوم الأحد

٢١ أكتوبر .

انظر :

da La Jonquière; ouvr. cit., t. III, p. 279.

إلى ركب الثوار ، وسرعان ما ظهرت في أيدي أفراد الشعب الأسلحة التي كانت محجوبة عن الأنظار ، وغدت منطقة الأزهر تموج بحشود شعبية من الثوار ، حاملين مختلف الأسلحة ، مثل البنادق والرماح والسيوف والنباتات ، وغيرها . ويصف ريبو هذه الحال فيقول : « سادت الحلبة ، واختلطت الأصوات ، وعلت الصيحات : فكان هذا المنظر يبعث الرهبة في نفوس أشجع الأفراد ، ولم يعد هناك شك في أن الثورة قد بدأت ^(١) » ، ويمضي فيقول إن الدين احتشدوا في الجامع الأزهر ، وفي ساحته بلغ عددهم خمسة عشر ألف شخص ، فاض بهم الحماس ، فأقسموا الأيمان على إحراز النصر أو الاستشهاد في سبيل الله .

اتجهت جموع من الثوار إلى دار قاضي القضاة العثماني إبراهيم أدهم أفندي ^(٢) ، وقد وصفه بونابرت بأنه رجل محترم بأخلاقه وصفاته ^(٣) ، ودخل الدار وقد يتكون من عشرين فرداً تقريباً ^(٤) ، وكان على رأس الوفد السيد بدر المقدسي - يقال إنه رجل شامى الأصل من بيت المقدس ^(٥) - وطالب أعضاء الوفد من قاضي القضاة مرافقتهم إلى مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي لمقابلة بونابرت ، والتظلم من التشريعات المسالية ، واستجاب الرجل لرغبتهم ، ولكنه لم يكذب يغادر عتبة داره حتى هالته كثرة الحشود الشعبية ، وانطلقت هتافات الجماهير : « إلى بونابرت » ، « ليذهب القاضي إلى بونابرت » ، وأدرك القاضي أن المسألة

(1) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV. P 167.

(2) يسميه الجبرتي بقمش زاده (ج ٣ ، ص ٤٣) ، وكان يطلق على قاضي القضاة العثماني في مصر : قاضي عسكر أفندي .

(3) انظر التقرير الذي وضعه بونابرت في ٦ من برومير من السنة السابعة من التقويم الجمهوري (٢٧ أكتوبر ١٧٩٨) عن ثورة القاهرة ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا التقرير .

(4) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV. P.156

(5) أحمد حافظ عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٢ .

ليست إبلاغ شكوى إلى بونايرت من تشريعات مالية جائرة ، بل هى أعمق من ذلك بكثير : لأنها ثورة هادرة ، وإن مطالبته بالخروج مع الثوار ليست إلا حيلة لضمه إليهم ابتغاء استدراج شتى الطوائف إلى هذه المسيرة الشعبية ، وتحويلها إلى ثورة عارمة ، وإضفاء طابع رسمى عليها ، يكسبها مزيداً من الأهمية ، فعاد إبراهيم أدهم إلى داره وهجم عليه الثوار ورجوه بالحجارة ، وأوسعوه ضرباً مع أفراد أسرته ، وتسلبت بعض العناصر من الثوار ، ونهبت داره .

مقتل الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة

علم الجنرال ديوى Duryu الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة بأنباء الحشود الشعبية فى منطقة الأزهر ، فأصدر الأمر إلى القوات المرابطة فى بركة الفيل ، برفع الاستعداد إلى الدرجة القصوى ، وقرر الانتقال إلى منطقة الاضطرابات ، فتحرك على رأس كتيبة من الفرسان ، واتجه إلى الموسيقى ، فى طريقه إلى الغورية ، وأراد أن يعرج على بيت القاضى ، وكانت شوارع القاهرة فى القرن الثامن عشر ضيقة قصيرة متعرجة ، وكانت أقرب إلى الأزقة والعطف ، منها إلى الشوارع الفسيحة المستقيمة الطويلة ، التى شاهدت القاهرة بعضاً منها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وقد سهل على الثوار الإحاطة بالجنرال ديوى فى مثل هذه الشوارع الضيقة ، وقطعوا الطريق عليه ، وأمطروه هو وفرسانه وإبلا من الأحجار . وفى هذا الوقت جاء برتلسمى اليونانى — أو فرط الرمان — فى كوكبة من رجاله ، وأطلق عياراً نارياً قتل أحد الثوار ، فازداد هياجهم ، واسترخصوا الموت فى سبيل النيل من الفرنسيين ، وأصابوا الجنرال ديوى بطعنة رمح فى ثديه الأيسر ، قطعت

شريانه ، وأخفقت المحاولات التي بذلها لارى Larrey كبير الجراحين في الجيش لإنقاذ حياته ، ففاضت روحه بعد ثماني دقائق من إصابته^(١) ومن المسائل التي تلفت نظر الباحث أن بونابرت تجنب أن يذكر اسم برتلى اليوناني ، وذلك في التقرير الذي وضعه ورفعته إلى حكومة الديركتوار عن ثورة القاهرة ، كما تحاشى في ذات التقرير أن يذكر الوظيفة التي كان يشغلها ، وعمد أيضاً إلى تبرير فعلة هذا اليوناني القبيح^(٢) :

الثوار يهاجمون دار قائد سلاح المهندسين

انتشر بسرعة نبأ مصرع ديبوى ، وزادت حماسة الثوار ، واعتقدوا أنهم — وقد قتلوا حاكم القاهرة — فقد غداً أمراً ميسوراً قتل سائر القواد والجنود بعد هذا النصر الذي أحرزته الثورة في جولاتها الأولى ، ولم يكن الجنرال ديبوى هو الضحية الوحيدة ، فقد قرر الكولونيل ديتروا أن الثوار قتلوا عدداً

(١) كان مقتل الجنرال ديبوى على هذا النحو مدعاة لأن يرميه الجنرال برتية رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسي بالرعونة والاندفاع ، دون اتخاذ احتياطات كافية . انظر خطابين أرسلهما الجنرال برتية : الأول بتاريخ ٢١ أكتوبر إلى الجنرال مينوفى رشيد ، والثاني بتاريخ ٢٣ أكتوبر إلى الجنرال دجوا Dugua في المنصورة

La Jonquière, ouvr. cit., t. III, pp. 285 - 286.

(٢) جاء في تقرير بونابرت عن هذه الواقعة ما يلي :

« Un chef de bataillon turc, attaché à la police, qui venait deux cents pas derrière, voyant le tumulte et l'impossibilité de le faire cesser par la douceur, tira un coup de tromblon. La populace devint furieuse. »

ومعنى هذه العبارة أن قائد كتيبة تركية ملاحق بقوة الشرطة كان يقف على مسافة مائتي خطوة خلف ديبوى ، وأن هذا القائد رأى حوادث الشعب ، واستحال عليه تهدئة الموقف بالحسن ، فأطلق عياراً نارياً ، الأمر الذي أثار غضب الجماهير ، وجعلها في حالة هياج شديد عاصف . ووضح من عبارة بونابرت أنه تجنب ذكر اسم برتلى ، وتحاشى اسم الوظيفة التي كان يشغلها ، وهى كتيخدا مستحقطان ، أى وكيل محافظة القاهرة ، ولم يذكر أنه يوناني ، ولم يذكر أن تهوره كان سبباً في ازدياد هياج الشعب ، وقتل الجنرال ديبوى .

كثيراً من الجنود الذين كانوا في كتيبة الجنرال القليل ، ويقول بوناپرت إن زعماء الثورة قد عملوا بعد مقتل ديبوى على زيادة إشعال العاطفة الدينية في نفوس سكان القاهرة ، فأطلقوا شائعات تقول إن الفرنسيين كشفوا عن وجوههم ، وظهروا على حقيقتهم أعداء للإسلام ، وأنهم يذبحون المسلمين ، وصعد المؤذنون مرة أخرى إلى منارات مساجد القاهرة ، يطلبون من المسلمين حماية مساجدهم .^(١)

كانت جموع الثوار تتمثل إلى ذلك الوقت في الأزهرين رجال الصف الثاني من المشايخ علماء الأزهر والمجاورين ، وهم طلبة الأزهر ، وأئمة المساجد ومؤذنيها ، والدراويش والطبقات الدنيا من العامة ، ويطلق عليهم الحرافيش ، والزعر ، والمغاربة ، ووقف بجانب هؤلاء وأولئك التجار ، والصناع والحرفيون ، ثم انضمت إلى الثوار بعد هذا النصر الأول العناصر الهادئة ، واقتحموا حي الأروام ، وقتلوا الرجال ، واتجهوا إلى دار الجنرال كافاريلي قائد سلاح المهندسين ، وكان يسكن دار مصطفى كاشف بالدرب الأحمر ، وقد ذكره بوناپرت في مذكراته باسم الجنرال دى فالجا^(٢) de Falga نسبة إلى مسقط رأسه ، وكان سكان القاهرة يسمون هذا الضابط مقتاً شديداً ،

(1) Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I. p. 249 .

(٢) اسم هذا القائد ماكسيميليان كافاريلي دى فالجا Maximilien Caffarelli de Falga وتقع فالجا في الخوض الأعلى لنهر الجارون ، وهو من أسرة إيطالية نزحت إلى فرنسا على عهد لويس الثالث عشر (١٦١٠ - ١٦٤٣) ، ويسميه الجبرقى « كفرلى المسمى بأبى خشبة » ، لأنه جاء إلى مصر بقدوم طليعية واحدة ، وأخرى خشبية بعد أن فقد القدم الأخرى في حصار ماينز Mayence سنة ١٧٩٥ ، وقد قتل في حصار عكا في ربيع ١٧٩٩ عن ثلاثة وأربعين عاماً (١٧٥٦ - ١٧٩٩) ، وقد نعاه بوناپرت إلى كليبر وإلى حكومة الديركتوار (انظر =

لأنه هو الذى باشر هدم بعض المساجد والمقابر ، وانتراع أبواب الحارات ، واقتحم الثوار داره ، ولكنه لم يكن موجوداً بها ، إذ كان قد صحب بونابرت فى ذلك اليوم إلى الحيزة والروضة ، وكان غيابه عن داره سبباً فى نجاحه من موت محقق . فأعمل الثوار القتل فى عدد من العلماء كانوا موجودين فى داره ، ويذكر بونابرت أنهم كانوا خمسة أو ستة أشخاص ، وأن الثوار علقوا رؤوسهم على باب الجامع الأزهر^(١) . وحطم الثوار الأجهزة العلمية التى وجدوها فى الدار ، فكانت خسارة كبيرة نزلت بالعلم^(٢) . يقول الجبرنى : « وكان بتلك الدار شئ كثير من آلات الصنائع والنظارات الغربية والآلات الفلكية والهندسية ، والعلوم الرياضية ، وغير ذلك مما هو معدوم النظير ، كل آلة لاقيمة لها عند من يعرف صنعها ومنفعتها^(٣) ، فبدد ذلك كله العامة وكسروه قطعاً ، وصعب ذلك على الفرنسيين جداً ، وقاموا مدة طويلة

= مراسلات نابليون ، ج ٥

الوثيقة رقم ٤١١٠ بتاريخ ٨ من شهر فلوريال Floréal من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٧ من أبريل ١٧٩٩) والوثيقة رقم ٤١٢٤ بتاريخ ٢١ من شهر فلوريال (١٠ من مايو ١٧٩٩) على التوالى . وعلى الرغم من أنه كان موضع تندر جنود الحملة ، لأنه كان ذا قدم خشبية ، إلا أنه كان من أكفأ قواد الحملة ، وأغزرهم علماً ، وأوفرهم نشاطاً .

(1) Napoléon 1^{er} ; Guerre d'Orient., etc., ouvr. cit., t. I., p. 249.

وكان من بين القتلى فى دار قائد سلاح المهندسين :

تيغنو Thevenot } وهما من مهندسى القناطر والجسور .
دوفال Duval }

تستيفيود Testevuide } كبير المهندسين الجغرافيين ، وكان فى طريقه إلى دار قائد سلاح المهندسين ، فقتله الثوار فى الطريق .

روسل Roussel }
مانجما Mangin } جراحان
دوبريه Duperrès } رسام .

(٢) انظر تفصيلات عن هجوم الثوار على دار قائد سلاح المهندسين فى :

La Jonquière; ouvr. cit., t. III, pp. 282-283.

(٣) وردت فى النص الأصل فى كتاب الجبرنى على هذه الصورة ، وهذا خطأ مطبعي ، وصحة العبارة : كل آلة لاقيمة لها عند من لا يعرف صنعها ومنفعتها .

يفحصون عن تلك الآلات ، ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجمالات » ، وقد
أسرعت قوة من الجيش الفرنسى من القلعة إلى دار قائد سلاح المهندسين ،
وحاصرت الدار ، وأطلقت النار على الثوار المزدحمين بالبواب الخارجى ، ثم
دخل الجنود الدار « وقتلوا من وجدوه بها من المسلمين ، وكانوا جملة كثيرة^(١) ،
..... وكان من بين القتلى الشيخ محمد الزهار » .

الثوار يهاجمون الجنود

وكان عدد من الجنود الفرنسيين يسرون فى شوارع القاهرة ولا يحملون
أسلحة ، وفوجئوا بالثورة ، فنال الثوار منهم منبأ عظيماً . وكان
من عادة الجنود الفرنسيين التجول فى شوارع القاهرة ، دون أن يحملوا معهم
سلاحاً . وقد لاحظ اثنان من المعاصرين للحملة هذه الظاهرة ، فقد قرر المعلم
نقولا ترك وهويتكلم عن الفرنسيين فى اليوم الأول للثورة ، أنهم كانوا يتجولون
بدون أسلحة فى شوارع القاهرة ، ولم يقفوا على حقيقة الموقف ، لأنهم كانوا
يجهلون اللغة العربية ، مما أدى إلى قتل عدد كبير منهم^(٢) . أما الجبرى فقد
ذكر أن الفرنسيين منذ أول يوم دخلوا فيه القاهرة « مشوا فى الأسواق بغير
سلاح ولا تعديل ، بل صاروا يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون إليه
بأعلى ثمن^(٣) » ، وكانت هوايتهم المفضلة ركوب الحمير ، وقضاء ساعات طويلة
على ظهورها ، وسوقها سوقاً عنيفاً ، « وهم يغنون ويضحكون ويصيحون

(١) الجبرى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٣١ .

(٢) نقولا ترك ، مرجع سبق ذكره ص ٢٩ النص العربى ، نشر الأستاذ فحيت .

(٣) الجبرى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١١ .

ويتمسحون» ^(١) ، حتى قال فيهم الشيخ حسن العطار الذي عين فيما بعد شيخاً للأزهر :

إن الفرنسيين قد ضاعت دراهمهم في مصرنا بين حمار وخمار
وعن قريب لهم في الشام مهلكة يضع لهم فيها آجال أعمار
وكان بعض الفرنسيين المدنيين قد أقاموا عدداً من المطاعم والمقاهي ،
وأماكن اللهو في أطراف القاهرة ، فأصبحوا صيداً ثميناً للثوار ، قتلوهم ،
ونهبوا دورهم . وسيطر الثوار على القاهرة كلها ، باستثناء ميدان الأزبكية ،
وقلعة الجبل ، وبركة الفيل ، حيث كانت ترابط معظم القوات ، وانقطع
الاتصال بين هذه المراكز الرئيسية الثلاثة . وانطلق الثوار يهاجمون دوريات
الجنود من كل مكان ، وتركت جثث الفرنسيين في الشوارع ^(٢) . وكان الجنود
يضطرون في معظم الأحوال إلى التراجع ، ووزع الثوار أنفسهم إلى مجموعات
هاجمت مواقع المخافر الفرنسية ، وفتكوا بحراسها . وازداد الثوار ثقة
بأنفسهم ، وغدا مركز الفرنسيين حرجاً للغاية .

(١) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٢) كان الشيخ حسن العطار أحد علماء الأزهر ، ولما جاءت الحملة الفرنسية أثر الهجرة
إلى الصعيد ، ولكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة ، واتصل عن كثب ببعض علماء الحملة ، وقدر
فيهم تفوقهم العلمي ، وسافر إلى بلاد الشام والأناضول . ولما رجع إلى مصر اشتغل بالتدريس
في الأزهر ، وكانت الخلق التي يتصدرها في الأزهر تزدهم بالطلاب ، يستمعون إلى دروسه
في التفسير ، ثم عين شيخاً للأزهر ، خلفاً للشيخ أحمد الدمهورى سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م) .

انظر ترجمته في :

على مبارك : الحطط التوفيقية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ٣٨ - ٤٠ ، وتجسد
أيضاً بعض ملامح لشخصيته من الترجمة التي وضعها الجبرق لصديقه اسماعيل الخشاب في وفيات
سنة ١٢٣٠ هـ ، وقد توفي الأخير في ٢ من ذى الحجة ١٢٣٠ (٥ من نوفمبر ١٨١٥) .

انظر :

الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ٢٣٨ - ٢٤١ .

(3) La Jonquière, ouvr. cit., t. III, p. 279,

استدعاء بونايرت

أرسل الجنرال جونو Junot رسولا إلى بونايرت يخطر به اندلاع الثورة ، فعاد إلى القاهرة مسرعا ، وأراد أن يدخلها مع رفاقه من ناحية مصر القديمة ، فاستحال عليهم دخولها ، لأن الثوار أمطروهم وابلا من الأحجار ، فاتجهوا إلى بولاق ، ومنها دخلوا القاهرة ، ووصلوا إلى مقر القيادة العامة للجيش في الأزبكية . ووجد بونايرت أن لهيب الثورة قد عم أنحاء القاهرة ، وعلم أن الجامع الأزهر هو مركز الثورة ، وأن الثوار أقاموا المتاريس والحواجز في الطرقات والأزقة المؤدية إلى الجامع الأزهر ، وأنه غدا من المتعذر أن يقتحمه الجنود ، سواء كانوا مشاة أو فرسانا^(١) .

اتخذ بونايرت إجراءات سريعة لمواجهة الموقف الذي كان يتطور لمصلحة الثوار ، فعين الجنرال بون Bon حاكما عسكريا لمنطقة القاهرة خلفا للجنرال دييوى القليل ، وأصدر أمرا إلى الجنرال دومارتا قائد سلاح المدفعية بنصب المدافع على جبل المقطم ، وتعزيز مدفعية القاعة . وأصدر أوامرا متتالية إلى قادة الجيش بالتحرك إلى عدة مواقع في القاهرة^(٢) . وتحركت كتائب إلى أحياء القاهرة المتطرفة ، وهناك أطلق جنودها النار على الأهالي ، فردوا عليهم بالمثل . وكانت الطلقات تسمع في كل مكان ، بين الثوار من ناحية ، وبين الفرنسيين ومن انضم إليهم من الأجانب الذين استوطنوا القاهرة من ناحية أخرى .

(1) Op. cit., p. 280.

(٢) انظر على سبيل المثال الوثائق ذات الأرقام التالية ، ٣٥٢٠ ، ٣٥٢١ ، ٣٥٢٣ ، وكلها تحمل تاريخا واحدا هو ٣٠ من شهر فاندليمير من السنة السابعة من التقويم الجمهوري (٢١ من أكتوبر ١٧٩٨)

الأزهر مركز الثورة

نقل رجال المخابرات العسكرية الفرنسية إلى الجنرال بون أن الجامع الأزهر هو موئل زعماء الثورة ، وأنه يضم خمسة عشر ألف تائر ، يربطون في داخله ، وفي ساحته الخارجية ، وفي الأزقة الملاصقة له ، والجهات المجاورة له ، مثل الصناديق ، وبيت القاضي ، والجمالية ، والنحاسين ، والغورية ، فأرسل إلى بونايرت التقرير الحربي الموجز الآتي :

٣٠ فاندبير ، الساعة ١٠ مساء .

« إن مركز الثورة لا يزال في حي العرب ، حيث يوجد أكبر جامع — الأزهر — ، وقد أقام الثوار متاريس صغيرة في جميع الشوارع المؤدية إليه . وهذه الشوارع ليست مضاعة على الإطلاق ، وقد تعرضت دورياتنا لطلقات الرصاص برهة . والمعتقد أن هذه الحشود التي تتخذ من هذا الحي مكاناً للتجمع ، لن تتفرق غداً في الصباح ، وأرى في هذه الحالة أن تأمروا باتخاذ إجراءات عنيفة جداً^(١) :

(١) لم يرد هذا التقرير الحربي في مجموعة مراسلات بونايرت ، ولكن أورد نصه لاجونكيير

“Le foyer de la révolte existe toujours dans le quartier des arabes, où se trouve la plus grande mosquée. Les insurgés ont élevé des petites barricades dans toutes les rues qui aboutissent à ce point. Ces rues ne sont point éclairées. Il n'y a qu'un instant que nos patrouilles y ont été fusillées. Il est à croire que les attouchements, dont ce quartier est le point de ralliement, ne seront point dissipés demain au jour. Je pense que, dans ce cas, vous ordonnerez des mesures très sévères.”

انظر :

La Jonquière ; ouvr. cit., t. III, p. 280,

وكان الفرنسيون قد أمضوا سخابة النهار وزلفاً من الليل في إقامة المدافع على ربي المقطم ، وفي تعزيز مدفعية القلعة ، وانتقل الجنرال دومارتا ليلاً إلى هاتين المنطقتين ، واختار المواقع التي تنصب عليها المدافع الجديدة . وأصدر إليه رئيس هيئة أركان حرب الجيش أمراً في منتصف الليل (٢١-٢٢ أكتوبر) بأن يضع بطاريات قوية من المدفعية على المرتفعات الواقعة بين القبة والقلعة ، وكانت هذه المرتفعات تتسلط على منطقة الأزهر^(١) ، أما الثوار فقد اهتموا بتعزيز مواقعهم بإقامة مزيد من المتاريس ، والحصول على أسلحة ، وأرسلوا في المساء رسلاً إلى البلاد المجاورة للقاهرة ، يطلبون من سكانها الحضور إلى العاصمة ، والانضمام إلى الثورة . وكانت أحاديثهم تدور حول ضرورة الانتصار للدين الإسلامي الذي يهدده الفرنسيون . ولقيت دعوة لجنة الثورة استجابة فورية من السكان . وأقبل بعضهم في ظلمة الليل ، والبعض الآخر مع خيوط الفجر إلى القاهرة ، يحملون البنادق والرماح ، والسيوف والعصى . وكان الثوار لا يزالون يسيطرون على بوابات القاهرة ففتحوها لهم . وعلى هذه الصورة انقضى اليوم الأول بليله ، والفريقان يتأهبان لاستئناف القتال في اليوم التالي .

الثورة في يومها الثاني

وفي صباح اليوم التالي ، وهو الاثنين ٢٢ من أكتوبر ، نقل رجال المخابرات العسكرية إلى بونا برت أن المصريين يتدفقون على العاصمة من البلاد المجاورة لها ،

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٠ ، الهامش رقم ١ .

وانظر أيضا :

التقرير الذي أرسله بونا برت إلى حكومة الديركتوار عن الثورة بتاريخ ٦ من شهر برومير من السنة السابعة من التقويم الجمهوري (٢٧ أكتوبر ١٧٩٨) ، والذي سبقت الإشارة إليه في هذه الدراسة .

وينضمون إلى الثوار ، فوجه بعض قواته إلى أطراف المدينة لمنع دخول أحد من خارجها . ونجحت القوات الفرنسية في صد حشود كثيرة من الأهالي كانوا في طريقهم إلى القاهرة في ضحى هذا اليوم ، وبذلك استطاع بونايرت حصر الثورة في القاهرة ، وعزل ثوارها عن باقي سكان القطر . وكان الأهالي الذين استطاعوا دخولها هم الذين جاءوها ليلاً أو فجراً ، ومع ذلك قتل الثوار شخصية عسكرية كبيرة هو الكولونيل سلكوسكى Sulkowski ياور بونايرت ، وكان قد خرج في الصباح في شذمة من حرس القائد العام إلى طريق بلبس ، لمنع وصول الأهالي إلى القاهرة ، وبينما كان عائداً إلى العاصمة ، تلقاه ثوار القاهرة عند باب النصر ، والتحموا معه في معركة بالأسلح الأبيض وقتلوه ، ويقرر بونايرت في تقريره عن الثورة أن نجاح الثوار في قتله يرجع إلى عاملين : أن جواده كبا به وطرحه أرضاً ، وأن هذا الضابط كان لا يزال يشكو من جراح أصابته في الصالحية . وقد قتل الثوار تسعة من الحراس الخمسة عشر المرافقين له ، وقد حزن بونايرت عليه حزناً شديداً^(١) . وأدرك ثوار القاهرة أن سلاح المدفعية هو السلاح المفضل لدى الفرنسيين ، وأن هذا السلاح هو الذى كفّل لهم الانتصار في المعارك التى خاضوها ضد المماليك والمصريين ، ولذلك اتجهت جهود الثوار إلى كسر حدة هذا السلاح ، فخرجت جموع منهم قدرها بونايرت في مذكراته بين سبعة آلاف وثمانية آلاف من باب الفتوح ، واتجهت إلى المرتفعات التى نصبت عليها المدافع ، فصدهم الفرنسيون .

(١) كان هذا الضابط بولوني الأصل ، ينحدر من أسرة عريقة ، وكان مناضلاً عسكرياً من أجل تحرير وطنه الأصل تحت لواء كوشيسكو Kosciuszko Thadée (١٧٤٦ - ١٨١٧) بطل بولندا ، ولما لقي الهزيمة أمام الجيش الروسى تطوع سلكوسكى في الجيش الفرنسى ، وكان مثالياً ، تغلب عليه المبادئ الراديكالية ، وقد عينه بونايرت ياوراً له تقديراً لكفائته ، كما عينه عضواً في شعبة الإقتصاد السياسى في مجمع معبر العلمى .

وصعد فريق من الثوار إلى سطح مسجد السلطان حسن ومناراته لضرب
الفرنسيين المرابطين في القلعة ، والقابعين وراء مدفعيتهم الثقيلة ، فأخفقت
محاولتهم .

وكانت كتيبة فرنسية تضم قوة من الفرسان ومدفعين ، ترابط عند مدخل
حارة تؤدي إلى ميدان الأذربكية ، وأدرك الثوار عيث الهجوم عليها هجوماً
مباشراً ، فتسلقوا المنازل المجاورة ، واحتلوا مسجداً صغيراً يشرف على موقع
الكتيبة ، وأمطروها بوابل من بنادقهم ، وتكبد الفرنسيون خسائر في أفراد
الكتيبة ، ولكن سرعان ما خفت نجدة فرنسية واقتحمت المسجد ، وقتلت
جميع الثوار المعتمدين به ، ثم قصفت المدفعية المسجد حتى انهارت دعائمه .

الثوار يرفضون وساطة أعضاء الديوان

وفي ضحى هذا اليوم سعى مشايخ الأزهر أعضاء الديوان لمقابلة بونايرت
والتمسوا منه إصدار الأمر بوقف القتال . وكانت مقابلته لهم فاترة جافة ،
حملهم مسئولية ما حدث ، وتظاهر برغبته في وقف القتال ، ولكنه طلب منهم
أن يتصلوا بزعماء الثورة في الأزهر لإلقاء السلاح كشرط أساسي للتوقف عن
ضرب المدينة . ولما ذهب أعضاء الديوان إلى الأزهر رفض الثوار أن يسمحوا
لهم بدخول الجامع ، أو حتى تخطى المتاريس المقامة في مداخل الشوارع
والأزقة المؤدية إلى الجامع . وفشلت وساطتهم ، ومع ذلك أمسك علماء
الأزهر عن إبلاغ بونايرت بالإخفاق الذي انتهى إليه مسعاهم . واعتقد
زعماء الثورة أن السفارة التي قام بها علماء الأزهر أعضاء الديوان لديهم ،
قد تمت بإيعاز من بونايرت ، وبنوا على هذا الاعتقاد أفكاراً وآراء روجوا
لها بين الثوار ، فأذاعوا أن المركز الحربي للفرنسيين يتدهور سريعاً ، ومن ثم
أوعز بونايرت إلى علماء الأزهر ببذل وساطتهم لوقف القتال ، وتلقف الثوار

هذا الرأى على أنه حقيقة لامراء فيها ، وغلب عليهم الحماس ، وأخذوا يتكلمون عن مسيرة ثورية كبرى ، تتحرك من داخل الجامع الأزهر إلى مواقع الفرنسيين في القاهرة ، ويقوم الثوار بذبحهم جميعاً ، ضباطاً وجنوداً^(١).

لم تدم هذه الآمال طويلاً ، كان بونابرت قد علم بما لقيه أعضاء الديوان من الثوار ، وأدرك أنه لا مناص من استخدام أقصى وسائل العنف لسحق الثورة . واستمر القتال يدور بين الفريقين بضراوة بالغة ، ولكن أخذت كفة الفرنسيين ترجح ، كلما مضت ساعات النهار ، إذ كانوا يمثلون جيشاً نظامياً ، مدرباً على أحدث أساليب القتال ، ومزوداً بالأسلحة والعتاد ، بينما كان الثوار أخلاقاً شتى من الرجال ، لأن جمعهم وحدة العقيدة الدينية ، وغلبت عليهم الشجاعة والفداية ، إلا أنهم كانت تعوزهم الأسلحة والذخائر ، وكان ينقصهم التدريب والمران ، ولذلك تغلبت القوات الفرنسية على الثوار في معظم أحياء القاهرة ، وظلت الثورة مشتعلة في حى الأزهر ، وأرسل الجنرال بون الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة تقريراً حريماً إلى بونابرت ، يشير عليه باتخاذ وسائل عنيفة للقضاء على الثوار المحتشدين في حى الأزهر ، واقترح عليه توجيه القوات للزحف على الجامع الأزهر من جميع الجهات التى تؤدى إليه ، وهذا هو التقرير الحربى ، وهو مؤرخ في أول برومير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٢ من أكتوبر) :

« إن الدوريات التى قامت في فجر اليوم باستطلاع الجامع الكبير (الأزهر) أبلغتني أن الهدوء يسود هذا الحى ، ولكن دوريات لاحقة وصلت الآن ، أخبرتني عكس ذلك ، ومن الضرورى ، أيها المواطن الجنرال ، اتخاذ إجراءات عنيفة ، لتشيت الجموع المسلحة التى تتجمع في هذا الحى ، إلى في انتظار

(1) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit. t. IV, p. 176.

أوامركم ، ومن رأي أن توجه قوات تزحف على هذا المسجد ، ولكن من الأفضل أن نحمل عليه — بواسطة تحركات مشتركة — من جميع النواحي التي تؤدي إلى الجامع^(١) ؟

بونابرت يأمر بقصف الجامع الأزهر بالمدفعية

أخذ بونابرت باقتراح الجنرال بون ، فأصدر في ذات اليوم إلى الجنرال برتيسه رئيس أركان حرب الجيش أمراً عسكرياً تضمن سرعة اتخاذ أعنف الوسائل لسحق الثورة ، من قصف الجامع بالمدفعية ، وقتل الثوار ، وإحراق المنازل ، واحتلال الجامع بالجنود ، إلى غير ذلك من إجراءات ، وقد أبلغ رئيس أركان حرب الجيش هذا الأمر في الساعة الثانية بعد الظهر إلى الجنرال بون لتنفيذه فوراً ، وهذا هو نص الأمر :

« عهد إلى القائد العام بأن أبلغكم ، أيها المواطن القائد ، بأن تهاجموا بصفة عاجلة جداً الحي التائر ، وأن تضربوا الجامع (الأزهر) بالمدافع ، وأن تضعوا المدافع في أفضل موقع ، ليكون الضرب أشد أثراً .

« أصدروا الأمر إلى الجنرال دومارتا بأن يفعل نفس الشيء ، وأن يستولى على مدخل الأزهر ، والمنازل الرئيسية التي تؤدي إلى الجامع ، وعليكم أن

(1) Les patrouilles qui ont paru à la pointe du jour à la grande mosquée m'avaient fait le rapport que la tranquillité régnait dans ce quartier; mais des patrouilles postérieures qui viennent de rentrer assurent le contraire.... Il serait essentiel, Citoyen Général, de faire des dispositions rigoureuses pour dissiper les rassemblements armés qui se forment dans ce quartier; mandez - moi vos ordres, j'aurais fait marcher des forces sur cette mosquée, mais il sera mieux de s'y porter par des mouvements combinés sur les différents points qui y aboutissent....”

La Jonquière, ouvr. cit., t. III. p. 281, note 2.

تقتحموا الجامع الأزهر بكتائبكم تحت حماية المدفعية ، وعليكم أن تأمروا الجنرال دومارتا بأن يفعل نفس الشيء في نفس اللحظة .

« إن القائد العام يأمر بقتل كل من تلقونه مسلحاً في الشوارع ، وأن يكون القتل بحمد السنك .

« وعليكم أن تعلنوا الأهالي بأن كل منزل تلقى منه أحجار في الشارع يحرق فوراً ، وعليكم أن تعفوا عن بقية المنازل .

« وعليكم أن تقتلوا جميع من في الجامع ، وأن تضعوا فيه حرساً قوياً ، وعليكم أن تحتّموا إنارة المنازل في أثناء الليل .

« وعليكم أن تصدروا أمراً إلى الجنرال دومارتا بأن يضع ، في أثناء الليل وفي فجر الغد ، على المرتفعات التي يحتلها قوات رادعة .

« ولما كانت الساعة الآن الثانية ، فليس أمامكم لحظة واحدة تضيعونها . »

Quartier général, 1^{er} brumaire an VII, 2 heures.
Au Général Bon.

Le Général en chef me charge de vous dire, Citoyen général, qu' il est extrêmement urgent d'attaquer le quartier insurgé; faites bombarder la mosquée; placez les obusiers dans l'endroit le plus favorable pour pouvoir faire le plus d'effet.

Faites passer l'ordre au général Dommartin de faire la même chose et de s'emparer de la porte et des principales maisons qui conduisent à la mosquée. Sous la protection de ce feu, vous ferez entrer vos bataillons. Vous ordonnerez au général Dommartin de faire la même chose au même moment.

Le Général en chef ordonne que vous fassiez passer au fil de l'épée tous ceux que l'on rencontrera dans les rues, armés.

Vous ferez publier que toutes les maisons qui jetteront dans les rues des pierres seront sur - le - champ brûlées, et pardon aux autres.

Exterminez tout ce qui sera dans la mosquée et établissez de fortes patrouilles. Pendant la nuit, exigez que toutes les maisons éclairent.

Vous ordonnerez au général Dommartin que, pendant la nuit et demain à la pointe du jour, il y ait sur les hauteurs qu'il occupe des forces imposantes.

Comme il est deux heures, il n'y a pas un instant à perdre.”^(١)

قصف الأزهر بالمدفعية

وفقد هذا الأمر الحربي تنفيذاً صارماً ، وأخذت مدفعية القلعة ومدفعية المقطم ، وسائر بطاريات المدفعية المقامة على المرتفعات تقصف حتى الأزهر قصفاً مركزاً متواصلاً .^(٢) ورغبة في التنكيل بالثوار ، بحيث يأتيهم الموت من كل مكان ، ولا يكون أمامهم طريق للنجاة بأنفسهم من الموت المحقق ، احتلت كتائب من الجنود الدروب والطرق المؤدية إلى الجامع ، وبذلك تحصر القوات الفرنسية الثوار في الأزهر بين نارين : قذائف المدفعية ، وطلقات البنادق .^(٣) فإذا نجا الثوار من قذائف المدفعية ، فإنهم ملاقون الموت من طلقات بنادق الجنود المشاة ، وسرعان ما أصبح الجامع الأزهر وماحقاته ، وشارع الغورية ، وشارع الصنادقية ، أهدافاً لمدفعية الفرنسيين ، وأحدثت القذائف ثقباً في جدران المسجد ، حتى أوشك أن يتداعى من شدة الضرب ، ولم يكن يشاهد في منطقة الأزهر إلا مبان محترقة ، ودور متهارة ، وقد دفنت عائلات

(١) الوثيقة رقم ٣٥٢٤ في الجزء الخامس من

Correspondance de Napoléon.

(٢) يقول ريبو إن قصف المدفعية للأزهر ومنطقته بدأ في الساعة الرابعة من بعد الظهر .

انظر :

Reybaud Louis et autres ; ouvr. cit., t. IV, p. 177.

(٣) Loc. cit.

بأكملها تحت الانقراض ، وكان يسمع لأفرادها أنين موجه ، وأصوات خافتة تنبعث من تحت الانقراض^(١) .

ويقول الجبرقي عن قصف المدفعية للأزهر : « إن الفرنسيين ضربوا بالمدافع والبنبات^(٢) على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وجرروا عليه المدافع والقنبر^(٣) ، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين ، كسوق الغورية والفحامين ، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا في عمرهم عاينوه ، نادوا يا سلام من هذه الآلام ، يا خني الألفاف ، نجنا مما نخاف ، وهربوا من كل سوق ، ودخلوا في الشقوق ، وتتابع الرمي من القلعة والكيان حتى تزعزت الأركان ، وهدمت في مرورها حيطان الدور ، وسقطت في بعض القصور ، ونزلت في البيوت والوكائل ، وأصحت الآذان بصوتها الهائل^(٤) » .

نفاد الذخيرة من الثوار

وأمام هذا القصف المركز ، تزعزت جهة الثوار في منطقة الأزهر ، وأيقنوا أنه لا أمل لهم في مواصلة النضال ، وقد نفذت منهم الذخيرة ، وازداد عدد قتلهم زيادة رهيبة ، فطلب البقية الباقية منهم التسليم . ويقرر الجبرقي بصريح العبارة أن نفاد الذخيرة من الثوار حملهم على طلب التسليم ، وكان قد مضى ما يقرب من ثلاث ساعات بعد أن سجد الليل^(٥) . يقول الجبرقي في هذا

(1) Loc. cit.

(٢) مفردتها بنبة ، ومعناها قنبلة .

(٣) القنبر ، وتكتب أيضا قنابر ، بمعنى القنابل .

(٤) الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

(٥) هذا الموعد الذي حدده الجبرقي يقرب من الموعد الذي ذكره مارتن Martin من أن الضرب انتهى في الساعة الثامنة مساء ، وإذا علمنا أن غروب الشمس في العشر الأواخر من شهر أكتوبر يكون في حوالي الساعة الخامسة والنصف ، كان معنى ذلك أن توقف القتال قد تم في حوالي الساعة الثامنة والنصف مساء ، أما ريبو Reybaud فيقول إن الضرب قد توقف في الساعة السادسة مساء ، ونحن نأخذ بالرأي الأول .

الصدد : « وأما أهل الحسينية ، والعطوف البرانية ، فانهم لم يزالوا مستمرين ، وعلى الرمي والقتال ملازمين ، ولكن خانهم المقصود ، وفرغ منهم البارود ، والإفرنج أنخنوهم بالرعي المتتابع بالقنابر والمدافع ، إلى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات ، وفرغت من عندهم الأدوات ، فعجزوا عن ذلك ، وانصرفوا ^(١) » .

فظائع الفرنسيين داخل الأزهر

وعندئذ تقدم الجنود الفرنسيون إلى مواقع المتاريس ، ورفعوها من الدروب والشوارع ، والأزقة المؤدية إلى الجامع الأزهر ، واقتحموه مشاة وفرساناً ، اقتحام الضواري ، وأعملوا القتل في بقايا الثوار الذين كانوا معتصمين داخل الجامع .

واتسمت أعمال الجنود بطابعين : هما الانتقام ، ثم النهب والسلب ، أما الانتقام ، ففضلاً عن المذبحة التي ارتكبوها داخل الأزهر ، ربط الجنود خيولهم في قبلة المسجد ، وأخذوا يبولون ، ويقضون حاجتهم في شق أرجاء الجامع ، وألقوا بالمصاحف على الأرض ، وداسوا عليها بأحذيتهم . أما أعمال النهب والسلب فقد كسروا خزائن الطلبة ، ونهبوا ما وجدوه فيها من الأموال والودائع ، ذات القيمة المادية الكبيرة . وكان سبب وجود هذه الثروات في الجامع الأزهر اعتقاد المصريين أن الفرنسيين لا يجرؤون على دخوله ، فحولوا إليه ما غلا ثمنه وخف حمله ، وتركوا هذه الثروات ودائع في خزائن الطلبة ، فوقعت غنيمة باردة في أيدي الجنود . وكانوا في شراحتهم للنهب ينشرون الكتب التي في خزائن الطلبة ، يحدوهم الأمل في أن يجدوا شيئاً ذا قيمة خلف غلاف الكتاب ، ويقول الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الجامع

(١) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

الأزهر إن اليهود انتهزوا الفرصة ، فدخلوا الأزهر في أثر الجنود ، واستولوا على مصاحف نفيسة وكتب قيمة^(١) . ولم يرع الجنود حرمة الجامع ، فقصصوا ليالهم يشربون الشراب : ويصف الخبر في حزيناً المشهد الدامي في تاريخ الأزهر ، وجاءت صياغته لهذا المشهد في أسلوب مسجع ، أخذ عليه وقتسه وتفكيره ، لأن السجع في أسلوب الخبر في قليل نسبياً : « وبعد هجعة من الليل ، دخل الإفرنج المدينة كالسيل ، ومنروا في الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين ، أو جنود إبليس ، وهدموا ما وجدوه من المتاريس ، ودخل طائفة من باب البرقية^(٢) ، ومشوا إلى الغورية ، وكروا ورجعوا ، وترددوا

(١) عبد الله الشرقاوي : تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلطين . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ - ١٨٧٠) ص ٥٥ .

وتوجد في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة عدة طبعات من هذا الكتاب ، نذكر منها : أ طبعة بولاق السابق الإشارة إليها ، والتي نستقي منها المسادة العلمية ، ونشير إليها في هوامش هذه الدراسة ، وتقع في ستين صفحة ، ورقها ١٠٥٢ تاريخ . ب طبعة مصطفى وهبة ١٢٨١ هـ (١٨٦٤ - ١٨٦٥ م) ، وتقع في ٨٢ صفحة ، وتوجد عدة نسخ من هذه الطبعة تحمل أرقام ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٢٩١٠ ، ٢٩١٤ ، ٢٩١٥ ، ٢٠٦٤ تاريخ .

ج المطبعة العثمانية ١٣٠٤ هـ (١٨٨٦ - ١٨٨٧ م) ، وهذه الطبعة تقع في جزمين ، في مجلدين برقم ٢٠٥٢ تاريخ .

د طبعة على هامش كتاب « أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (تأليف محمد عبد المعطى بن أبي الفتح بن أحمد بن عبد الغنى بن علي الإسحاق المنوفي ، بأرقام ٤٧٢ ، ٧٣١ ، ٧٠٩ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ تاريخ ، طبعة سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ - ١٨٨٣ م) .

(٢) كان هذا الباب خارج حارة البرقية التي اختطها جماعة من أهل برقة ، ومكانها الآن الدراسة ، ويقول الأستاذ الدكتور عبد الرحمن زكي إنه كان هناك بابان يعرفان بهذا الاسم ، في سور القاهرة الشرقي : الباب الأول أنشأه جوهر الصقلي سنة ٩٧٠ هـ (٣٥٩ هـ) ، وقد عرف باسم باب الغريب أو بوابة الخلاه ، لوقوعه شرقي جامع الغريب ، وقد هدم هذا الباب سنة ١٩٣٦ ، عند إنشاء مباني الكليات الأزهرية الثلاث ، والباب الثاني أنشأه صلاح الدين سنة ١١٨٤ (٥٦٩ هـ) حينما أراد توسيع القاهرة من الجهة الشرقية ، وهويقع على بعد ١٢٠ متراً من الجهة الشرقية لمباني جامعة الأزهر بالدراسة .

الظفر :

على مبارك : الخطط التوفيقية ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٦ .
دكتور عبد الرحمن زكي : موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩ .

وما هجعوا ، و علموا باليقين أن لادافع لهم ولا كمين ، وتراسلوا لإرساله ،
ركباناً ورجالا ، ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر ، وهم راكبون الخيول ، وبينهم
المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقباته ،
وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن
الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني ،
والقصاع والودائع ، والمخبات بالندواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب
والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا
فيه وتغوطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب ، وكسروا أوانيته ،
وكسروها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه عروه ، ومن ثيابه أخرجه ^(١) .

كان ذلك في ليلة الثلاثاء ٢٢ - ٢٣ من أكتوبر (١٢ - ١٣ من جمادى الأولى
١٢١٣) ، وباتت القاهرة في هذه الليلة الدهماء ، في لجة من الظلام ، ولجة
من الفزع ^(٢) .

فضائح لا يستطيع تبريرها

والباحث المحايد لا يستطيع تبرير أعمال الانتقام التي أقدم عليها الفرنسيون
في الجامع الأزهر . قد يقول البعض إن الجيش الفرنسي كان في صدد إخماد
ثورة عارمة ، قد يمتد لها إلى سائر جهات القطر إذا استطال أمدها ، مما
كان يهدد الوجود الفرنسي في مصر ، فلا تثريب على الجيش إذا استخدم
أقصى وسائل العنف في ضرب مركز الثورة ، وهو الجامع الأزهر . وهذا
القول يبدو في ظاهره سليماً ومنطقياً ، ولكنه في حقيقة الأمر تبرير واه يتهاوى

(١) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر . ج ١ ، القاهرة ،

١٩٥٥ ، الطبعة الرابعة ، ص ٢٨٧ .

وبصير إلى هباء أمان النقد الموضوعى . إن المصاحف ليست أهدافاً عسكرية ، حتى يلقي بها الجنود على الأرض ، ويدوسوا عليها دوساً بأحذيتهم ، وكذلك الأعمال المنكرة التى ارتكبتها الفرنسيون فى حماقة داخل الجامع ، دون اكتراث لحرمة الدينية ، ودون مراعاة لمكانته فى نفوس المساجدين . وإن احتلال الجامع الأزهر لم يكن يتطلب ارتكاب مثل هذه المنكرات والحقاقت ، فى أعقاب احتلال الجنود له :

ومما هو جدير بالذكر أن بونابرت — فى تقريره الذى رفعه إلى حكومة السديركتوار — تجنّب أن يشير من قريب أو من بعيد إلى الأفعال المنكرة التى ارتكبتها الجنود داخل الجامع الأزهر ، واكتفى بأن قال : « وبعد أقل من عشرين دقيقة من قصف المدفعية رفعت المتاريس ، وأدخل حى الأزهر ، وأصبح المسجد فى قبضة قواتنا ، وعاد الهدوء تماماً إلى حالته السابقة ^(١) » ، وبونابرت فى هذا التقرير يعمد إلى التهمين من شأن الثورة ، ويختزل المسدة التى استمرت فيها المدفعية تقصف الجامع الأزهر ومنطقته إلى أقل من عشرين دقيقة ، مع أنها استطلت عدة ساعات ، ثم هو يغفل تماماً فظائع الجنود فى داخل الجامع الأزهر ، وهذا الإغفال المتعمد له مغزاه ، فهو لا يريد أن يسجل على نفسه تناقضاً فى سياسته الإسلامية ، ومن ثم أسقط من تقريره الأفعال المنكرة التى ارتكبتها الجنود فى الجامع الأزهر ، فى الوقت الذى حرص على أن ينسب فى تقريره الجنرال ديوبى حاكم القاهرة العسكرى ، والكولونيل سلكوسكى ياوره ، وأن يذكر مناقبهما .

1) "En moins de vingt minutes de bombardement les barricades furent levées, le quartier évacué, la mosquée entre les mains de nos troupes, et la tranquillité fut parfaitement rétablie."

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient.etc., ouvr. cit., t. I, pp. 369-371.

لم ينس المصريون ما وقع للجامع الأزهر على يد الفرنسيين في ثورة القاهرة . وكانت هذه الأفعال السبب الأهم في القطيعة التي وقعت بين الشعب المصرى وبين الفرنسيين ، على الرغم من أن بوناپرت مضى في سياسته الإسلامية بعد إخماد ثورة القاهرة ، ويقول أحد الأساتذة : « وأخيراً تم (الانفصال) بين الفريقين ، لما دخل الفرنسيون الأزهر ، موطن احترامهم ومهبط إيمانهم ، نخبوهم ، وعاثوا فيه فساداً . وعندها تحقق المصريون أن هؤلاء المغيرين شعب آخر من طراز آخر ، غير المماليك أو العثمانيين^(١) . والحق أن الشعب المصرى كان يعلم علماً يقينياً قبل اندلاع الثورة أن الفرنسيين كانوا يختلفون عنه ديناً ولغة وثقافة ، وعادات وتقاليد ، ثم جاءت أفعال الجنود المنكرة في الأزهر ، فجسدت هذه الفروق في أذهان الشعب تجسداً .

بوناپرت يأمر بهدم الأزهر ليلاً إذا أمكن

كان احتلال الجيش الفرنسى للجامع الأزهر ، والآثام التي ارتكبتها الجنود في داخل الجامع عصفاً بالسياسة الإسلامية التي حرص بوناپرت على انتهاجها في حكمه للشعب المصرى ، منذ أول يوم جاء فيه إلى مصر . وفي تقديرنا يعد هذا التصرف أكبر خطأ عسكري وسياسي وقع فيه بوناپرت حيال الشعب المصرى : والسياسي الخفيف هو الذي يستطيع أن يكبح جماح عواطفه وقت الشدائد ، وخلال الأزمات . وقد عجز بوناپرت أن يكون على شاكلة هذا الطراز من رجال السياسة ، في أثناء الثورة والأيام التي أعقبتها . فقد تملكته في هذه الفترة رغبة قوية في الانتقام من الأزهر ، ومن رجال الأزهر ، ومن يلوذ بالأزهر : ولم يقنع بالمحن التي أصابت الأزهر على يديه ،

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي . القاهرة ، ١٩٣٨ ،

بل أصدر أمراً في يوم الثلاثاء ٢٣ أكتوبر بهدم الجامع الأزهر في أثناء الليل وذلك بتحطيم بعض الأعمدة فيه إذا كان ذلك ممكناً ، وتضمن هذا الأمر أيضاً إنشاء نقطة مراقبة قوية في الجامع ، وتنظيم دوريات في الحي ، وهدم المتاريس والأبواب التي قسد الشوارع ، حتى تكون المواصلات مفتوحة بين الأزهر والقلعة ، وسائر مراكز تجمعات الجيش الفرنسي ^(١) .

ومن الصعب تبرير هذا الأمر الحربي الذي أصدره بوناپرت بهدم الجامع الأزهر ، وهذا الأمر مسجل في المجموعة الرئيسية التي حوت أوراق هذا القائد ، ولولا ذلك لكانت الشكوك تثتاب الباحث حول حقيقة هذا الأمر الحربي . وواضح أنه لم يكن هناك ما يتطلب هدم الجامع ، بعد أن احتله الجيش ، ورابط فيه الجنود ، وانتهكوا حرمانه . إن التفسير الذي يمكن أن يساق في هذا الصدد هو أن بوناپرت أدرك من ثورة أكتوبر ، وأكثر من أي وقت مضى ، الدور القيادي البارز الذي كان يضطلع به الأزهر في الحياة المصرية العامة السياسية والدينية ، وأدرك أيضاً من ثورة أكتوبر التضحيات التي جاد بها الأزهريون في سبيل تحرير الشعب المصري من الحكم المسيحي الأوروبي ، وعرف من هذه الثورة كذلك قدرة الأزهرين على تحريك الجماهير ثورياً ودينياً فكان ، وهوفي ذروة غضبه ، أن استقر رأيه على أنه لا أمل يرتجى في إيجاد

(1) Quartier général au Caire, 2 brumaire au VII.

An Général Bon.

Ordre au général Bon de faire jeter à terre, pendant la nuit, la grande mosquée, en brisant quelques colonnes, si cela est possible; de tenir un fort poste dans la mosquée, et de lui faire faire des patrouilles dans le quartier; de maintenir libre la communication à cet effet, de jeter à terre les barrières, portes, etc qui obstrueraient les rues. Il aura soin surtout de maintenir libre sa communication avec le Général Veaux.

انظر :

وثيقة رقم ٣٥٢٦ ، مؤرخة في ٢ من شهر برومير من السنة السابعة من التقويم الجمهوري

(٢٣ من شهر أكتوبر ١٧٩٨) في

Correspondance de Napoléon, t. V .

علاقات سلمية مع الشعب المصرى ، إلا إذا قضى على الأزهر موئل المعارضة للحكم الفرنسى .

بقى أن نذكر أن هدم الأزهر لم يتم ، وبقي صرحه قائماً شامخاً ، يطاول الزمن وجوداً . والتزمت المصادر الفرنسية والعربية الصحة إزاء هذا الأمر الحربى الذى أصدره بونايرت . ولعل بونايرت قد راجع موقفه ، بعد أن هدأت هواجسه قليلاً ، وجذت عوامل خففت إلى حد ما فورة غضبه ، وكان من بين هذه العوامل سعى كبار علماء الأزهر أعضاء الديوان إلى مقابله فى مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى .

مقابلة بونايرت لمشايخ الأزهر أعضاء الديوان

وبعد أن سيطر الفرنسيون على الموقف فى الأزهر ومنطقته ، استقبل بونايرت المشايخ أعضاء الديوان ، وألقى فيهم خطبة طويلة ، جمع فيها بين التقرير واللوم ، وإعلان الصفح عن سكان القاهرة ، وكان مما جاء فى كلمته أنه علم أن موقف معظم المشايخ كان يتسم بالضعف ، ثم قال : إنه يجب أن يعتقد أن أعضاء الديوان لم يشاركوا مشاركة فعالة فى إشعال الثورة ، وكان التعبير الحربى الذى جاء على لسانه : لم يكن أحد منكم مجرمًا ، ثم مضى يقول لهم إن النبى — صلوات الله وسلامه عليه — كان يمحى مقتلاً شديداً لإثارة الفتن ونكران الحميل . وأكد لهم أنه لا يريد أن يمر يوم واحد على مدينة القاهرة دون أن تقام فى مساجدها شعائر الصلاة كالمعتاد . وقال لهم إن الجيش الفرنسى قد استولى على الجامع الأزهر ، وإن الدماء جرت فيه

(١) يقول الجبرقى إن هذه المقابلة تمت يوم الأربعاء ، وكان يوافق ٢٤ أكتوبر ١٧٩٨

(٢) "Je sais que beaucoup de vous ont été faibles, mais j'aime à croire qu'aucun n'est criminel."

أنهاراً ، وطالب منهم أن يذهبوا إلى الجامع ويعملوا على تنظيفه . وأعان أنه يرد لهم المصاحف التي استولى عليها جنود الجيش ، وأنه لا يبغي الانتقام من سكان القاهرة ، وحسبه العدد الكبير من الثوار الذين حصدهم نيران الفرنسيين . وأخيراً طلب بونابرت من أعضاء الديوان أن ينقلوا إلى أهل القاهرة أنه لا يزال رءوفاً بهم ، شفوفاً عليهم ، وأنه عفا عنهم ، وأن ما حدث كان في الكتاب مسطوراً . واستلم المشايخ المصاحف لإعادتها إلى الجامع الأزهر ، حمل كل شيخ مجموعة منها ، وحرص كل شيخ على تقبيل كل مصحف يحمله . وذهب المشايخ إلى الجامع الأزهر ، ودخلته معهم الجماهير ، ورفعوا منه الجثث . وبعد أن تم تنظيفه صعد الشيخ عبد الله الشرقاوى المنبر وخطب في الجماهير ، ونقل إليهم تصريحات بونابرت^(١) .

ويهمنا من كلمة بونابرت ثلاث نقاط ، هي :

(١) إن بونابرت لم يكن مطمئناً إلى إخلاص علماء الأزهر أعضاء الديوان

للفرنسيين .

(٢) إن بونابرت كان لا يزال متمسكاً بسياسته الإسلامية ، على الرغم من قيام سكان القاهرة على الفرنسيين ، وكان من مظاهر هذا التمسك إعلان حرصه على الاستمرار في إقامة الصلاة في المساجد ، وإعادة المصاحف التي نهبا الجيش إلى الجامع الأزهر .

(٣) إن التصريح الذي أدلى به وهو أن الجيش الفرنسي قد استولى على الجامع الأزهر - وهي حقيقة كان يعلمها علماء يقينياً علماء الأزهر - يدل على اعتراف بونابرت بأهمية الاستيلاء على الأزهر ، باعتباره معقل الثورة ،

(1) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. pp. 255-256.

وأنه كان هدفاً عسكرياً رئيسياً من بين جميع العمليات الحربية التي قام بها الجيش للقضاء على الثورة :

وتتفق رواية بونابرت في إطارها العام مع رواية الجبرقي ، إذ يقول : « وأصبح يوم الأربعاء ، فركب فيه المشايخ أجمع ، وذهبوا إلى بيت صاري عسكر ، وقابلوه ، وخاطبوه في العفو ولاطفوه ، واتمسوا منه أماناً كافياً ، وعفواً ينادون به باللغتين شافياً ، لتطمئن بذلك قلوب الرعية ، ويسكن روعهم من هذه الرزية ، فوعدهم وعداً مشوباً بالتسويق ، وطالبهم بالتبيين والتعريف عن تسبب من المتعممين في إثارة العوام ، وحرصهم على الخلاف والقيام ، فخالطوه عن تلك المقاصد ، فقال على لسان الترجمان : نحن نعرفهم بالواحد ، فترجوا عنده في إخراج العسكر من الجامع الأزهر ، فأجابهم لذلك السؤال ، وأمر بإخراجهم في الحال ، وأبقوا منهم السبعين ، أسكنوهم في الخطة كالمضابطين ، ليكونوا للأمور كالراصدين ، وبالأحكام متقنين »^(١) :

ويهمنا من رواية الجبرقي أربع نقاط هامة هي :

(١) إن نية بونابرت كانت مبنية على الانتقام من المحرضين على الثورة ، إذ طلب من المشايخ موافاته بأسماء « المتعممين » الذين أثاروا العامة .

(٢) إن المشايخ رفضوا الإدلاء بأسماء المحرضين :

(٣) إن بونابرت استجاب لالتماس المشايخ بإخراج الجنود من الأزهر :

استجابة فورية ، وصدرت الأوامر بإخراج الجنود في الحال .

(٤) استبقى الفرنسيون قوة من الجنود للطوارئ ، والمحافظة على الأمن

والنظام في منطقة الأزهر ، وكان قوام هذه القوة سبعين فرداً :

(١) الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

رواية المعلم نقولا ترك

ويذكر المعلم نقولا ترك رواية تتعارض مع ما جاء في كل من مذكرات بونايرت ويوميات الجبرقي ، فهو يقول إن بونايرت رفض وساطة المشايخ في إخلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين ، فخرجوا من عنده وأرسلوا له الشيخ محمد الجوهري ، وهو أحد كبار العلماء ، ويصفه بأنه أمضى حياته معتكفاً منصرفاً إلى عبادة الله ، وأنه لم يقابل في حياته حاكماً ، ولم يأخذ رشوة ، أو يقبل هدية من أى حاكم ، وكان الأمراء المماليك أيام سطوتهم يخطبون وده ، ويلتمسون منه الدعاء ، فذهب هذا الشيخ الوقور إلى بونايرت وقال له : إنه لم يلتمس في حياته مقابلة حاكم ، سواء كان عادلاً أو طاغية ، ولكنه جاء إلى بونايرت متوسلاً إليه كي يأمر بإخراج الجنود من الجامع الأزهر ، وقال إذا استجاب بونايرت لرجاء الشيخ ، فإن الشيخ سيقضى حياته شاكراً له هذه المنة ، داعياً له بالتوفيق . « فانشرح منه أمير الجيوش ، وأمر برفع العسكر من الأزهر ، وخامس يوم أطلق المنادى بالأمن والأمان »^(١) .

ومن الصعب الأخذ برواية نقولا ترك عن وساطة الشيخ الجوهري ، فقد كانت تربط هذا الشيخ الوقور بالجبرقي أوثق الصلات العلمية والاجتماعية . وقد ترجم له الجبرقي في وفيات سنة ١٢١٥ (٢٥ مايو ١٨١٠ - ١٣ مايو ١٨٠١) ترجمة ضافية^(٢) ، وذكر مناقبه ، وأشاد بأستاذيته الشائخة ، وعاهو مركزه ، ولكنه لم يشر - لا من قريب ولا من بعيد - إلى وساطته لدى بونايرت . من أجل إخلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين ، وإعادة فتح أبوابه للعلماء والمجاورين . ولو كانت هذه الواقعة صحيحة ، لما تردد الجبرقي في ذكرها بل وفي إبرازها إبرازاً قوياً ، وبخاصة لأن الجبرقي سجل للشيخ الجوهري

(١) مذكرات المعلم نقولا ترك ، نشر الأستاذ فقيت ، ص ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ١٦٤ - ١٦٦ .

مواقف هامة ومشرفة ، تتصل بمشيخة الأزهر . إن كل ما سطره الجبرقى عن حياة الشيخ الجوهري إبان الحكم الفرنسى لا يتعدى هذه العبارات : « ولم يزل وافر الحرمة ، معتقداً عند الخاص والعام ، حتى حضر الفرنساوية واختلت الأمور ، وشارك الناس فى تلقى البلاء ، وذهب ما كان له بأيدى التجار ، ونهب بيته وكتبه التى جمعها ، وتراكت عليه الهموم والأمراض ، وحصل له اختلاط ، ولم يزل حتى توفى يوم الأحد حادى عشرين شهر القعدة سنة تاريخه ، بحارة برجوان ، وصلى عليه بالأزهر فى مشهد حافل ^(١) » :

وهناك واقعة تضعف رواية المعلم نقولا ترك ، وتثير حولها مزيداً من الشكوك ، فقد أذاع علماء الأزهر أعضاء الديوان فى ذات اليوم الذى قابلوا فيه بونابرت ^(٢) بياناً إلى سكان القاهرة ، قرروا فيه أن بونابرت استجاب لشفاعتهم ، وطلبوا من السكان الإخلاء إلى السكينة ، تجنباً لسفك مزيد من الدماء ، وحفظاً لعائلاتهم ، وإبقاء على دينهم ، كما نصحوا أهل القاهرة بالرضا بأمر الله « فإن الله سبحانه وتعالى يوفى ملكه من يشاء ، ويحكم ما يريد والدين النصيحة والسلام ^(٣) » . ولا حاجة بنا إلى القول بأن هذا البيان قد كتب بإيحاء من بونابرت ، شأن كل البيانات التى أذاعها علماء الأزهر أعضاء الديوان ، سواء على عهد بونابرت ، أو كليبر ، أو مينو .

(١) المصدر السابق .

(٢) تاريخ هذا المنشور هو ١٤ من جمادى الأولى ١٢١٣ (الأربعاء ٢٤ من أكتوبر) ، خلافاً لما يذكره الجبرقى من أن تاريخه أول جمادى الآخرة ، وقد أثبت الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بالأدلة المسادية القاطعة خطأ الجبرقى فى ذكر تاريخ هذا المنشور . انظر : عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٣٠٨ . وانظر أيضاً بخصوص ما أثير حول تاريخ هذا المنشور :

La Jonquière, ouvr. cit., t. III, p. 285, note I.

(٣) الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

ويلاحظ أن بعض الذين كتبوا في تاريخ مصر الحديث ، قد أخذوا برواية المعلم نقولا ترك أخذاً حرفياً ، دون أن يناقشوها من جوانبها المختلفة ، وإن مجرد ترديدهم لوساطة الشيخ محمد الجوهري لن يضفي قوة على هذه الواقعة ، التي تظل ضعيفة ، ما لم تقم أسانيد قوية تؤيدها .

ومضى يوم الأربعاء ٢٤ من أكتوبر بجلاء الجنود الفرنسيين عن الجامع الأزهر ، وتنظيفه ، وفتح أبوابه لعلمائه ومجاوريه ، يواصلون في رحابه رسالتهم العلمية والدينية نشرًا وتعليمًا ، ووفد سائر الأهالي إلى جامعهم العتيق يؤدون فيه شعائر الصلاة . وكانت الفرحة تغمر الجميع باستعادة الأزهر بحياته العلمية والدينية ، ودوره القيادي في حياة الأمة .

أما الفرنسيون فقد أمضوا هذا اليوم في إزالة الأحجار التي استخدمها الثوار في إقامة المتاريس . يقول الخبرتي : « ووقف جماعة من الفرنسيين ، ونظفوا مراكز المتاريس ، وأزالوا ما بها من الأتربة والأحجار المتراكمة ، ووضعوها في ناحية ، لتصير طرق المرور خالية ^(١) . وواضح من عبارة الخبرتي أن الفرنسيين استهدفوا من تنظيف الشوارع أغراضاً عسكرية بحتمية لضمان حرية وسرعة تحرك وحدات الجيش في الشوارع المؤدية إلى الجامع الأزهر ، إذا عاد الشعب إلى امتشاق الحسام في وجههم ، وبخاصة لأن الفرنسيين كانوا يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فقد أعلن بونايرت العقوف عن سكان القاهرة ، وأذاع علماء الأزهر على سكان العاصمة البيان

(١) المصدر السابق ص ٢٧ .

الذى أشرنا إليه ^(١) ، وقد استهلوه بهذه العبارة « نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة ^(٢) » ، وقرروا فيه أن الفتنة قد انحسرت وسكنت ، لأن بونابرت « رجل كامل العقل ، عنده رحمة وشفقة على المسلمين ، ومحبة إلى الفقراء والمساكين ، ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة ، ونهبت جميع الأموال ، وقتلوا كامل أهل مصر » . وقد دلت الأحداث التالية على أن بونابرت كان في ذات الوقت يضمم الانتقام الدريع من سكان القاهرة ومن علماء الأزهر بعد أن يخلد الجميع إلى السكينة :

إسراف الفرنسيين في الانتقام من سكان القاهرة

بعد أن نكل الفرنسيون بالثوار في مذحة رهيبة — على حد تعبير الجنرال برتیه رئيس أركان حرب الجيش الفرنسي ^(٣) — ، وبعد أن أعلن بونابرت العفو عن سكان القاهرة ، كان من المتوقع أن تعمل السلطات الفرنسية على إيجاد علاقات ودية ، أو شبه ودية ، مع أفراد الشعب المصرى ، تضميداً لجراحهم . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، بل على العكس أسرف الفرنسيون في الانتقام من سكان القاهرة وضواحيها ، واتسمت أعمالهم بطابع العنف البالغ ، والرغبة في التنكيل والتشفى إلى أبعد الحدود :

(١) كان هذا البيان موجهاً إلى سكان القاهرة فقط ، خلافاً لبيان ثان أذاعه علماء الأزهر ، بتاريخ ٨ من جمادى الآخرة ١٢١٣ (١٧ من نوفمبر ١٧٩٨) ، وكان موجهاً إلى الشعب المصرى ، أو كما جاء في البيان : « نصيحة من علماء الإسلام بمصر المحروسة : نخبركم يا أهل المسدائن والأمصار من المؤمنين ، وبساكن الأرياف من العربان والفلاحين ، أن » .

(٢) مصر المحروسة ، يقصد بها مدينة القاهرة .

(٣) "Nous avons fait un massacre terrible de ces scélérats" (3)

من خطابات أرسله الجنرال برتیه رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى إلى الجنرال دجوا Dugua في ٢٣ من أكتوبر من ١٧٩٨ .

انظر :

La Jonquière; ouvr. cit., t. III, p. 286.

فبعد أن احتل الفرنسيون الجامع الأزهر ، انتشر الجنود في المناطق المجاورة له ، يقتحمون البيوت ، وينهبونها بحجة البحث عن الأسلحة ، ويتعرضون للمارة ، ويصادرون ما يجدونه من مال ، ويقتلون من يبدى أية مقاومة أو اعتراض . واضطر سكان حي الأزهر والمناطق القريبة منه إلى مغادرة بيوتهم : والجبرتي — كأحد سكان شارع الصناديقية القريب من الجامع الأزهر — يبدى أسفه العميق على ما حل بهذه المنطقة على أيدي الفرنسيين ، ويصفها بأنها أشرف البقاع ، فيقول : « وانتهكت حرمة تلك البقعة ، بعد أن كانت أشرف البقاع ، ويرغب الناس في سكنائها ، ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الضياع ، والفرنساوية لا يمسرون بها إلا في النادر ، ويحترمونها عن غيرها في الباطن والظاهر ، فانقلب بهذه الحركة منها الموضوع ، وانخفض على غير القياس المرفوع ، ثم ترددوا في الأسواق ، ووقفوا صفوفاً ، مثبثاً وألوفاً ، فإن مر بهم أحد فقتلوه ، وأخذوا ما معه ، وربما قتلوه »^(١) .

وأصدر بوناپرت أمراً في ٢٣ من أكتوبر إلى الجنرال برتیه رئيس أركان حرب الجيش بأن يطلب من الحاكم العسكري لمدينة القاهرة قطع رؤوس جميع المعتقلين الذين قبض عليهم ومعهم أسلحة ، وأن تلقى جثثهم بدون رؤوس في النيل ، في المنطقة الواقعة بين بولاق ومصر القديمة .^(٢) ويلاحظ أن الفرنسيين كانوا يحرصون على إلقاء الجثث بدون رؤوس في النيل ، حتى يتعذر الاستدلال على شخصية أصحابها ، إذا طفت الجثث في يوم ما على سطح النيل .

(١) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

(٢) الوثيقة رقم ٣٥٢٧ ، مؤرخة في الثاني من برومير السنة السابعة من التقويم الجمهوري

(٢٣ من أكتوبر ١٧٩٨) .

Correspondance de Napoléon t. V.

وانظر أيضاً

La Jonquière; ouvr. cit., t. III, p. 286.

وقرر بونابرت في مذكراته أن السلطات الفرنسية ألقت القبض على ثمانين شخصاً ، قال بونابرت عنهم إنهم من بين مائة عضو كانوا يشكلون مجلس الثورة ^(١) ، وقد تم القبض عليهم ليلاً . وفي الساعة السادسة من صباح يوم ٢٤ أكتوبر حكمت محكمة عسكرية بإعدامهم جميعاً ، تأسيساً على أنهم أعضاء في مجلس الثورة . ومن المعروف أن أحكام الإعدام العسكرية التي تصدر في ملابسات ثورة تنفذ فوراً ، ومعنى ذلك إن إعدام الثمانين شخصاً قد تم في ٢٤ أكتوبر ، وهو اليوم الذي تمت فيه مقابلة علماء الأزهر أعضاء الديوان لبونابرت ، ياتمسون منه لإخلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين .

إعدام علماء الأزهر بطريقة وحشية

ومضى الفرنسيون في سياسة القتل الجماعي . ألقوا القبض على خمسة من علماء الأزهر ، واعتقلوهم في دار البكري ^(٢) . وفي منتصف ليلة الأحد ٣ — ٤ نوفمبر جاءت قوة من الجنود الفرنسيين إلى دار البكري ، وطالب رئيس

(1) Napoléon I^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t.I, pp, 253-254.

(٢) كان هؤلاء العلماء :

الشيخ سليمان الجوسقي ، شيخ طائفة المكفوفين .

الشيخ أحمد الشرقاوي .

الشيخ عبد الوهاب الشبراوي .

الشيخ يوسف المصيلحي .

الشيخ اسماعيل البراوي .

واستطاع السيد بدر المقدسي الإفلات من السلطات الفرنسية وسافر إلى الشام ، وكان هذا الرجل قد توجه على رأس حشود من الثوار إلى دار قاضي القضاة في صباح اليوم الأول للثورة . وقبضت السلطات الفرنسية أيضاً على إبراهيم أفندي كاتب جهرج البهار ، وكانت التهم الموجهة إليه كما يقول الجهرجي : « إنه جمع له جماعاً من الشطار ، وأعطاهم الأسلحة والمساوق ، وكان عنده عدة من المماليك الخفيفين ، والرجال المدودين » . ج ٣ ، ص ٢٨ ، وقد حبس في بيت الأغا ، ثم أصدر بونابرت أمراً بإطلاق سراحه ، ويلوح أن السبب في صدور العفو عنه كان حاجة الفرنسيين إلى خبرته ومعلوماته عن منابع الإيراد الحكومي ، إذ كان بوسيلج من بين الذين تشفعوا من أجله لدى بونابرت .

القوة مرافقة هؤلاء العلماء إلى بونابرت بحجة أنه يريد التحدث معهم ،
وما كادوا يغادرون الدار حتى وجدوا حشداً كثيراً من الجنود قبضوا عليهم
وذهبوا بهم إلى دار الجنرال بون حاكم القاهرة العسكري ، وكانت داره
في درب الحماميز : ويصف الجبرتي المصير النعس الذي لقيسه أولئك العلماء
مشايخ الأزهر فيقول : « فلما وصلوا بهم هناك عروهم من ثيابهم ، وصعدوا
بهم إلى القلعة ، فسجنوهم إلى الصباح ، فأخرجوهم وقتلوهم بالبنادق ،
وأنقوهم من السور خلف القلعة ، وتغيب حالهم عن أكثر الناس أياماً^(١) » :

وقد غطى أحد المؤرخين الفرنسيين هذا الوصف الموجز الذي ذكره
الجبرتي ، فأعطى صورة مفزعة عن الدقائق الأخيرة في حياة هؤلاء العلماء ،
فذكر أنهم اقتيدوا من سجنهم إلى ميدان القلعة في حراسة مشددة من الجنود ،
وكان على رأس القوة المرافقة لهم برتلمي اليوناني ، فأجاسهم القرفصاء على
الأرض ، وأطلق على كل شيخ من أولئك العلماء عياراً نارياً أرداه قتيلًا ،
الواحد تلسو الآخر^(٢) : وأضافت جريدة Courrier de l'Égypte جديداً
إلى هذا المشهد الدامي ، فقد نشرت بياناً رسمياً جاء فيه : إنه في الساعة التاسعة
من صباح ١٤ برومير قد قطعت في ميدان القلعة رقاب ستة علماء ،
وذكرت نفس الأسماء الخمسة التي سجلها الجبرتي ، وأضافت إليهم السيد
عبد الكريم ، وقالت إنه ثبتت عليهم تهمة التحريض على الثورة التي قامت
في ٣٠ فاندسيمير ، وأول برومير ، وقال البيان إن معظم هؤلاء المشايخ
اشتركوا في الثورة ، مدفوعين بكراهيتهم لزملائهم المشايخ الذين استخدمهم
بونابرت في الشؤون العامة^(٣) : وهذا القول من جانب الجريدة الرسمية للاحتلال

(١) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٩ .

(2) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, p. 191.

(٣) العدد رقم ١ الصادر في ٢٠ برومير من السنة السابعة من التقويم الجمهوري (أول نوفمبر

١٧٩٨) .

الفرنسي تبرير هزيل للقتل الجماعي الذي ارتكبه الفرنسيون مع فريق من علماء الأزهر : وقد ظل مصير هؤلاء العلماء مجهولاً لسكان القاهرة عدة أيام ، وتردد أعضاء الديوان عدة مرات على بونا بريت يلتهمون منه الإفراج عن هؤلاء العلماء وغيرهم من المعتقلين ، سواء من كان في القلعة أو في دار البكري ، أو في بيت الأغا . وكان بونا بريت يستمهلهم ، ويروغ من الإجابة عن استفساراتهم . وأدرك الشعب أن في الأمر سرّاً يحاول الفرنسيون إخفائه ، وازدادت هواجسه حين مضت الأيام ولم يفرج عن المعتقلين . واشتم الشعب رائحة الغدر ، وصحت نبوءته : وواجه الفرنسيون هذا الموقف بنشر الرهبة في نفوس سكان منطقة الأزهر ، فأرسلوا قوات عسكرية إلى منطقة الأزهر بالذات لمراقبة الموقف عن كثب ، وسمّى أية حركة قد يقوم بها الشعب بالتأثير تعبيراً عن سخطه على إعدام علماء الأزهر :^(١)

ويقرر الشيخ عبد الله الشرقاوي أن الفرنسيين قتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالماً^(٢) ، ونعتقد أن هذا التقدير الرقي لا ينطوي على مبالغة ، لأن الشيخ الشرقاوي — كشيخ للجامع الأزهر — كان أدري من غيره بالعلماء واسمائهم ، ولا بد أنه وقف على عدد واسماء العلماء الذين قضوا نحبتهم في هذه الثورة ، وهو قد أضاف إلى العلماء الذين نفذ فيهم الفرنسيون أحكام الإعدام : علماء آخرين لقوا حتفهم برصاص الفرنسيين ، أو بقذائف مدفعيتهم .

وتقديرًا للدور القيادي والبطولي الذي قام به الأزهر في ثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، ووفاء لعلمائه الذين أعدمهم الفرنسيون بطريقة تنسافي مع أبسط مبادئ الإنسانية ، نشير إلى المركز العلمي والاجتماعي لهؤلاء الشهداء . لقد

(١) انظر يوميات الجبرتي ابتداء من يوم الأحد ١٨ من جمادى الأولى ١٢١٣ هـ ، ج ٣ ، ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) عبد الله الشرقاوي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .

ترجم الجبرقى لخمسة من علماء الأزهر الذين أعدمهم الفرنسيون في أعقاب ثورة أكتوبر ، وقد بدأ بالشيخ أحمد الشرقاوى ، فوصفه بأنه علامة فقيه ، وقال عنه إنه تصدر للتدريس في الأزهر بعد وفاة أبيه الشيخ إبراهيم الشرقاوى « واجتمعت عليه طلبة أبيه وغيرهم ، ولأزم مكانه بالأزهر طول النهار ، يملئ ويفيد ، ويفتى على مذهبه (الشافعى) ، ويأتى إليه الفلاحون من جيرة بلاده ، بقضاياهم وخصوماتهم وأنكحهم ، فيقضى بينهم ، ويكتب لهم الفتاوى في الدعاوى التى يحتاجون فيها إلى المرافعة عند القاضى ، وربما زجر المعاند منهم ، وضربه وشتمه ، ويستمعون لقوله ، ويمثلون لأحكامه ، وربما أتوه بهدايا ودراهم ، وكان جسيما ، عظيم اللحية ، فصيح اللسان ، ولم يزل على حالته حتى اتهم في فتنة الفرنسيين المتقدمة ، ومات مع من قتل بيد فرنساوية بالقلعة ، ولم يعلم له قبر » ، ووضح من كلام الجبرقى أنه كان يمارس مهنتين ، هما طبقاً للمصطلحات الحديثة : أستاذ جامعة ومستشار قانونى ، فهو يقوم بالتدريس في الأزهر ، ويصدر الفتاوى في القضايا المطروحة أمام القضاء ، وإلى جانب هذين العاملين كان يحسم الخصومات ، قبل أن تأخذ طريقها إلى المحاكم ، كما أنه كان قوى الشخصية ، مهاباً :

وترجم الجبرقى للشيخ عبد الله الشبراوى ، فوصفه بأنه « الإمام العمدة ، الفقيه الصالح القانع » ، وقال عنه إنه تفقه على أشياخ عصره ، وذكر انتماء هؤلاء الشيوخ ، وكلهم من أعلام الأزهر ، ثم ذكر أنه تصدر للإقراء والتدريس والإفادة بالجوهرية ، وبالمشهد الحسينى ، وكان يقرأ في دروسه كتب الحديث كالبخارى ومسلم ، وكان الجهم الغفير من العسامة يحرصون على حضور دروسه ، وكانوا يستفيدون منه « وكان حسن الإلقاء ، سلس التقرير ، جيد الحافظة ، جميل السيرة ، مقبلاً على شأنه ، ولم يزل ملازماً

على حالته حتى اتهم في إثارة الفتنة ، وقتل بالقلعة شهيداً بيد الفرنسيين في أواخر جمادى الأولى من السنة (١٢١٣) ، ولم يعلم له قبر » : ، ويتضح من ترجمة الجبرتي أن الشيخ عبد الله الشبراوي كان على حظ موفور من العلم بفضل ما أتيج له من فرص الدراسة على أيدي صفوة علماء الأزهر ، وأن تخصصه الضيق كان في علم الحديث ، وأن كثيرين من العامة كانوا يحرسون على شهود حلقاته العلمية التي كان يتصدرها في الجوهريّة ، ومسجد الإمام الحسين ، وقد اجتمعت له من الصفات العلمية والخلقية ، ما جعلت منه عالماً أزهرياً مرموقاً :

وكان العالم الثالث الذي ترجم له الجبرتي من شهداء الأزهر هو الشيخ يوسف المصيلحي ، وقد نعت به بقوله : « إنه » الشاب الصالح ، والنبه الفالح ، الفاضل الفقيه » ، وأنه حضر دروس أشياخ العصر ، كالشيخ الصعيدي ، والشيخ البراوي ، والشيخ عطية الأجهوري ، والشيخ أحمد العروسي ، واتصل اتصالاً وثيقاً بالشيخ محمد المصيلحي ، إلى أن قال : « وأملى دروساً بجامع الكردى بسويقة اللالا ، وكان مهذب النفس ، لطيف الذات ، حلو الناطقة مقبول الطلعة ، خفيف الروح ، ولم يزل ملازماً على حاله ، حتى اتهم أيضاً في حادثة الفرنسيين ، وقتل مع من قتل ، شهيداً بالقلعة » ، والمعاني المستفادة من ترجمة الجبرتي أن مجتمع العلماء افتقد عضواً عاملاً كان في الاستطاعة أن يثرى الحياة العقلية في البلاد ، بفضل الدراسات التي تلقاها من كبار علماء الأزهر ، واتصالاته بهم ، واشتغاله بالتدريس ، وقد كان ينتظره مستقبل علمي زاهر ، لولا أن الفرنسيين قتلوه ، وهو في مستهل حياته العلمية :

وأفرد الجبرقى ترجمة ضافية للشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة المكفوفين^(١) فقال : كان يستغل المكفوفين ، فيجرد مجموعات منهم إلى الملتزمين ، ونظار الأوقاف ، لاستيفاء المبالغ المطلوبة منهم له ، بصفته شيخاً لطائفة المكفوفين : وكان يمارس أعمالاً تجارية واسعة ، أثرى منها ثراء واسعاً ، فكان يبيع الغلال والسمن والعسل والسكر والزيت ، وكانت له مطاحن لطحن الغلال ، وأنشأ مخبزاً لإنتاج خبز من صنف ردىء يخصص للمكفوفين ؛ وكان ياجأ إلى الاستيلاء التعسفى على ميراث أفراد الطائفة ، وكان كثير من المكفوفين يتركون ثروات ضخمة ، عبارة عن أموال سائلة ، وانتهى به الأمر إلى أنه أصبح من كبار الشخصيات في مجتمع القاهرة ، أو كما يقول الجبرقى : « صار المترجم من أعيان الصدور ، المشار إليهم في المجالس ، تخشى سطوته ، وتسمع كلمته ، ويقول قال الشيخ كذا ، وأمر الشيخ بكذا ، وصار يلبس الملابس والفراوى ، ويركب البغال ، وأتباعه محذقة به ، وتزوج الكثير من النساء الغنيات الحميلات ، واشترى السراى البيض والحيش والـسود ، وكان يقرض الأكابر المقادير الكثيرة من المال ، ليكون له عليهم الفضل والمنة ،

(١) للمكفوفين أو العميان كما كان يطلق عليهم في ذلك الوقت زاوية خاصة بهم في عطفة الشنوائى ، وكان عدد منهم يطلبون العلم في الأزهر ، أو في المدارس الملحقة بالمساجد ، وعدد آخر يعمسون مقرئين ، يتلون آيات القرآن الكريم في المناسك والمصاطب أمام الخوانيت ، استجابة للبركة في البيوت ، وللرزق الوفير في الهلات التجارية ، والبعض الثالث يتخصصون في التواشيح الدينية ، لإلقائها في الموالد والحفلات الدينية ، والبعض الرابع يتعاقدون مع أصحاب المقاهى المقامة في الأحياء الشعبية ، ويجلسون على دكة عالية ، وينشدون قطعاً من الأدب الشعبى ، مثل الأميرة ذات الهمة ، وأبي زيد الهلالي ، وألف ليلة ونحو ذلك ، كما كان يشتغل عدد منهم في المساجد أئمة أو مؤذنين ، وكان عدد آخر ، وبخاصة من لم ينالوا حظاً من التعليم يتسولون في الشوارع والأسواق ، يسألون الناس إحساناً ، وكان يضمهم تنظيم واحد ، ويخصمون الشيخ الطائفة ، يأتمرون بأمره .

ولم يزل حتى حملة التفاوض في زمن الفرنسيين على تولية كبر إثارة الفتنة التي أصابته وغيره ، وقتل فيمن قتل بالقلعة ، ولم يعلم له قبر . وكان ابنه معوقاً^(٢) بهيت البكري ، فلما علم بموته قلق ، وكاد يخرج من عقاه ، خوفاً على مايعلم مكانه من مال أبيه ، حتى خلص في ثاني يوم بشفاعة المشايخ ، ولم يكن مقصوداً بالذات ، بل حضر ليعود أباه ، فحجزه القومة عليهم ، زيادة في الاحتياط .^(٣) ، ونخلص من كلام الجبرتي إلى أن الشيخ سايمان الجوسقي كان على قدر كبير من الصرامة والجبروت ، وأنه كان يحب المال والنساء حباً جماً ، وأنه كان من المحرضين على الثورة .

وكان الشيخ اسماعيل البراوي هو آخر من ترجم له الجسبرتي من علماء الأزهر الشهداء ، وقال عنه إنه « كان قليل البضاعة ، إلا أنه تغلب عليه النباهة واللسانة والسلطة والتدخل ، وذلك هو الذي أوقعه في حبائل الفرنسيات ، وقتل مع من قتل شهيداً ، ولم يعلم له قبر » ، ويتضح من ترجمة الجبرتي له أنه كان أقل العلماء الشهداء مكانة علمية ، لأن بضاعته قليلة من العلم ، ولكنه كان خطيباً مفوهاً ، وأنه استغل هذه الموهبة في مخاطبة الجماهير ، عرضاً لهم على الثورة .^(٥)

(١) كبر الشيء أى معظم الشيء وأكبر أقسامه ، وهى تنطق بكسر الكاف وسكون الباء ، ومعنى العبارة أن الشيخ سايمان الجوسقي تولى القسط الأكبر من التعريض على الثورة وإثارة الفتنة ، وقد دفعنا إلى ذكر هذا الإيضاح أن الأستاذ أحمد حافظ عوض قد حذف هاتين الكلمتين (تولية كبر) وهونقل النص عن الجبرتي ، ولعله اعتقد أنهما خطأ مطبعي ، والآية القرآنية الكريمة حاصلة : « والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » الفقرة الأخيرة من الآية رقم ١١ ، سورة النور .

انظر :

أحمد حافظ عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥٦ .

(٢) أى عجوزاً ، أو محددة إقامته .

(٣) أى أطلق سراحه .

(٤) القائمين على حراسة المعتقلين .

(٥) انظر تراجم هؤلاء العلماء الشهداء في وفيات سنة ١٢١٣هـ ، في :

الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦١ - ٦٢ .

ويلاحظ أن الجبرتي لم يترجم إلا خمسة من علماء الأزهر الذين أعدتهم الفرنسيون في أعقاب الثورة ، وليس معنى ذلك أن الأزهر لم يفعج إلا في خمسة من علمائه ، وقد ذكرنا من قبل أن الشيخ عبد الله الشرفاوي - شيخ الأزهر - قد قرر أن الفرنسيين قتلوا نحو ثلاثة عشر عالماً من علماء الأزهر ، والتفسير الذي يساق في هذا الصدد لإغفال الجبرتي ترجمة باقي علماء الأزهر الشهداء ، هو أنه اكتفى بخمسة منهم ، كى يفسح لنفسه مجالا لترجمة الشهداء الآخرين مثل السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية الوطنى ، والأمراء المماليك الذين سقطوا في معركة إمبابية . وما يؤيد هذا التفسير أن الجبرتي لم يترجم إلا ثلاثة من الأمراء المماليك ضحايا معركة إمبابية ، مع أنهم تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح ، سواء من قتل منهم في ساحة الوغى ، أو غرقاً في النيل ، فترجم لاثنتين من القتلى ، ولواحد من الغرقى ^(١) ، كما ترجم للأمير مشهور مات حتف أنفه في الشام ، هو صالح بك أمير الحج ، وعلى ذلك فإن علماء الأزهر الخمسة الذين خصهم الجبرتي بترجمته كانوا يشكلون أكبر نسبة في تراجم وفيات سنة ١٢١٣ (١٥ يونيو ١٧٩٨ - ٤ يونيو ١٧٩٩) ، وكانت نسبة تراجم مجتمع العلماء تفوق نسبة تراجم مجتمع العسكريين ^(٢) .

صور أخرى من تنكيل الفرنسيين بالشعب

مضت بكل نشاط عمليات القبض على كل من حامت حولة شبهة التحريض على الثورة . والجبرتي ، وهو يسجل أحداث يوم الأحد ١٨ جمادى

(١) ترجم من قتل المعركة للأمير على بك الدفتر دار ، وعبد الله كاشف الحرف تابع عثمان بك ذى الفقار الكبير ، وترجم من الفرق للأمير إبراهيم بك الصغير ، المعروف بالوالى .

(٢) مجتمع العلماء ٧

مجتمع العسكريين ٤

حاكم الإسكندرية الوطنى }
(السيد محمد كريم) }
١
١٢

الأولى ١٢١٣ (٢٨ أكتوبر ١٧٩٨) ، يتكلم عن « استمرار القبض على الناس ، وكبس البيوت بأدنى شبهة » ، وأكد بونابرت هذه الحقيقة في رسالة مؤرخة في ٢٧ أكتوبر إلى الجنرال رينييه Reynier الحاكم العسكري لمديرية الشرقية قال فيها : « إن السكينة قد عادت إلى القاهرة ، وفقد الثوار قرابة ألفي قتيل ، وفي كل ليلة تقطع رعوس نحو ثلاثين من الرجال ، وزعماء الأهالي ، وأعتقد أن هذا العمل سيكون درساً نافعاً^(١) » ، ويعترف الضابط لاجونكيير La Jonquière بأن إعدام الكثيرين قد تم بحمد السنك في القلعة سرّاً وبدون محاكمة^(٢) . وامتدت موجة الانتقام إلى السيدات المصريات . وقد كشف عن هذه الحقيقة في مذكراته دي مورين Louis Antoine Fauvelet de Bourienne السكرتير الخاص لبونابرت ، فقد قرر أن عدداً كبيراً من المقبوض عليهم كانوا يساقون إلى القاعة ، وكان في كل مساء يتولى بنفسه كتابة أوامر الإعدام ، وكانت تتضمن اسماء اثني عشر معتقلاً كل

(١) وثيقة رقم ٣٥٣٩ مؤرخة في ٦ من شهر بر ومير ، السنة السابعة من التقويم الجمهوري (٢٧ من أكتوبر ١٧٩٨) .
انظر :

Correspondance de Napoléon, t. V.

(2) La Jonquière; ouvr. cit., t. III, p. 283.

(٣) نشرت النسخة الفرنسية لمذكرات دي بوريين بعنوان :

Bourienne (L.A. Fauvelet de); Mémoires de M. de Bourienne, ministre d'Etat, sur Napoléon, le Directoire, le Consulat, l'Empire et la Restauration. Paris, 1829, 10 vols.

وظهرت الترجمة الإنجليزية لهذه المذكرات بعنوان غير دقيق علمياً في كتاب يقع في عشرة أجزاء
عنوانه : The Life of Napoléon. by William Hazlitt

أفرد فيه أربعة أجزاء لمذكرات دي بوريين هي الأجزاء : السابع والثامن والتاسع والعاشر ،
وخصص الأجزاء الستة الأولى لعرض تاريخ نابليون ، وقد تولت جمعية في نيويورك ، أسسها
The Grollier Society نشر الأجزاء العشرة .

ليلة ، وكانت توضع جثثهم في زكائب وتغرق في النيل ، « وكانت هناك نساء
كثيرات ، ممن نفذ فيهن أوامر الإعدام الليلية ^(١) » :
برتلمى يواصل تنكيله بالشعب

وكان هذا الجو الإرهابي ، الذي عاشت فيه القاهرة عقب إخماد الثورة
فرصة ذهبية لوكيل محافظة القاهرة برتلمى اليوناني - أو فرط الرمان - ،
للتشفي من الشعب المصري ، وإشباع هوايته في التنكيل بأبناء البلاد ، التي آوته
من خوف ، وأطعمته من جوع . وقد جعل الفرنسيون منه شخصية آمرة ،
متحكمة ، متعالية ، متعسفة ، تبطش بالمصريين في غير رحمة أو هوادة ، وبغير
مقتضى أو سبب جدى : ويصف الخبر في دور هذا اليوناني القبيح في التنكيل
بأهل القاهرة ، بعد أن ألقى الثوار أسلحتهم فيقول : « وانتدب برطامين
للعسس على من حمل السلاح ، أو اختلس ، وبث أعوانه في الجهات يتجسسون
في الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم ، وما ينهيه النصارى
من أبغاضهم ، فيحكم فيهم بمراده ، ويعمل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهم
الكثير ، ويركب في موكبه ويسير ، وهم موثقون بين يديه بالحبال ،
ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجون ، ويطالبونهم
بالمهوبات ، ويقررونهم بالعقاب والضرب ^(٢) ، ويسألونهم عن السلاح وآلات
الحرب ، ويدل بعضهم على بعض ، فيضعون على المدلول عليهم أيضاً القبض :

(1) "Numerous prisoners were conducted to the citadel. In obedience to an order which I wrote every evening, twelve were put to death nightly. The bodies were then put into sacks and thrown into the Nile. There were many women included in these nocturnal executions.

انظر :

de Bourienne; Memoirs of Napoléon. vol I., p. 188.

(٢) أى يستعملون معهم وسائل التعذيب كي يعترفوا .

وكذلك فعل مثل ما فعل اللعين الأغا^(١) ، ونجبر في أفعاله وطمخى ، وكثير من الناس ذبحوهم ، وفي بحر النيل قذفوهم ، ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة ، لا يحصى عددها إلا الله ، وطال بالكفرة^(٢) بغيهم وعنادهم ، ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم^(٣) : «

وعهد بونابرت في ٢٦ أكتوبر ١٧٩٨ إلى هذا اليوناني القبيح بالذهاب مع قوة من رجال الشرطة في اتجاه منطقة القبة والخانكة ، ويتمجول في عشر قرى تكون أقرب القرى إلى القاهرة ، ويداهم بيوتها ، بحثاً عن الخطابات التي كتبها أعضاء مجلس الثورة إلى مشايخ القرى وسكانها ، وطلبوا فيها منهم الحضور إلى القاهرة لمساندة الثوار . وطلب بونابرت منه أيضاً أن يجتد في جمع المعلومات المتصلة بهذا الموضوع^(٤) . ويقول الخبرتي : إن برتلمي سافر في ٢٨ من أكتوبر إلى بلدة سرياقوس « ومعه حملة من العسكر بسبب الناس الفسارين إلى جهة الشرق فلم يدركهم ، وأخذ من في البلاد ، وعسف في تحصيلها ، ورجع بعد أيام^(٥) » .

(١) الأغا ، يقصد به محافظ القاهرة ، وكان اسمه مصطفى أغا ، وهو ثاني محافظ يعين للقاهرة أيام الاحتلال الفرنسي ، وكان معروفاً عنه أنه من عملاء الفرنسيين ، وقد لقي مصرعه إبان ثورة القاهرة الثانية .

(٢) تؤكد هذه اللفظة (الكفرة) الطابع الديني للمجتمع المصري في ذلك الوقت ، وكان يطلق على غير المسلمين كفرة ، وسوف نناقش هذه المسألة في موطن قادم من هذه الدراسة .

(٣) الخبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

(٤) وثيقة رقم ٣٥٣١ عبارة عن أمر أصدره بونابرت في الخامس من شهر برومير من السنة السابعة من التقويم الجمهوري (٢٦ من أكتوبر ١٧٩٨) إلى الجنرال برتييه رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسي ، لتبليغه إلى ذلك اليوناني برتلمي .
انظر :

Correspondance de Napoléon, t. V.,

(٥) الخبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

خسائر الشعب في ثورته

تكبد الشعب في ثورة أكتوبر خسائر فادحة في الأرواح ، إذ ارتفع عدد الضحايا إلى أربعة آلاف قتيل ، وقد استقينا هذا التقدير الرقي من ريبو مؤرخ الحملة^(١) ، وهو يتفق في هذا التقدير مع ما جاء في مذكرات الجنرال بليار^(٢) ، وهو أقرب إلى الحقيقة . أما بونابرت فقد قرر في التقرير الذي وضعه عن ثورة القاهرة الأولى ، وأرسله إلى حكومة الديركتوار بتاريخ ٦ برومير من السنة السابعة من التكوين الجمهوري أن عدد الضحايا المصريين يتراوح بين ألفي قتيل^(٣) ، وبين ألفين وخمسمائة قتيل^(٤) :

وقد بلغت خسائر الجانب الفرنسى نحو ثلاثمائة قتيل^٦ ، منهم ضابط برتبة لواء^٧ ، هو الجنرال ديوبوى ، الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة ، وضابط برتبة مقدم ، هو سلكووسكى ياور بونابرت ، وبعض الضباط والمهندسين من ضباط سلاح المهندسين وبعض العلماء ، وكان الباقون من الجنود ، وقد تخبط بونابرت في ذكر عدد ضحايا الفرنسيين ، فقد قرر في مذكراته أن خسائريهم قد بلغت ثلاثمائة ، منهم مائة قتيل ، في حين أنه كان قد هبط بهذا العدد إلى ستة وثلاثين قتيلًا في تقريره الذى رفعه إلى حكومة الديركتوار ، والذي سهقت الإشارة إليه ، ولا شك أنه استهدف من ذكر هذا الرقم المتواضع ،

(1) Reybaud Louis et autres ; ouvr. cit., t. IV, p. 181.

(2) Mémoires du comte Belliard, lieutenant-général, pair de France, écrits par lui-même, recueillis et mis en ordre par M. Vinet, un de ses aides de camp. Paris, 1842, 3 vols.

(٣) يقابل السابع والعشرين من شهر أكتوبر ١٧٩٨ .

(٤) انظر النص الرسمى لهذا التقرير في كل من :

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. etc. ouvr. cit., t. I, pp. 369 - 371.

Correspondance de Napoléon, t. V, doc. no. 3538 au Directoire Exécutif.

التقليل من شأن ثورة سكان القاهرة ، حتى لا يضيف مزيداً من عوامل الإثارة أو القلق في نفوس أعضاء حكومة الديركتوار. وكان بونابرت حريصاً على تكذيب الأنباء التي كان أعداء فرنسا ينشطون في إذاعتها ، كنوع من أنواع الحرب النفسية ، فيعتقد الرأي العام الفرنسي أن الحملة واجهت ثورة هادرة من القاهريين ، وأن المتاعب تلاحقها بعد الضربة الأليمة التي أصابها في معركة أبي قير البحرية :

ويعلق الأستاذ الرافي على نتائج ثورة أكتوبر بقوله : « وانتزعت الثقة بين الجنود والأهالي ، فكانت ثورة القاهرة كالهوة العميقة التي باعدت إلى الأبد بين الأمة المصرية والجيش الفرنسي ، وراح كل جندي لايمشي إلا بسلاح ، بعد أن كانوا لايمشون به أصلاً ، من حين دخولهم القاهرة ، وصار من لم يكن معه سلاح من الفرنسيين يحمل في يده عصا أو سوطاً ، أو نحو ذلك ، ونفرت قلوبهم من المصريين ، وكف هؤلاء من جهمهم عن الخروج ، والمرور بالأسواق ، من العشية إلى طلوع النهار ، وعامل الفرنسيون الشعب بالشدة والقسوة وساد حكم الإرهاب في مدينة القاهرة ، فلا عدل ولا أمن ، ولا طمأنينة »^(١) .

ثورة القاهرة ثورة دينية

يحاول فريق من الباحثين أن يصفوا على هذه الثورة الطابع القومي le caractère national ، أو الطابع الوطني le caractère patriotique ، وينسى هؤلاء الباحثون أن المجتمع المصري في القرن الثامن عشر كان مجتمعاً دينياً متزماً ، تغلب على أفراده ثقافة دينية ، وتسيطر عليه آراء دينية ، وتوجهه دوافع دينية ، ويتحسس هؤلاء الباحثون الأسانيد في عبارات ينتحلونها

(١) عبد الرحمن الرافي ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

من تاريخ الغرب في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ولا يقيمون وزناً للفروق الصارخة بين المجتمع الإسلامى فى مصر فى القرن الثامن عشر ، وبين المجتمعات الأوروبية فى القرنين التاسع عشر والعشرين :

كانت الهتافات التى ردها الثوار هتافات دينية بحجة ، لا تمت بأية صلة إلى الشعارات أو المفاهيم القومية والوطنية ، ويعطى الجبرقى صورة نابضة بالحياة عن بداية ثورة أكتوبر ١٧٩٨ فيقول : « وأصبحوا يوم الأحد متحزبين ، وعلى الجهاد عازمين ، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح ، وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية ، وزعر الحارات البرانية ، ولهم صياح عظيم ، وهول جسيم ، ويقولون بصياح فى الكلام : نصر الله دين الإسلام ^(٢) » ، وهناك معاصر آخر لأحداث الثورة ، هو المعلم نقولا ترك ، يقول فى مذكراته عن بداية الثورة : إن أحد شيوخ الأزهر طاف فى أول يوم من أيام الثورة فى شوارع القاهرة ينادى بأعلى صوته : « إن كل مؤمن موحد بالله ، عليه أن يذهب إلى الجامع الأزهر ، لأن اليوم ينبغي علينا أن نجاهد الكفار » ^(٣) :

نستخلص من عبارتى الجبرقى ونقولا ترك ثلاثة عناصر حددت موقف سكان القاهرة من هذه الثورة :

أولاً : إن الدعوة إلى الاشتراك فى الثورة كانت مقصورة على « المؤمنين الموحدين بالله » ، وهو وصف ينطبق على سكان القاهرة المسلمين دون سواهم

(١) زعر ، معناها أناس ذوو شراسة .

(٢) الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٥ .

(٣) النص الحرقى لعبارة نقولا ترك هو « نزل أحد المشايخ الصغار ، وكان من مشايخ الأزهر ، وبدأ ينادى فى المدينة إن كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر ، لأن اليوم ينبغي لنساء أن نغازى فى الكفار » ، مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فيث ، ص ٢٨ من الأصل العربى .

ثانياً : إن الجامع الأزهر كان مكان حشد التجمعات الجماهيرية الإسلامية تتلقى فيه الأوامر ، أو الأسلحة ، أو الذخائر من قادة الثورة :^(١)

ثالثاً : إن الحرب التي يخوضها أهل القاهرة المسلمون ، كانت حرب جهاد ديني ، استهدفت الانتصار لدين الإسلام ، ولم يطاق فيها الثوار الهتافات التي عرفتها مصر في القرن العشرين بوجه خاص مثل : مصر للمصريين ، أو يحيا الاستقلال التام ، ولم يهتف الثوار بحياة السيد محمد السادات زعيم الثورة ، أو باسم أي زعيم مصري آخر ، لأن أي زعيم مصري ، مهما بلغت مكانته ، ومهابته ، ونفوذه في نفوس الجماهير ، كان يتضاءل مركزه ، إذا قورن بسطان الدولة العثمانية ، على أساس أنه سلطان المسلمين .

ويجمع على هذه الحقيقة المؤرخون والباحثون المصريون ، ممن عرفوا بالأصالة ، وسلامة الحكم والتقدير : فالأستاذ محمد شفيق غربال يذكر في بحث له : « ثار أهل القاهرة ثورتين عنيفتين ، وقام الفلاحون في الأقاليم كلما أتاحت لهم فرصة ، وقد ذكرنا من الأسباب ما يكفي لتفسير هذا الكره ، دون أن نلجأ إلى تحليله بانتحال تعبيرات من تاريخ الغرب في القرن التاسع عشر ، والتاريخ الصحيح لا يجد في الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم ، إلا باعثاً إيجابياً واحداً ، هو الرغبة في العودة لما ألفه الناس ، ولا يمكن تسمية ما ألفوه استقلالا ، وإنما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت السيادة العثمانية » ، ثم يقول عن السيد محمد السادات قائد الثورة : « إنه كان من أكثر^(٢)

(١) تظهر الفروق واضحة تماماً بين الأزهر في سنة ١٧٩٨ ، حين كان مركز ثورة دينية ، وبين الأزهر في سنة ١٩١٩ ، حين غدا مركز ثورة وطنية ، جمعت عنصري الأمة المصرية ، وتردد الأقباط على جامع الأزهر ، يخطبون من فوق منبره ، داعين إلى الثورة من أجل الحرية والاستقلال . وقد تضامن المسلمون والأقباط تضامناً ، برزت معه وحدة الأمة المصرية ، وصنع الأهالي أعلاماً جديدة ، رسموا فيها الصليب متعاقباً مع الهلال .

(٢) محمد شفيق غربال : الجنرال يعقوب ، والفارس لاسكاريس ، ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ . القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٥ .

العلماء نفوراً من الفرنسيين وما أحدثوه، ومن أشدهم سعيًا لإعادة الحكم العثماني^(١). ويصور الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ثورة القاهرة الأولى بأنها انفجار للشعور الديني عند المصريين، فهو يقول: «وظال الفرنسيون يحكمون البلاد نحو ثلاث سنين، تحقق الشعب خلالها أن هؤلاء المغيرين يخالفونه في الدين، ويخالفونه في اللغة، ويخالفونه في الحياة الاجتماعية التي يحياها: وآهم يقيمون المراقص العامة، ورأى لهم طرائق في معاملة النساء لم يعهدا، وآهم يحتمون عليه أموراً لم يألفها، فاعتقد أن ذلك تدخل منهم فيما لايعنيهم: كدفن الموتى خارج المدن، ورش الشوارع بالماء، وتعليق الفوانيس، وآهم يقومون بأعمال رابته، وأقلقت باله، كهدم أبواب الحارات، وما شاكل ذلك. ومن ثم تهيأت الأسباب لينفجر الشعور الديني عند المصريين في ثورة جاححة في القاهرة، وكثير من مدن الأقاليم»^(٢).

ولدينا دليل مادي، على أن العاطفة الدينية كانت تسيطر على تصرفات المصريين في ذلك الوقت، وأنها ازدادت بروزاً ووضوحاً في توجيه الأحداث في مصر، منذ أن دخل الفرنسيون البلاد. كان عدد من المماليك قد وقعوا أسرى في أيدي الفرنسيين في أثناء المعارك التي خاضوها ببسالة ضد الفرنسيين: ولكن سرعان ما تناسى الشعب المصري المظالم التي انتهت عليه إبان حكم المماليك الجائر، وبخاصة على عهد الحكم الثنائي الذي تولاه إبراهيم بك ومراد بك. فلما أن انتصر الفرنسيون بسلاح مدفعيتهم الرهيب على أفرسان المماليك، وأذلوهم حتى أصبح هؤلاء المماليك موضع الشفقة والرثاء من المصريين، وتبخرت الكراهية التي كان يشعر بها الشعب نحوهم، ونظسر

(١) المرجع السابق، ص ١٦.

(٢) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في عصر محمد علي، مرجع سبق ذكره،

لهم على أنهم إخوة له في العقيدة الدينية ، وتجلى هذا الشعور في نفوس مختلف طبقات الشعب ، من كبار المشايخ علماء الأزهر ، إلى رجل الشارع الفقير ، تدخل علماء الأزهر أعضاء الديوان لدى بونابرت كى يطاق سراح أسرى المماليك ، ونجحت الوساطة ، ولاذ المماليك بالجامع الأزهر ، حيث لقوا عطف الفقراء قبل الأثرياء . وكانت الوشيجة الدينية هى العامل الأول في هذا التعاطف : يصف الجبرقى هذا الشعور النبيل وهو يستعرض حوادث شهر صفر ١٢١٣ (١٥ يوليو - ١٢ أغسطس ١٧٩٨) فيقول : « تشفع أربعاء الديوان فى أسرى المماليك ، فقبلوا شفاعتهم وأطلقوهم ، فدخل الكثير منهم إلى الجامع الأزهر ، وهم فى أسوأ حال ، وعليهم الثياب الزرق المقطعة ، فكثروا به يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين به ، ويتكفون المساكين ، وفى ذلك عبرة للمعتبرين »^(١)

وهناك تعليق دقيق على هذه الحادثة ، وعلى رواية الجبرقى لها ، وقد صدر هذا التعليق عن الأستاذ ج. كريستوفر هيرولد J. Christopher Herold فقال : إن المماليك والعثمانيين مسلمون ، حقيقة أنهم قد يعتصرون أرزاق المصريين ، ويستولون على أملاكهم ، ولكنهم إخوة للمصريين فى الدين ، ثم قال : إن الجبرقى مسلم مستنير ، وعبارته تحمل الكثير مما يعتبره الإسلام خلقاً جديراً بالإعجاب العظيم : وهو أن يقدم المظلومون الطعام إلى ظالمهم المهزمين بدافع الشعور بالأخوة فى العقيدة الدينية ، أكثر من الشعور بالشفقة عليهم^(٢) . وهناك أيضاً أحد كبار الصحفيين النابيين فى مصر المعاصرة ، وصاحب جريدة « كوكب الشرق » ، وهو الأستاذ أحمد حافظ عوض ، كان أسبق

(١) الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٢ .

(٢) الترجمة العربية لكتاب « بونابرت فى مصر » ، ص ١٩٥ .

من كرسنوفر هيرولد في تصوير الشعور الديني الفياض لدى الشعب المصري فقال : إن المصريين كانوا على عهد الحملة الفرنسية متعلقين بحكم المماليك الذين لم يكونوا يقلون في الأجنية عن الفرنسيين ، سوى أن أولئك كانوا مسلمين ، وإن كان إسلامهم ضعيفاً ، وهؤلاء غير مسلمين^(١) .

هذا هو موقف الشعب المصري من المماليك إبان الحكم الفرنسي ، وهو موقف أملاه التعاطف الديني ، وهذه هي نظرتهم إليهم ، وهي نظرة قائمة على الإنحاء في الدين ، وقد شكل ذلك الموقف وهذه النظرة العلاقات بين الشعب المصري وبين العثمانيين . وقد وقع حادث قبيل اندلاع ثورة أكتوبر ١٧٩٨ يدل على مدى تعلق الشعب المصري بالعثمانيين ، وأنه كان ينظر إليهم على أنهم حماة الإسلام ، المدافعون عن دياره .

كان أحد العسكريين العثمانيين معتقلاً في الإسكندرية ، ثم أطلق الفرنسيون سراحه ، وجاء إلى القاهرة في ١٤ من سبتمبر ١٧٩٨ ، وذهب إلى منطقة الأزهر لزيارة المشهد الحسيني ، ولم تكذب توقع أعين الجماهير عليه حتى اتهموا مقدمه ، وتزاحوا على رؤيته ، وكأن دهوراً طويلة قد مرت دون أن يروا الجنود العثمانيين ، أو عساكر سلطان المسلمين ، واختلقت تفسيراتهم لمجيئه ، وذهبوا في ظنونهم مذاهب شتى ، فقالوا : « إن هذا رسول إلحى^(٢) ، حضر من عند

(١) أحمد حافظ عوض ، فتح مصر الحديث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٥ .

(٢) إلحى ، لفظة تركية ، معناها سفير ، وهي تكتب أحياناً بإلحيم المعطشة في إحدى ثلاث صور : إلحى ، إلحى ، إلحى .

ولكن الكلمة الأكثر استعمالاً في المصادر التاريخية الخاصة بمصر إبان الحكم العثماني هي إلحى ، وهي تتكون من مقطعين : ال معناها السلم ، أو السلام ، أو التحالف ، والثاني حى ومعناها رسول السلام . والأثر الك العثمانيون يستخدمون في هذا الصدد ثلاث مصطلحات :

بيوك إلحى ومعناها سفير .

إلحى مرخص ومعناها وزير مفوض .

السلطان بجواب للفرنسيين يأمرهم بالخروج من مصر » ، وتقاطرت الجماهير نحو المشهد الحسيني ، وتجمهروا في المنطقة . ونقل رجال المخابرات الفرنسية تفاصيل هذا الحادث إلى بونا برت ، وأضافوا إليه أن خطاباً ورد إلى المشايخ علماء الأزهر ، وأنهم أخفوه . ويبدو أن هذا النبأ بشقيه أثار بونا برت ، فأسرع في موكب كبير من الفرسان والمشاة إلى دار الشيخ محمد السادات ، على مقربة من مسجد الإمام الحسين ، وكان وقت القيلولة ، والشيخ منحرف المزاج ، فانزعج وهبط من الدور العلوى لمقابلة بونا برت ، وهو لا يعلم السبب في حضوره إلى داره في مثل ذلك الوقت ، وعلى تلك الصورة . واستفسر بونا برت عن الخطاب الذي ورد إليه ، فقال إنه لا يعرف عنه شيئاً ، وطال الحديث بينهما ما يقرب من ساعة ، ثم خرج بونا برت وعاد في موكبه ماراً بباب مسجد الحسين ، وكان الزحام قد اشتد داخل المسجد وخارجه ، والجميع يرنون بأبصارهم نحو القادم العثماني ، فلما شاهدوا بونا برت استبد بهم الغضب ، وصاحوا بكلمة واحدة انطلقت من حناجرهم في صوت رهيب دوى كالرعد : « الفاتحة » ، فشخص بونا برت إليهم ، واستفسر من مترجميه عن معنى كلمة « الفاتحة » ، فلففوا له القول وقالوا له : « إن المصريين

= أورته إيلچی ومناها وزير مقيم .

ويستخدم الجبرق لفظة إيلچی في يومياته بمعنى رسول صاحب مقام رفيع ، موفد من قبل السلطان ، أو الصدر الأعظم ، في مهمة رسمية خطيرة .

انظر :

Barbier de Meynard ; Dictionnaire turc - français, Paris, 2 vols., 1881 - 1886, vol. I, p. 105, et p. 235.

Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes. 2 éd., Leyde-Paris, 1927. t. I, p. 33.

يدعون لك ، وذهب إلى داره ، وكانت نكتة غريبة ، وساعة اتفاقية عجيبة ،
كاد ينشأ منها فتنة ^(١) » .

تخلص من هذا كله إلى أن ثورة أكتوبر ١٧٩٨ كانت ثورة دينية تنادى إليها رجال الأزهر ، واعتمدوا على الإثارة الدينية ، وكانت الدعوة إلى المشاركة في الثورة مقصورة على المسلمين ، وقام الأزهريون بالدور الرئيسى فيها ، سواء فى التخطيط لها ، أو فى زعامتها ، أو فى المشاركة فى أحداثها مشاركة إيجابية فعالة ، وهم الذين تحمّلوا نصيبهم موفوراً من ويلاتها ، كما استهدفت معهدهم العتيد - الجامع الأزهر - لقصف المدفعية الفرنسية قصفاً شديداً ، ثم انتهك جنود الجيش الفرنسى حرمانه :

ثورة القاهرة ثورة نظيفة

وكما كانت ثورة القاهرة التى اشتعلت فى أكتوبر ثورة دينية ، كانت أيضاً ثورة نظيفة ، لم يتطاول الثوار المسلمون فيها على إخوانهم الأقباط ، ولم تقع اعتداءات على أموالهم ، أو ممتلكاتهم ، أو أشخاصهم ، بل وجه الثوار طاقاتهم كلها لمحاربة الفرنسيين ، وهذه ظاهرة جديدة بالتسجيل ، لأن المجتمع فى مصر كان مجتمعاً دينياً متزمتاً ، ولكن كانت هناك مظاهر تعاطف بين المسلمين والأقباط ، أشار الجبرقى إلى بعضها ^(٢) ، ولذلك اختلفت ثورة أكتوبر عن الثورة التى اندلعت فى القاهرة فى ٢٠ من مارس ١٨٠٠ ضد الفرنسيين ، إذ وقعت فيها اعتداءات طائفية مؤسفة ، ومزد هذا الاختلاف إلى أن قيادة الثورة الأولى كانت مصرية خالصة ، تمثلت فى رجال الأزهر ، بينما كانت قيادة الثورة الثانية يتقاعها العثمانيون والماليك والمصريون ، وكان

(١) الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ١٧ - ١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥ .

موقف الزعماء المصريين مثل الشيخ محمد السادات ، والسيد عمر مكرم ،
والشيخ الجوهري ، والسيد أحمد المحروقي ، والحاج مصطفى البشتلي موقفاً
سليماً ونبيلاً : وجهوا الشعب لمحاربة الفرنسيين دون سواهم ، ووزعوا الثوار
على مختلف مواقع العاصمة وأطرافها ، ووراء المتاريس ، وقاموا بالإنتفاخ
عليهم ، وبدت من الزعماء المصريين صور رائعة من التكافل الاجتماعي^(١) ، أما
العثمانيون والمماليك مثل ناصف باشا ، ونصوح باشا ، والأمير إبراهيم بك ،
ومحمد بك الألفي ، وحسن بك الجداوي ، وعثمان بك الشرقاوي ، وعثمان
بك الأشقر ، فكانوا يأمرون الثوار بالاعتداء على الأقباط ، وقد ذكر الجبرقي
أن نصوح باشا صاح في العامة : « اقتلوا النصاري ، وجاهدوا فيهم »^(٢) ، وهي
دعوة منكرة ، لم يصدر مثلها عن زعماء الثورة المصريين :

ثورة القاهرة ثورة إنسانية

وهناك خصيصة ثالثة لثورة القاهرة ، وتتلخص في أن الطابع الإنساني
كان فيها واضحاً ، بل بارزاً ، فعلى الرغم من أن ثورة أكتوبر كانت على
غرار الثورات الحمراء التي تندلع في كل زمان ومكان ، عبر الأعصر
التاريخية حين يحاول المشتركون فيها التكتيل بأعدائهم ، أو خصومهم ، إلا أن
هذه الثورة قد حفلت وسط الصور الدامية بصور أخرى تبرز بالبروز
والإنسانية ، ورقة الشعور . وقد ظهر هذا الطابع الإنساني أكثر ما يكون
ظهوراً بين أفراد الطبقة المتوسطة من سكان القاهرة ، فقد أظهروا في أحلك

(١) يقول الجبرقي : « باشر السيد أحمد المحروقي ، وباقي التجار ، ومسائير الناس ، الكلف
والنفقات ، والمآكل والمشارب ، وكذلك جميع أهل مصر ، كل إنسان سمح بنفسه وبجميع
ما يملكه ، وأعان بعضهم بعضاً ، وفعلوا ما في وسعهم وطاقته من المودة » .

ج ٣ ، ص ٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ص ٩١ - ٩٢ .

ساعات الثورة عواطف نبيلة ، ومشاعر سامية ، حين آووا في بيوتهم الفرنسيين العزل من السلاح ، وأضفوا عليهم الحماية ، وقدموا لهم ما كانوا في حاجة إليه من طعام ، في وقت عزت فيه الأقوات ، وتوقفت تماماً حركة البيع والشراء . وقد كشف الفرنسيون أنفسهم عن هذه الحقائق ، ومنهم من كان موجوداً بالقاهرة ، وشاهد أحداث الثورة . نذكر منهم دينوفيكا^(١) Denon Vivant فقد قال في كتابه : « لئن كان السوق وبعض الكبراء ، وكل رجال الدين ، قد ظهوروا متعصبين وقساء في ثورة القاهرة ، فإن الطبقة المتوسطة ، وهى في جميع البلاد أكثر الناس عملاً بأحكام العقل والفضيلة ، برهنت على أسى عواطف الإنسانية والكرم ، على الرغم من فوارق العادات والدين واللغة ، وهى فوارق جعلتنا أغراباً عنهم (أى عن المصريين) ، فبينما التحريض على القتل كان يجرى من شرفات المآذن بغير دينية ، وبينما كانت شبح الموت والمذابح والأشلاء تنتقل في الشوارع ، كان جميع أصحاب المنازل التى يقطنها فرنسيون يسارعون إلى إنقاذهم وإخفائهم ، وإمدادهم بحاجتهم في الحال . أخبرتنا سيدة تقيم في الحى الذى نساكن فيه أن حائطنا هو حائط مشترك ، يفصل بينها وبيننا . وإذا هوجمنا فليس أمامنا إلا أن نهلمه ونأجأ إلى مقر الحريم في دارها . وحدث أن أمدنا أحد الحيران بالقوت مما كان يحتزنه لديه دون أن نرجوه في شيء من ذلك ، مع أنه لم يكن هناك شيء يمكن شراؤه في المدينة ، وكان كل شيء يوحى بقرب وقوع مجاعة . أزال هذا الحار كل العلامات

(١) كان دينوفيكا ، أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وعضواً بمجمع مصر العلمى . وقد اختار بونايرت قصر حسن كاشف شركس بالناصرية مقراً لهذا المجمع ، وهومن أجل قصور الممالك ، واستولى على القصور المجاورة له ، والتى كان الممالك قد شيدوها ، وقد خصصها بونايرت لسكنى أعضاء المجمع وبمئة العلوم والفنون ، كقصر قاسم بك ، وقصر إبراهيم كتمندا السنارى ، وبيت أمير الحج ، المعروف بابى يوسف .

التي يمكن أن تدل على مكاننا وجلس يدخن الشباك أمام بابنا ، ليصرف عنا
 أنظار المهاجمين ويجعلهم يعتقدون أن هذا المنزل هو داره^(١)
 وأخذ المؤلف يصف حادثاً ثالثاً ، على غرار الحادثين الأولين ، ونخلص
 من ذكر هذه القصص الثلاث إلى القول بأنه « في الاستطاعة إيراد عدد من
 قصص أخرى ، ثم عن رقة الإحساس ، وتبرهن على أن العواطف الإنسانية

(1) Si la populace, quelques grands, et tous les dévots se montrèrent fanatiques et cruels dans la révolte du Caire, la classe moyenne, celle où dans tous les pays résident la raison et la vertu, fut parfaitement humaine et généreuse, malgré les mœurs, la religion et la langue, qui nous rendoient (sic) si étrangers les uns aux autres: tandis que des galeries des minarets on exaltoit (sic) saluement au meurtre, tandis que la mort et le carnage parcouroient (sic) les rues, tous ceux dont les Français habitoient (sic) les maisons s'empressoient (sic) de les sauver, de les cacher, de venir au-devant de leurs besoins. Une vieille dame du quartier où nous demeurions nous fit dire que notre mur étoit (sic) mitoyen, que si nous étions attaqués nous n'avions qu'à l'abatre, et que son harem seroit (sic) notre asyle (sic). Un voisin, sans que nous l'en eussions prié, nous fit des provisions aux dépens des siennes, tandis qu'on ne trouvoit (sic) rien à acheter dans la ville, et que tout annonçoit (sic) la disette: il ôta tous les signes qui pouvoient (sic) faire remarquer notre demeure, et vint fumer devant notre porte pour écarter les assaillants, en leur faisant croire que la maison étoit (sic) à lui....."

Denon , Vivant; Voyage dans la Basse et la Haute Egypte pendant les campagnes du Général Bonaparte. Paris, 1803, Quatrième édition, 2 vols., t. I, pp. 205-206.

(٢) كان شابان يسيران في أحد الشوارع ، فاستطفاهما أشخاص مجهولون ، وذهبوا بهما إلى أحد المنازل ، واعتقد الشابان أنهما عما قيل سية تلان على أيدي هؤلاء الأشخاص ، ولما مضى بعض الوقت دون أن يحدث لهما سوء ، اعتقدا أن ضابطيهما يتفقدون بهما لتعليمهما تمزيباً وحشياً ، يعدون أدواته ووسائله عن تفكير وروية ، ولما كان في حكم الاستحالة التفاهم بين الخاطفين ، وبين الشابين المخطوفين لاختلاف اللغة بين الفريقين ، فقد أودع الخاطفون أولادهم لديهم كرهينة ، ودليل على حسن نيتهم نحو هذين الشابين .

انظر : المرجع السابق ، نفس الجزء ، ونفس الصفحة الأخيرة .

النبيلة تتجلى أشد ما تكون روعة في الأوقات التي يبدو فيها أن العلاقات بين
بنى الإنسان قد انقطعت تماماً» :

وقد أكد المؤرخ الفرنسى المشهور ريبو Reybaud الطابع
الإنسانى فى ثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، وقال : « إن جميع الفرنسيين تقريباً الذين
التجأوا إلى بيوت الطبقة المتوسطة ^(١) ، قد وجدوا فيها أمناً تاماً ، وضيافة صادقة
خالصة ^(٢) » ، وذكر القصص الثلاث التى سردها من قبله دينو فيثا ، وعقب
عليها بقوله : إنه قد وقعت حوادث أخرى كثيرة مشابهة ، كشفت عن
عواطف إنسانية نبيلة ، تجلت فى أفراد الطبقة المتوسطة من سكان القاهرة
الذين كان عليهم أن يقفوا فى وجه مظاهر التعصب ، ولذلك فإن عواطفهم
الإنسانية النبيلة تكون أكثر قيمة ، ووزناً وتقديراً فى مثل هذه الملاحظات
التي عاش فيها أفراد الطبقة الوسطى : وأخيراً فإن هناك مؤرخاً فرنسياً محدثاً
أشاد بالمسلك النبيل لبعض سكان القاهرة حين عرضوا حياتهم للأخطار وهم
ينقذون جنوداً فرنسيين كانوا مجردين من السلاح ومعزولين عن زملائهم ،
وفوجئوا بالثوار يقبضون عليهم يريدون الفتك بهم ، فأنقذهم أهل القاهرة من
موت محقق . وأخذ هذا المؤرخ المحدث يذكر نقلاً عن ريشاردو Richardot
بعض الأمثلة على هذا الشعور الإنسانى ^(٣) :

(١) استخدم ريبو عبارة « المنازل التركية » les maisons turques ، وهو يقصد
منازل الطبقة المتوسطة من المصريين سكان القاهرة ، كما يفهم من سياق تعليقه المترجم إلى اللغة
العربية فى سياق هذه الدراسة ، أما تعليقه كما سجله قلمه باللغة الفرنسية فكان :

Une foule de traits semblables révélèrent, dans la classe
moyenne des habitants (sic) du Kaire, des sentiments (sic) d'humanités...

Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, pp. 183 - 184

(2) Op. cit., p. 183.

(3) Bainville Jacques; L'Expédition Française en Egypte. (1798 -
1801).

dans :

Précis de l'Histoire d'Egypte. par divers Historiens et Archéo-
logues. 4 vols. Tome III, Le Caire, 1933, deuxième partie. pp. 150 -
151.

العلاقة بين الشيخ السادات والفرنسيين

ونرى أن نشير هنا لإشارة سريعة إلى العلاقة بين الشيخ محمد السادات ورئيس لجنة الثورة ، وبين رجال الاحتلال الفرنسي : كان السادات على رأس علماء الأزهر الذين رفضوا عضوية الديوان ، منذ اليوم الأول الذي أصدر فيه بوناپرت قراراً بتشكيل ديوان القاهرة ، ومع ذلك فقد كان موضع رعاية خاصة من بوناپرت . أهدي إليه بوناپرت في أوائل شهر سبتمبر ١٧٩٨ خاتماً من المناسن^(١) ، كما كان يتردد عليه في داره القريبة من المشهد الحسيني ، ولكنه كان يتوجس خيفة من نشاطه ، ويحسب حساباً كبيراً لمكانته العالية في المجتمع القاهري بالذات ، وكان يعتقد أنه على صلات وثيقة بالأمرام المماليك ، وبعملاء السلطان ، وأنه يتلقى منهم رسائل سرية . وفي مذكرات بوناپرت ما يشير إلى أن هذا الاتهام كان صحيحاً ، وأنه كان ضالماً مع خصوم الحكم الفرنسي^(٢) ، ومع ذلك لم يكف بوناپرت عن التودد إليه ، رغبة في استمالته ، وقد أصدر بوناپرت قراراً في ٢٣ من أغسطس ١٧٩٨ بتشكيل لجنة برئاسة الشيخ محمد السادات وعضوية كارلو دي روسي Carlo de Rosetti قنصل النمسا العام ، والجنرال جونو Junot من قادة الجيش الفرنسي للنظر في الظلامات التي يتقدم بها الأفراد من مصادرة ممتلكاتهم أو أموالهم : ونص القرار على أن تعقد هذه اللجنة جلساتها يومياً من الساعة الثامنة صباحاً حتى الظهر^(٣) : وقد رفض الشيخ السادات عضوية اللجنة . ولم يرد في المصادر الفرنسية ما يدل على أن هذه اللجنة باشرت مهمتها . ويهمننا أن تعيين الشيخ محمد السادات رئيساً لهذه اللجنة دليل على ما كان يكتنه بوناپرت له من تقدير وإجلال

(١) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ج ٣ ، ص ١٧ .

(2) Napoléon I^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I, pp. 244-245.

(3) Correspondance de Napoléon; t. IV, doc. no. 3093. en date du 6 fructidor, VI^e, année de la République. (23 août 1798).

عميقين : كما يوجد بين أوراق بونابرت أمر أصدره في السابع عشر من شهر
سبتمبر ١٧٩٨ إلى بوسيلج Poussielgue مدير الشؤون المالية بالحيش
الفرنسي ، يوصيه خيراً بالشيخ محمد السادات ، ويطلب منه الإبقاء على جميع
امتيازاته ، ومنها جميع القرى الداخلة في التزام الشيخ السادات ، والأراضي
الزراعية ، والمرتببات المقررة له من قبل من ديوان الروزنامة^(١) . وعلى الرغم
من مظاهر الاحترام التي أوصى بونابرت بإضافتها عليه ، فقد ظل ثابتاً على
مبدئه ، لم يبدله تبديلاً ، فرأس لجنة الثورة في أكتوبر ١٧٩٨ ،

ولما تم لإخماد الثورة استجوب الفرنسيون الشيخ محمد السادات ، فنفى
عن نفسه تهمة التحريض على الثورة ، وقرر أنه كان مريضاً ، فلم يشترك
في أحداثها . ولم يأخذ بونابرت بهذا الدفاع ، وفكر في توقيع عقوبة
الإعدام عليه ، ولكنه عدل عن هذا الرأي ، لأنه أدرك أن الضرر من إعدامه
أكثر من نفعه ، إذ أن إعدامه يجعل منه شهيداً في نظر الشعب ، وكان يظفر^(٢)
بالاحترام العميق ، والتقدير البالغ في كافة بلاد الشرق :

(1) "Le Cheih Sâdât avait reçu 25,000 paras de la Monnaie, par anticipation sur ce qui lui était dû, le 1^{er} de Moharrem; mon intention est qu'il ne soit pas recherché sur ces 25,000 paras, que vous l'assuriez que tous les villages qu'il possède lui resteront, et que les titres lui en seront remis au moment de l'enregistrement, enfin que vous traitiez avec lui pour lui donner un équivalent, en terres, des pensions qu'il avait sur la Monnaie. Voyez- le ou écrivez lui pour tous ces objets".

Voir:

Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 3332. le 1^{er} jour complémentaire, VI^e année de la République. (17 septembre, 1798.)

(2) "... Il faudrait lui (le cheykh Sâdât) faire couper la tête. Dans la situation des esprits, cette mort aurait plus d'inconvénients (sic) que d'avantages, son nom était vénéré de tout l'Orient; c'eût été en faire un martyr."

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I., p. 254.

وذكر بونابرت حديثاً مشيراً ، دار بينه وبين الجنرال كليبر ، وكان الأخير قد جاء من الإسكندرية ، وذهب لمقابلة بونابرت في مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي في ٢٢ من أكتوبر ١٧٩٨ ، ووقع بصره على الشيخ السادات ، وكان يبدو و على الشيخ أنه شبه مقبوض عليه .

بونابرت — إنه زعيم الثورة .

كليبر — ولماذا لا نعلمه رمية بالرصاص ؟

بونابرت — إن هذا الشعب يختلف عن شعبنا ، وعاداته تختلف عن عاداتنا . يجب أن يكون لهذا الشعب زعماء ، وإني أفضل أن يكون زعماءه من مثل هذا الطراز الذي لا يستطيع أن يركب حصاناً ، أو يمسك سيفاً ، إني أفضل هذا الطراز من الزعماء ، على طراز زعماء مثل مراد بك وإبراهيم بك ، وإن إعدام هذا الرجل العجوز الضعيف لن ينجم عنه أى نفع ، بل سيكون له نتائج مؤسفة ، بالنسبة لنا ، غير ما تظن^(١) .

* * *

وتأزمت العلاقات مرة أخرى بين الشيخ السادات وبين بونابرت ، حين أمر الأخير في ٢٦ من يونيو ١٧٩٩ بعزل ملا زادة ابن القاضي العثماني ، واعتقاله في القلعة . اعترض الشيخ السادات على هذا القرار أمام رسول بونابرات ، وقال : إذا كان القاضي العثماني قد انضم إلى وكيل الباشا ، وغادر معه مصر ، فيجب ألا يؤخذ الابن بما فعله الأب ، وهذا الابن من أبناء العائلات الكريمة وهو بعيد عن موطنه الأصلي ، ووالدته وسائر أفراد أسرته في قلق زائد وحزن عظيم ، وأضاف إلى ذلك قائلاً : إن الفرنسيين يقولون دائماً إنهم أصدقاء للعثمانيين ، ولكن اعتقال ابن القاضي العثماني يعصف بهذا الادعاء ، ويسبب الظن بالفرنسيين ، ويكذب أقوالهم في نظر المصريين .

(1) Op. cit., p. 257.

ولما عاد الرسول إلى بونا برت ، وترجم إليه ما قاله الشيخ السادات ، اشتد حنقه عليه ، وأمر بإحضاره ، وأنبهه على موقفه ، وحجزه إلى ساعة متأخرة من الليل ، وتدخل كل من الشيخ محمد المهدي ، والمندوب الفرنسي (القوميسير) بديوان القاهرة ، واستطاعا تهديئة بونا برت ، وسمح للشيخ بالانصراف . قال الجبرتي : « فتكلم بينهما الشيخ محمد المهدي ، ووكيل الديوان الفرنسي بالديوان ، حتى سكن غيظه ، وأمره بالانصراف إلى منزله ، بعد أن عوقه حصاة من الليل »^(٢) ^(٣)

* * *

واستمر الشيخ محمد السادات تتمثل فيه أروع صور المقاومة للاحتلال الفرنسي . لقي الكثير من صنوف المهانة والاضطهاد والتعذيب على أيدي الفرنسيين ، ولكن لم تان له قناة . كان من زعماء ثورة القاهرة الثانية التي نشبت في ٢١ مارس ١٨٠٥ ، واستمرت ثلاثة وثلاثين يوماً ، ولما أخذ الفرنسيون الثورة في ٢١ أبريل ، مستخدمين أعنف الوسائل ، من إحراق أحياء بأكملها ، وقصف شديد مركز بالمدفعية ، اعتقلوا الشيخ محمد السادات . وكان هذا الشيخ الجليل الطاعن في السن ينام على التراب ، ويتوسد الحجر ، وأمر الجنرال كليبر بضربه ثلاثين عصا يومياً ، نصفها في الصباح ، ونصفها في المساء . وكان الجنود يضربونه أحياناً في حضور زوجته ، إمعاناً منهم في إيلاام الزوجة التي كانت تشاهد هذا المنظر ، والدموع تهمر من عينيها . واختصه الفرنسيون بقدر كبير من الغرامة الحربية التي فرضها كليبر على سكان القاهرة ، وصعد إليه في القلعة برتلمي اليوناني أو برطمان أو^(٤)

(١) كان هذا المندوب هو جلوتيه Gloutier .

(٢) عوقه ، معناها حجزه .

(٣) انظر تفاصيل هذه الأزمة في الجبرتي ، ج ٣ ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٤) بلغت قيمة الغرامة اثني عشر مليون فرنك ، يلفغ نصفها نقداً ، والنصف الآخر عروضاً كالحلى الذهبية والتحف وما إليها ، وكان نصيب الشيخ السادات من هذه الغرامة مائة وخمسين ألف ريال ، أي ما يقرب من ثمانمائة ألف فرنك ، وذلك بعد أن أضيفت إليه الغرامة المقررة على الشيخ المعناني ، وكان الأخير قد هرب ، وكانت دأره قد احترقت .

« فرط الرمان » ، ومعه زين الفقار كتحدا بونابرت ، فطلب منهما الإذن له في النزول إلى داره ، لتدبير المسال المطالب بدفعه ، وفاء للغرامة المفروضة عليه . قال الجبرتي وهو يصور هذه المشاهد الدامية : « ونزل الشيخ السادات وركب إلى داره ، فذهب معه عشرة من العسكر ، وجلسوا على باب داره ، فلما مضت حصبة من الليل حضر إليه مقدار عشرة من العسكر أيضاً ، فأركبوه ، وطلعوا به إلى القلعة وحبسوه في مكان . فأرسل إلى عثمان بك البرديسي ، وتدخل عليه فشفع فيه . فقالوا له : أما القتل فلا تقتله لشفاعتك ، وأما المال فلا بد من دفعه ، ولا بد من حبسه وعقوبته حتى يدفعه ، وقبضوا على فراشه ومقدمه وحبسوهما ، ثم أنزلوه إلى بيت قائمقام ، فمكث به يومين ، ثم أبعده (٢) إلى القلعة ثانياً ، وحبسوه في حاصل ، ينال على التراب ويتوسد بحجر ، وضربوه تلك الليلة ، فأقام كذلك يومين ، ثم طاب زين الفقار كتحدا ، فطلع إليه هو وبرطلمان : فقال لهما أنزلوني إلى داري حتى أسعى وأبيع متاعى وأشهل حالى ، فاستأذنوا له ، وأنزلوه إلى داره ، فأحضر ما وجده من الدراهم ، فكانت تسعة آلاف ريال معاملة ، منها ستة آلاف ريال فرانسة ، ثم قوموا ما وجدوه من

(١) بمقتضى النظام الذى وضعه بونابرت لديوان القاهرة الجديد الذى أنشأه في ٢١ من ديسمبر ١٧٩٨ بعد تعطيل الديوان الأول ، أنشئت وظيفتان لمندوبين ، أحدهما فرنسى وهو جلوتيسه الذى سبق أن أشرنا إليه ، والآخر مسلم هو الأمير زين الفقار ، وكان يطلق عليه : كتحدا بونابرت أى وكيل بونابرت وجاء في وثائق بونابرت أن اسمه : ذو الفقار .

Correspondance de Napoléon; t. v, doc. no. 3785, en date du 1^{er} Nivôse an VII de la République (21 decembre 1798).

(٢) المقدم هو وكيل أعمال شخص كبير ، له نشاط واسع ، وتستخدم أيضاً بمعنى وكيل دائرة أعمال ، كما تستخدم في مجالات الطوائف والطرق الدينية بمعنى الشخص الموكل بإعطاء العهد بالنيابة عن شيخ الطريقة .

(٣) حاكم القاهرة العسكرى ، وقائد حاميتها .

(٤) الحاصل ، هو الفرقة التى تستخدم لحزن البضائع .

(٥) انظر ما ذكره نقولا ترك عن ختم بيته ومحلاته ، وكيف باع الفرنسيون أمتهته ، ص ٩٠ من الأصل العربى ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فهد .

(٦) قوموا ، أى قدروا قيمتها أو ثمنها .

المصاغ والفضيات ، والفراوى والملابس وغير ذلك بأئحس الثمن ، فبلغ ذلك خمسة عشر ألف فرانسة ، فبلغ المدفوع بالنقدية والمقومات أحدى وعشرين ألف فرانسة ، والمحافظون عليه من العسكر ملازموه ، لا يتركونه يطلع إلى حريمه ولا إلى غيره . وكان وزع حريمه وابنه إلى مكان آخر ، وبعد أن فرغوا من الموجودات جاسوا خلال الدار يفتشون ، ويحفرون الأرض على الخبايا ، حتى فتحوا الكنيقات^(١) ، ونزلوا فيها فلم يجدوا شيئاً ، ثم نقاوه إلى بيت قائم مقام ماشياً ، وصاروا يضربونه خمسة عشر عصا في الصباح ، ومثلها في الليل ، وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوها ، فأحضروا محمد السندوني تابعه وقروره حتى عاين الموت ، حتى عرفهم بمكانهما ، فأحضروهما وأودعوا ابنه عند أغات الإنكشارية ، وحبسوا زوجته معه ، فكانوا يضربونه بحضرتها وهي تبكى وتصيح ، وذلك زيادة في الإنكاء : ثم إن المشايخ وهم : الشرقاوى ، والفيومى ، والمهدى ، والشيخ محمد الأمير ، وزين الفقار كتمخدا ، تشفعوا في نقلها من عنده ، فنقلوها إلى بيت الفيومى ، وبقي الشيخ على حاله ، وأخذوا مقدمه وفراشه وحبسوها ، وتغيب أكثر أتباعه واختفوا »^(٢)

وأضاف الخبر في صورة أخرى من الاضطهاد الذى تعرض له الشيخ السادات في الشهر التالى وهو المحرم ١٢١٥ (٢٥ مايو—٢٣ يونيو ١٨٠٠) فقال « أصعدوا في الخامس من محرم الشيخ السادات إلى القلعة ، وكان أرسل إلى كبار القبط بأن يسعوا في قضيته ورهن حصصه ، ويغلق الذى عليه ، فردوا عليه بأنه لأبد من تشميل قدر نصف الباقي أولاً ، ولا يمكن غير ذلك ، وأما الحصص فليست في تصرفه ، ولما تكرر إرساله للنصارى وغيرهم ، نقلوه إلى القلعة ، ومنعوه الاجتماع بالناس ، وهى المرة الثالثة »^(٣)

(١) معناها المراحض ، ومفردها كنيف أى مرحاض ، وهى تجمع كنف بضم الكاف والنون

(٢) معناها أكرهوه على الاعتراف ، عن طريق التلمذيب البدنى .

(٣) الخبر ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٠٨ .

(٤) معناها يسدد ما عليه .

(٥) الخبر ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١١٥ .

وقد أكد هذه الواقعة وزاد عليها الشيخ عبد الله الشرفاوى شيخ الجامع الأزهر وهو يتناول وقائع ثورة القاهرة الثانية ، فقال إن الفرنسيين «باعوا جميع متاع الشيخ السادات ، فلم يف بثلاث ما طلب منه ، فأخذوا منه في نظير الباقي^(١) التزامه وتعلقاته ، ماعدا العقار والرزق ، والتزام الحرير » .

ولبونا برت رأى خطير وصريح ، سجله في مذكراته ، إذ قرر أن سوء المعاملة التي لقيها الشيخ السادات كانت سبباً غير مباشر في قتل الجنرال كليبر . انتقد لبونا برت إسراف الفرنسيين في تعذيب هذا الشيخ وإهانته ، عقب إخمادهم ثورة القاهرة الثانية ، وقال إنهم تغافلوا عن مركزه الممتاز ، وتناسوا أنه ينتمى إلى الأسرة النبوية الشريفة : وقد كان للقسوة التي لقيها صدى أليم في نفوس الشعب بعامة ، ورجال الأزهر بخاصة ، فلم ينسوا ما فعله كليبر بالشيخ السادات : ولما جاء سليمان الحلبي إلى مصر معتزماً قتل كليبر ، أقام في الأزهر ، واستطالت إقامته في المسجد قرابة ثلاثين يوماً ، ولكن تجاهل الأزهريون نية القاتل ، ووقفوا موقفاً سلبياً ، فلم يخطر الساطات الفرنسية بما يبيتته سليمان الحلبي من خطط لاغتيال كليبر ، لأنهم كانوا يرجون^(٢) انتقاماً ذريعاً من كليبر .

وتعرض لبونا برت مرة أخرى في مذكراته لهذا الموضوع ، فقرر أن ضرب الشيخ محمد السادات بالعصا أثار السخط العام بين علماء الأزهر ، وامتد هذا السخط إلى سائر قطاعات الشعب المصري ، وما لبثت أن احتدمت غضباً بلاد الشرق بأجمعها ، وقد دفع كليبر الثمن غالياً ، وانتقم مشايخ الأزهر

(١) الشيخ عبد الله الشرفاوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٥٧ - ٥٨ .

(2) Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. p. 257

منه انتقاماً قاسياً^(١) . ولا يزال إلى اليوم بعض المؤرخين الفرنسيين يشاطرون
بونابرت رأيه ، وينسبون اغتيال الجنرال كليبر إلى سوء معاملته للشيخ
محمد السادات^(٢) .

وللمرة الرابعة اعتقل الفرنسيون الشيخ محمد السادات ، وتم هذا الاعتقال
في أوائل شهر مارس ١٨٠١ عقب وصول الحملة البريطانية إلى الإسكندرية
في أول مارس ، وكانت بقيادة أدميرال لورد كايت^(٣) Keith ، واستبد
الانزعاج والاضطراب بالفرنسيين ، واستفسر الشيخ السادات عن سبب
اعتقاله في هذه المرة الرابعة ، فكانت الإجابة ، أنه اشتهر بمقتته الشديد
للفرنسيين ، وبمقدرته على إثارة عواطف الجماهير ، واستجابة الشعب له ،
وهي ذرائع انتحلها الفرنسيون لتبرير اعتقاله . وقد ظل في الاعتقال إلى أن تم
جلاء الفرنسيين عن القاهرة : ويقرر الجبرتي أن اعتقاله الأخير قد تم « من
غير إهانة^(٤) » ، وتختلف مع الجبرتي في هذا الوصف ، لأنه ليس من الضروري
أن تلحق الإهانة بجسم الإنسان ، فهناك ما هو أبلغ من الإهانة الجسدية ، وهو
إيلام النفس . لقد تعرض الشيخ السادات في أثناء اعتقاله لمحنة أليمة ، إذ توفي
ابنه ، فلم يفرج الفرنسيون عنه ، وكل ما فعلوه أنهم سمحوا له بالاشتراك
في تشييع الجنازة ، ونزل من القلعة وهو تحت الحراسة ، ولما انتهت الجنازة
أعيد إلى المعتقل ، وهو يبكي ابنه وفلذة كبده ، وقد كان يعلق عليه أعذب

(1) ibid. t. II, pp. 349-350.

(2) Bainville J; ouvr. cit., p. 151.

(3) كانت هذه الممارسة تحمل جيشاً بريطانياً بقيادة الجنرال سير رالف أبركومبي Sir Ralf Abercomby
وتصحبها بعض سفن المدفعية العثمانية ، وقوة برية عثمانية ، وقد ظهرت المارة تجاه الإسكندرية ،
في أول مارس ، وألقت مراسيها في خليج أبي قير في صباح اليوم التالي ، وأزلت جنودها إلى
شاطئ أبي قير في ٨ مارس .

(4) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٥٠ .

الآمال : ذكر الجبرقي وهو يترجم للشيخ محمد السادات : « ومات ولده الذى كان سماه محمد نور الله ، وهو معوق وممنوع ^(١) ، فأذوا له فى حضوره جنازة ولده ، فنزل وصحبته شخص حرس منهم ، فلزمه حتى واره ، وعاد به ذلك الحرس إلى القلعة ^(٢) ، وكان هذا الولد مراحقاً ، له من العمر اثنتا عشرة سنة ، كان فى أمه أن يكون هو الخليفة فى بيتهم من بعده ، وبأبى الله ^(٣) إلا ما يريد » .

وبينما كان الشيخ السادات فى معتقله يعانى آلام الوحدة والحزن ، إذا به ينقل إلى مسجد سارية بالقلعة ^(٤) ، وفوجئ بوجود أربعة من كبار المشايخ علماء الأزهر معتقلين فيه ، وهم : الشرقاوى ، شيخ الجامع الأزهر ورئيس

(١) منهاها معتقل ، وهناك مصطلح تاريخى كان أكثر شيوعاً فى ذلك الوقت هو « ومنع الإنسان تحت اليسق » .

(٢) منهاها الحارس .

(٣) الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٤) هو مسجد فى قلعة الجبل ، بالقرب من زاوية الشيخ محمد الكمكى ، ويسمى على مباركة جامع سيدى سارية ، وتطلق عليه مصالحة الآثار . مسجد سارية الجبل ، واشتاع على الإنسية أن هذا المسجد ينسب إلى صحابي جليل هو سارية بن ذئب بن عمرو بن عبد الله بن جابر بن عبد الله وينسب له إلى كنفاته . وقد استعرض ابن جرير فى راجلته مشاهدة الصحابة فى مصر ، فذكر منها مسجد سارية الجبل ، وقرر المقرئى فى شفاطه عند ذكر موضع القمامة ، فقال : من كتب المزارات ، أن أبا الحسن الرضى دفن بقط سارية ، شرق تربة الكبروان بالقمامة ، وفى طرقات الشجر أن أن الشيخ محمد الكمكى مدفون بزاويته بالقرب من سيدى سارية ، ولكن لم ترد فى كتب التاريخ أن هذا الصحابي الجليل جاء إلى مصر ، أو مات بها ، أو دفن فيها ، وسارية الجبل هو صاحب القمامة المشهورة ، المنسوبة إلى عمر بن الخطاب ، وقد وردت هذه القصة فى كتب وأمد القاموس فى معرفة الصحابة . ويجمع فريق من الباحثين على أن إنشاء هذا الجامع يرجع إلى العصر الفاطمى على أمد تقدير ، وأنه كان موضع رعاية الملوك والخلفاء والسلاطين لانتسابه إلى صحابي جليل ، فكانوا يهابون إليه التبرك به ولعل قضاياهم الهامة . وقد جسد بناء سليمان باشا الخادم الوالى العثاق من قبل السلطان سليمان المشرع سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٨ م) ، وهذا المسجد مسجل فى مصلحة الآثار المصرية تحت رقم ١٤٢ (انظر : فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة ، طبعة سنة ١٩٥١) .

ديوان القاهرة ، والمهدى ، والصاوى ، والفيوى ، وكان الأمر قد صدر باعتقالهم فى الساعة الرابعة من صباح ٢٥ من مارس ١٨٠١ ، بعد أن تأكدت الأنباء بتدهور مركز الفرنسيين الحربى فى مصر ، ثم صدر أمر لاحق فى أواخر مايو ، باعتقال الشيخ محمد الأمير .

مزید من سياسة بوناپرت الإسلامية

على الرغم من نشوب ثورة أكتوبر فى القاهرة ، والدور القيادى الذى اضطلع به الأزهر فى التخطيط لها ، وفى المشاركة فى أحداثها ، مضى بوناپرت فى سياسته الإسلامية ، ولكن اتسمت هذه السياسة فى الفترة التى أعقبت ثورة أكتوبر مباشرة بالنقض ، فقد أمر بتحويل بعض المساجد إلى قلاع ، وهدم البعض الآخر لأغراض تبدو فى ظاهرها لتجميل القاهرة ، ولكنها كانت لخدمة الأغراض العسكرية ، بإيجاد طرق واسعة مستقيمة ، تستطيع القوات الفرنسية التحرك فيها بسهولة وسرعة ، لمواجهة سكان القاهرة إذا قاموا بثورة أخرى . وقد أساءت هذه الإجراءات إلى المشاعر الدينية لدى الشعب المصرى ^(١)

(١) نذكر على سبيل المثال : جامع الظاهر ببيرس ، جعل الفرنسيون منه حصناً حصيناً ، واتخذوا من منارته برجاً ، ونصبوا على أسواره الضخمة مدافع ، ورابط الجنود بجيولهم داخل المسجد ، وأقاموا فيه مساكن ومنشآت عسكرية ، وأطلقوا على الجامع « قلعة سلكوفسكى » Le Fort Sulkowski ، وهو ياور بوناپرت الذى قتله الثوار فى ٢٢ أكتوبر ، ولم ترق الجبرق ، هذه التسمية ، فكان يطلق على هذا الحصن تارة قلعة جامع الظاهر ، وتارة أخرى القلعة الظاهرية .

انظر كلامن :

Guémard G.; Inscriptions françaises de l'enceinte du Caire. Paris, 1929, p. 9.

La Jonquière; ouvr. cit., t. III, p. 290.

الجبرق مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٣٣ - ٣٤ .

(٢) نذكر على سبيل المثال : الجامع المجاور لقنطرة الدكة غربى الأزبكية ، هدموه بحجة توسيع ميدان الأزبكية ، كما هدموا المساجد المجاورة لقنطرة إمبابية ، ومسجد المقدس ، المعروف باسم مسجد أولاد عنان .

Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV. pp. 192-193.

واعتبرها انتهاكاً صارخاً جديداً لأماكن العبادة ، وأمرأ يتعارض مع تصريحه لعلماء الأزهر في مقابلة ٢٤ أكتوبر ١٧٩٨ بأنه يريد أن تستمر إقامة الصلاة في المساجد بانتظام ، وعلى النحو الذى جرت به العادة من قبل . ولكن بوناپرت كان يعتمد اعتماداً كلياً في تلك الفترة بالذات على حكم الإرهاب :

إعادة ديوان القاهرة

كان بوناپرت قد عطل ديوان القاهرة ، كنوع من العقوبة لسكان القاهرة خلال فترة اشتدت فيها وطأة الإرهاب ، وترادفت المظالم ، وتوالت المحن على أهل القاهرة ، ثم ظهر له خطأ تعطيل الديوان ، إذ زادت الوحشة بين القاهريين والفرنسيين ، وسيطر شعور العداء على العلاقات بين الفريقين . وقد صور الأستاذ عيسد الرحمن الرافعى الحالة النفسية التى حمت بوناپرت على التفكير في إعادة ديوان القاهرة ، فقال إنه « أدرك أن استمرار حكم الفزع والإرهاب في القاهرة يجعل البلاد كلها في هرج الثورة ومرجها ، ويزعزع الاحتلال الفرنسى ، ويضعه بالعجز عن إقرار الخواطر وتهديتها ، ورأى (بشاقب نظره) أن ليس في مقدوره حكم البلاد بقوة السيف والنار ، وتبين له من تجربة تعطيل الديوان أن لا سبيل إلى حكم الشعب دون وساطة زعمائه وكبرائه ، فعاد يفكر في إعادة الديوان بعد أن استمر معطلاً أكثر من شهرين » . وقصد أصدر بوناپرت منشوراً في ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ بإعادة الديوان ، ووضع له (١) اعلناً تختلف مع الأستاذ الرافعى حين قال : إن فطرة بوناپرت في حكمه للشعب المصرى ،

كانت دائماً ثابتة .

(٢) تاريخ الحركة القومية ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، الطبعة الثالثة ص ١٠ .

(٣) وثيقة رقم ٣٧٨ ، تاريخها أول يوم من شهر نيفوز من السنة السابعة من التقويم الجمهورى .

Correspondance de Napoléon, t. V.

نظاماً جديداً ، بحيث يكون أكثر تمثيلاً لسكان القاهرة على اختلاف مهتهم ،
وحر ففهم ، ودياناتهم^(١) .

الاحتفال برؤية هلال شهر رمضان

اتخذ بونابرت من اقتراب موعد بدء شهر رمضان ١٢١٣ فرصة للتقرب
إلى سكان القاهرة ، جرياً على سياسته الإسلامية ، فأصدر أوامره إلى محتسب
القاهرة ، واسمه حسن أغا محرم ، بإقامة احتفالات رائعة ابتهاجاً بحلول شهر
رمضان ، وأن تسير فى شوارع القاهرة ليلة الصيام المواكب الدينية التقليدية ،
ومواكب الطوائف ، يتصدرها شيوخها ونقبائها ، وأعلامها وشاراتها ،
وأن تمر هذه المواكب بدار بونابرت ، ودار حاكم القاهرة العسكرى ، ودار قاضى
القضاة ، ودار أمير الحج . يقول الخبرتى وهو يستعرض حوادث ٢٦ شعبان
١٢١٣ : « أعرض حسن أغا محرم المحتسب لساى عسكر أمر ركوبه المعتاد
لإثبات هلال رمضان ، فرسم له بذلك على العسادة القديمة ، فاحتفل لذلك
المحتسب احتفالاً زائداً ، وعمل وليمة عظيمة فى بيته أربعة أيام ، أولها السبت
وآخرها الثلاثاء ، دعا فى أول يوم العلماء والفقهاء والمشايخ والوجاقية وغيرهم ،
وفى ثانى يوم التجار والأعيان ، وكذلك ثالث يوم ورابع يوم دعا أيضاً أكابر
الفرنساوية وأصاغرهم . وركب يوم الثلاثاء بالأهبة الكاملة زيادة عن العادة ،
وأمامه مشايخ الحرف بطبولهم وزمورهم ، وشق القاهرة على الرسم المعتاد ،

(١) كان الديوان يتكون من هيتين : الديوان الكبير أو العمومى ، ويتكون من ستين عضواً
عينهم الفرنسيون ، وتضمن قرار إنشاء الديوان اسماءهم ، وكانوا يمثلون مجتمع القاهرة على
النحو الآتى : ١٤ من علماء الأزهر والمشايخ ، ٢٦ من التجار والصناع ، ١١ من العسكريين ،
٢ من مشايخ الأخطاط ، ٤ من الأقباط ، ٣ من الأجانب . والديوان الدائم أو الخصوصى ، ويتكون
من أربعة عشر عضواً ، ينتخبهم أعضاء الديوان العمومى من بينهم ، وقد انتخب الشيخ عبد الله
الشرقاوى رئيساً ، والشيخ محمد المهدي سكرتيراً .
(٢) أميد شهر رمضان ١٢١٣ من ٦ فبراير ١٧٩٩ حتى ٧ مارس ١٧٩٩ .

ومر على قائمقام ، وأمير الحج ، وسارى عسكر بونا برته ، ثم رجع بعد الغروب إلى بيت القاضي بين القصرين ، فأثبتوا هلال رمضان ليلة الأربعاء ، ثم ركب من هناك بالموكب ، وأمامه المشاعل الكثيرة ، والطبول والزمر والنقّاقير^(١) والمناداة بالصوم ، وخلفه عدة خيالة عارية رعوسهم ، وشعورهم مرخية على أقميتهم بشكل بشع مهول^(٢) . وكتب بونا برت في ١٠ فبراير ١٧٩٩ إلى حكومة الديركتوار في باريس رسالة ضافية ، تناولت شتى المسائل ، وكان مما جاء بها أنه احتفل بشهر رمضان احتفالاً بلغ أروع مظاهر العظمة ، وأنه قام بذات المراسيم التي كان يؤديها من قبل الباشا العثماني^(٣) . ويلاحظ أن هذه الاحتفالات قد أقيمت خلال الأيام القليلة التي سبقت سفره إلى بلاد الشام على رأس الحملة العسكرية ، وكان قد غادر القاهرة في العاشر من فبراير (٥ من رمضان) ، ويلاحظ أيضاً أنه أمر المنادين بالمرور في شوارع القاهرة ، منذ أول يوم في شهر رمضان ، ينهون على المسيحيين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم باحترام تقاليد شهر الصيام ، فلا يتجأهرون بالأكل أو الشرب ، أو التدخين في الأسواق ، أو يمرأى من المسلمين^(٤) .

(١) النقّاقير : هي الطبول الكبيرة الحجم .

(٢) الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٣ .

(٣) وثيقة رقم ٣٩٥٢ مؤرخة في الثاني والعشرين من شهر يوليوس من السنة السابعة من التقويم الجمهوري (١٠ من فبراير ١٧٩٩) من بونا برت إلى حكومة الديركتوار

Correspondance de Napoléon, t. V.

وقد جاء فيها :

« Le Ramazân, qui a commencé hier, a été célébré de ma part avec la plus grande pompe; J'ai rempli les mêmes fonctions que remplissait autrefois le pacha. »

(٤) سبق أن أشرنا إلى هذه النقطة عند الكلام على العامل الرابع من العوامل المساعدة على قيام ثورة أكتوبر ، ونضيف هنا حادث اعتداء بالضرب وقع من أحد المتهمين من سكان القاهرة ، عندما شاهد أحد المسيحيين يدخن في أحد أيام رمضان ، فانتهره ، فرد عليه المسيحي وأغلظ له =

الفرنسيون يجاملون المسلمين في شهر رمضان

جامات السلطات الفرنسية^(١) المسلمين إلى حد بعيد في خلال شهر رمضان ١٢١٣ (٦ فبراير - ٧ مارس ١٧٩٩) ، مما كان موضع عجب المسلمين ودهشتهم ، ولا بد أن هذه المجاملات كانت بإيعاز من بوناپرت قبل أن يغادر القاهرة إلى الشام في ٥ من رمضان . وتعددت مظاهر المجاملات ، وكان من بينها : « أن الفرنسية صاروا يدعون أعيان الناس والمشايع والتجار للإفطار والسحور ، ويعملون لهم الولائم ، ويقدهون لهم الموائد على نظام المسلمين وعادتهم ، ويتولى أمر ذلك الطباقون والفراشون من المسلمين تظميناً لخواطرمهم ، ويذهبون هم أيضاً ويحضرون عندهم الموائد ، ويأكلون معهم في وقت الإفطار ، ويشاهدون ترتيبهم ونظامهم ، ويحذون حذوهم ، ووقع منهم من المسيرة للناس ، وخفض الجانب ما يتعجب منه ، والله أعلم » .

ولاحظ الجبرقي أيضاً كنوع من مجاملات الفرنسيين للشعب المصري في شهر رمضان ١٢١٣ الحرية المطلقة التي تركها الفرنسيون لأهل القاهرة في ليالي هذا الشهر ، من فتح الأسواق والمحلات ليلاً « والذهاب والمجيء » ،

في القول ، فنزل المتعمم من دابته وضربه « واجتمع عليه الناس ، وحضر حاكم الخطة ، فرفعهما إلى قائمقام ، فسأل (أى استفسر) من النصارى الحاضرين عن عادتهم في ذلك ، فأخبروه أن من عادتهم القديمة أنه إذا استهل شهر رمضان لا يأكلون ولا يشربون في الأسواق ، ولا يبرأى من المسلمين أبداً ، فضرب النصارى ، وترك المتعمم لسبيله » .

انظر : الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٥ .

(١) كان بوناپرت قبل سفره إلى بلاد الشام قد أصدر أمراً بتعيين الجنرال دوجا حاكماً للقاهرة والوجه البحرى ، ووكيلاً عنه في أثناء غيابه ، ويطلق عليه الجبرقي القائمقام دوجا ، وكان يساعده يوسيلج مدير الشؤون المالية ، وكان يشرف على الشؤون الإدارية ، وقد ترك بوناپرت للأوفى تعليمات ضافية عن الطريقة التي يتبعها في حكم القاهرة بالذات في أثناء غيابه ، وكان من بينها مجاملة أعضاء الديوان ، واحترامهم ورعايتهم .

انظر الوثيقة رقم ٣٩٥٠ .

وزيارة الإخوان ليلاً ، والمشي على العادة بالفوانيس ودونها ، واجتماع الناس للسهر في الدور والقهوى ، ووقود المساجد ، وصلاة التراويح ، وطواف المسحرين ، والتسلي بالرواية والنقل ، وترجى المأمول^(١) .

وكان من بين هذه المجاملات إخلاء الطرق من العسكريين ، وعدم مرور المتخلفين منهم إلا في النادر ، واختفاؤهم بالليل جملة .

موكب كسوة الكعبة

وأمر بونابرت برصد اعتماد مالى كبير لعمل الكسوة الشريفة ، بحيث يزداد في زخارفها ونقوشها ، لتفوق في روعتها مثيلاتها التي كانت تصنع في مصر في العهود الإسلامية السابقة على دخول الفرنسيين البلاد^(٢) ، وياوح أن السلطات الفرنسية قد تراخت في تنظيم موكب الكسوة بعد سفر بونابرت في حملته على الشام ، لأنه طبقاً للتقاليد التي سار عليها أهل القاهرة كان الاحتفال بالكسوة يتم في أول يوم سبت يحل بعد انتهاء شهر رمضان^(٣) ، وانقضى هذا اليوم دون أن يحدث شيء ما ، وانتهز المرجفون في المدينة هذا الموقف السلبى للسلطات الفرنسية ، فأذاعوا أن الفرنسيين يزمعون إلغاء الحج إلى بيت الله الحرام ، وكانت هذه أول سنة يحل فيها موسم الحج بعد الاحتلال الفرنسى لمصر ، وسارعت السلطات الفرنسية إلى الرد عملياً على هذه الشائعة ، ولجأت إلى وسيلة الإعلام المألوفة وقتذاك ، فأمرت المذاين بأن ينطلقوا في شوارع القاهرة في يوم الجمعة ٨ من شوال يذيعون أن الاحتفال بالكسوة

(١) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٨ .

(2) Napoléon I^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. pp. 228-229.

(3) Reybaud Louis et autres, ouvr. cit., t. V. pp. 151-152.

الشريفة يتم في اليوم التالي (السبت ٩ من شوال ١٢١٣ - ١٦ من مارس ١٧٩٩) ،
وقد حرصت السلطات الفرنسية حرصاً بالغاً على إضفاء أهمية زائدة على موكب
الكسوة ، ليجيء بالغ الروعة ، جامعاً لمظاهر العظمة ، فأشركت في الموكب
أفراد شتى الهيئات الرسمية : الدينية والمدنية والعسكرية بملابسهم الرسمية ،
وفرقة الموسيقى : يقول الجبرقي : « وفي ثامن (شوال ١٢١٣) يوم الجمعة^(١)
نودى في الأسواق بموكب كسوة الكعبة المشرفة من قرا ميدان^(٢) ، والتنبيه
باجتماع الوجاقات ، وأرباب الأشراف وخطابهم على العادة في عمل الموكب ،
فلما أصبح يوم السبت اجتمع الناس في الأسواق وطريق المرور ، وجاسوا^(٣)
للفرجة ، فبروا بذلك ، وأمامها الوالى والمحاسب ، وعليهم القفاطين والبيّنشات^(٤)
وجميع الأشراف بطبوعهم وزمورهم وكاساتهم^(٥) ، ثم برطامين^(٦) كخدا مستحفظان^(٧)

(١) قرا ميدان : كلمتان معناهما الميدان الأسود ، وهو يقع بين قلعة الجبل ومساجد السلطان
حسن ، والرفاعي ، والمحمودية ، وتقوم في وسطه حديقة صغيرة ، وكانت توجد به مصطبة
المحمل ، ويبدأ منها سير موكب المحمل ، ويعرف هذا الميدان حالياً باسم ميدان صلاح الدين ،
وكان يطلق عليه في بعض الفترات سوق العصر .

(٢) الوالى ، معناها هنا رئيس الشرطة .

(٣) القفاطين ، جمع قفطان ، ومعناها هنا رداء رسمى كان يرتديه أصحاب المناصب الكبرى ،
أو الذين يعهد إليهم القيام بمهام كبيرة ، وجرت التقاليد في العصر العثماني على أن يقدم الباشا
العثماني هذا القفطان في حفل كبير يقام في القلعة ، ويتلى فيه فرمان السلطان بتقليد المحلى
به المنصب ، أو ترقية إلى أمير طبلخانة ، أى الأمير الذى تدق له الطبول عند تحركاته ، لسمو
مركزه ، وينزل المحتفل به من القلعة ، مرتدياً هذا القفطان في موكب رهنى إلى داره .

(٤) بينشات : جمع بينش ، وهو نوع من القفاطين ، وصاحبه أقل مركزاً من صاحب القفطان
(٥) جميع الأشراف : معناها أفراد جميع طوائف الأشراف ، ويطلق عليهم أرباب الأشراف ،
أو أصحاب الأشراف ، وتنسب كل طائفة إلى أحد مشايخ الطرق الصوفية ، ويذهب أفراد الطائفة
معاً في الليل للاشتراك في الاحتفالات التى تقام بمناسبة موالد الأولياء ، ولكل طائفة شعارها وعلمها
ويرتدى أفرادها زياً موحداً ، ويتقدمهم حملة الطبول ، ومدفأة فيها فحم موقد ، يضعون فوقها
طبوعهم برهة من الوقت ، حتى يكون للطبل صوت داو .

(٦) الكاسات : هى قطع من النحاس مستديرة الشكل ، فى حجم الرياء ، تمسك فى أصابع
اليدين ، وتضرب كل قطعتين بعضهما ببعض ، فينبعث منها صوت موسيقى إيقاعى ، وهى لا تزال
تستخدم فى الرقص الشرقى بوجه خاص ، ويطلق عليها « صاجات » .
(٧) هو برتلنى اليونانى ، أو برطامان ، أو فرط الريان ، وكيل محافظة القاهرة .

وأمامه نفر الينجكارية من المسلمين نحو المائتين أو أكثر ، وعدة كثيرة من نصارى الأروام بالأسلحة ، والملازمين بالبراقع ، وهو لايس فروة عظيمة ، ثم مواكب القلقات ^(٢) ، ثم مواكب ناظر الكسوة وهو تابع مع طائفة ^(٣) كتحذا الباشا ، وخلفه النوبة التركية ^(٤) » ^(٥) .

ويتضح من كتابة الجبرقي أن السلطات الفرنسية وهى فى حرصها على إضفاء مظاهر الأبهة على الموكب قد تخطت فى تنظيمه ، فأشركت عناصر غير مرغوب فى وجودها فى مثل هذا الاحتفال الدينى الإسلامى ، وبعاق الجبرقي تعليقا لاذعاً على هذا التخطيط الذى لازم سياسة الفرنسيين فى تنظيم الموكب ، إذ يقول : « فكانت هذه الركبة من أغرب المواكب ، وأعجب المعائب ، لما اشتملت عليه من اختلاف الأشكال ، وتنوع الأثمان ، واجتماع الملل ، وارتفاع السفل ، وكثرة الحشرات ، وعجائب المخاوقات ، واجتماع الأضداد ، ومخالفة الوضع المعتاد » . وواضح أن ما أثار الجبرقي هو

(١) معناها الإنكشارية .

(٢) سبق شرح هذا المصطلح التاريخى فى ص ٨٧ ، هاشم رقم ٥ من هذه الدراسة .
(٣) ناظر الكسوة ، مصطلح تاريخى معناه مدير مصالحة الكسوة الشريفة ، وكان مقر هذه « المصلحة » فى القلعة ، فإذا انتهى العمل من صنعها وزخرفتها ، نقلت هذه القلعة شهر رمضان إلى مسجد الإمام الحسين ، وتودع به حتى يحين موعد قيام قافلة الحج المصرى ، وهو فى العادة فى أول النصف الثانى من شهر شوال ، فتنتقل إلى الحجاز فى حراسة أمير الحج ، وسردار الحج . وكان يتم نقل الكسوة الشريفة من القلعة إلى المسجد الحسينى فى احتفال رسمى ، يبدأ من قراقرم إلى أم القلعة ، ويكون أمير الحج وسرداره ، والأمراء المالكي ، وخمسائة جيش الاحتفال العثمانى فى انتظار إزال الكسوة من القلعة إلى حيث يبدأ الاحتفال ، وينزل الباشا من القلعة إلى المسجدان ، وتنتقل أجزاء الكسوة على جمال مخصصة لهذا الغرض ، ويبدأ الموكب الرسمى ، وتسير فيه طائفة من الجيش ، والموسيقى العسكرية ، والعلماء ، وأرباب العارقي الصوفية ، وشيوخ الطوائف ومن إليهم ، وينتهى الاحتفال عند مسجد الإمام الحسين .

(٤) معناها فرقة الموسيقى .

(٥) الجبرقي ، مصادر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

وجود برتلمى ، أو فرط الرمان ، فى حفل دينى إسلامى ، واهتمام هذا اليونانى الشرس بالناحية المظهرية ، يضيفها على شخصه :

رفع الأعلام على منارات الأزهر

مضى بونايرت يحاول إظهار توقيره للجامع الأزهر بشقى الوسائل التى تراءى له ، فلما احتل الجيش الفرنسى قلعة العريش فى ٢٠ من فبراير ١٧٩٩ ، وهوى طريقه إلى عكا ، أرسل كتيبة من الجنود إلى القاهرة تحمل الأعلام التى غنمها فى تلك القلعة ، وعهد إلى الجنرال دوجا نائبه فى حكم مصر أن يرفعها على منارات الجامع الأزهر كوسيلة إعلامية بانتصار الفرنسيين ، وكتب إليه من العريش فى ٢٢ من فبراير ١٧٩٩ يقول : « إنى أريد أن تقابلوا الشيخ المهدى ، وشقى أعضاء الديوان ، وتتفقوا معهم على إقامة حفل صغير لاستقبال الأعلام المرسلة إليكم . وإذا كان فى الاستطاعة تنظيم هذا الحفل بطريقة طبيعية ، فضعوها فى الجامع الأزهر إيداناً بالانتصار الذى أحرزه جيش مصر على عساكر الجزائر وأعداء المصريين^(١) . ويعلق الأستاذ عبد الرحمن الرافعى على هذه الرسالة بقوله : « بهذه العبارة الرقيقة أراد نابليون أن يجتذب إليه قلوب المصريين ، وأن يشعرهم السرور بانتصار الفرنسيين ، ولذلك تراه يعبر عن جيشه بأنه « جيش مصر » ، وأنه انتصر على الجزائر ، وعلى « أعداء المصريين » ، ولا يمكن أن يعبر بأحسن من هذا الأسلوب ، لمحاولة اكتساب قلوب الشعب ، ولكن هيات أن ينخدع الشعب عن ذات نفس بذات لسان^(٢) . »

(١) الوثيقة رقم ٣٩٨٧ مؤرخة فى الرابع من فانتوز من السنة السابعة من التقويم الجمهورى :

Correspondance de Napoléon, t. V.

(٢) الرافعى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٤٣ .

ووصلت إلى القاهرة الكتيبة الفرنسية، وقوامها مائة جندي، يركبون الخيول،
ويحملون الأعلام التي غنمها الفرنسيون، ومعهم الأسرى من المماليك يركبون الحمير.^(١)
وكان في استقبالهم عند مشارف القاهرة، الأغا وهو محافظ القاهرة، وبرتلبي
وكيل المحافظ، ومعهما «طبول وبيارق وطوائف»، ومشوا معهم إلى الأزبكية
من الطريق التي أحدثوها، ودخلوا بهم إلى بيت قائمقام، فأخذوا سلاحهم
وأطلقوهم، فذهبوا إلى بيوتهم»^(٢).

ويصف الجبرتي الحفل الذي أقيم في ساحة الجامع الأزهر برفع الأعلام
على منارات الجامع، فيقول إنه في عصر اليوم الأخير من شهر رمضان ١٢١٣^(٣)
حضر عدة من الفرنسيين ومعهم كبير منهم، وهم راكبون الخيول، وعدة
من المشاة، وفيهم جماعة لابسون عمام بيض، وجماعة أيضاً بهرانيط، ومعه
نفير ينفخ فيه، وييدهم بيارق، وهي التي كانت عند المسلمين على قلعة
العريش، إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر، فاصطفوا رجالاً وركباً بباب
الجامع، وطلبوا الشيخ الشرقاوي فسلموه تلك البيارق، وأمره برفعها
ونصبها على منارات الجامع الأزهر، فنصبوا بريقين ملونين على المنارة الكبيرة
ذات الهلالين، عند كل هلال يرقاً، وعلى منارة أخرى بريقاً ثالثاً، وعند
رفعهم ذلك ضربوا عدة مدافع من القلعة بهجة وسروراً، وكان ذلك ليلة عيد
القطر، فلما كان عند الغروب ضربوا عدة مدافع أيضاً إعلاماً بالعيد^(٤).

(١) يذكر الجبرتي أن عددهم كان ثمانية عشر مملوكاً، وأربعة كشاف.

(٢) الجبرتي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٥ - ٤٦.

(٣) كان يقابل يوم الخميس ٧ من مارس ١٧٩٩.

(٤) الجبرتي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٦ - ٤٧.

بونابرت يعلن عن عزيمته على اعتناق الإسلام وبناء مسجد ضخم
ولما عاد بونابرت إلى القاهرة في ١٤ من يونيو ١٧٩٩ من حملة الشام طاب
من أعضاء الديوان كتابة منشور يوجه إلى الشعب ، فكتبوا منشوراً ضافياً
قال فيه الجبرتي : « لأنه من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء » ، وقد تضمن^(١)
هذا المنشور عرضاً مشوهاً لأحداث حملة بلاد الشام وأسباب عودة بونابرت إلى مصر ،
ذكر منها سببين ، أولاً : « أنه وعدنا برجوعه إلينا بعد أربعة أشهر ، والوعد
عند الحر دين » ، وثانياً : نزوع المفسدين من المماليك والعربان ، إلى إثارة الفتن
في بعض أقاليم مصر ، ونصحهم بالإخلاق إلى السكينة ، ثم جاء في المنشور :
« ولما حضر سارى عسكر إلى مصر أخبر أهل الديوان من خاص وعام أنه
يحب دين الإسلام ، ويعظم النبي عليه الصلاة والسلام ، ويحترم القرآن ،
ويقرأ منه كل يوم بإتقان ، وأمر بإقامة شعائر المساجد الإسلامية ، وإجراء
خبرات الأوقاف السلطانية ، وأعطى عوائد الوجافلية ، وسعى في حصول^(٢)
أقوات الرعية ، فانظروا هذه الألفاظ والمزية ، ببركة نبينا أشرف البرية ،
وعرفنا أن مراده أن يبني لنا مسجداً عظيماً بمصر لا نظير له في الأقطار ، وأنه
يدخل في دين النبي المختار ، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام »^(٣) .

(١) كان الجبرتي يقصد من وراء هذا التلميح الشيخ محمد المهدي ، وقد ناقش كل من الأستاذ
أحمد حافظ عوض ، والأستاذ عبد الرحمن الرافعي هذه المسألة ، الأول عرضاً ، والثاني وهو يترجم
للشيخ المهدي .

انظر : فتح مصر الحديث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٨ .

تاريخ الحركة القومية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٢) أي دفع الخصومات المقررة للعسكريين غير الفرنسيين .

(٣) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧١ - ٧٢ .

وقد أورد هذا المنشور المعلم نقولا ترك في مذكراته ، نشر وترجمة الأستاذ فيث ،
ص ٥٠ - ٥٤ ، وزاد عليه أسماء الموقعين عليه ، وكانوا حسب الترتيب الآتي : السيد
خليل البكري نقيب الأشراف ، الفقير عبد الله الشرقاوي رئيس الديوان ، الفقير محمد
المهدي كاتم سر الديوان ، الفقير مصطفى الصاوي خادم العلم ، الفقير سليمان الفيومي خادم العلم ،
على كاخيه باشي اختيار مستحفظان ، يوسف باشي جاويش تفكيجيان ، السيد أحمد المحروقي ،

ولم يخدع المصريون بما جاء في هذا المنشور ، واعتقدوا أنه مجرد دعاية كاذبة مضللة ، لاستمالتهم إلى جانب بونابرت ، وكان تعليقهم عليه تعليقا قاسيا ، أثبتته المعلم نقولا ترك ، وأشرنا إليه من قبل في هذه الدراسة ، ودامت الأحداث على أن بونابرت لم يعتنق الإسلام ، ولم يشيد مسجداً^(١) .

== وأورد هذا المنشور أيضاً الأستاذ أحمد حافظ عوض ، وزاد عليه نشر صورتين بالزنكوجراف ، إحداها للنص العربي ، والأخرى للنص الفرنسي .

النظر : أخذ حافظ عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٢٩ - ٣٣٥ .

(١) خاض بونابرت في أحاديث ضافية مع علماء الأزهر ، كان يهدى فيها رغبته في اعتناق الإسلام ، وذكر أن في استطاعته أن يحمل أفراد الجيش الفرنسي يمتنعون الإسلام ، بنساء على أمر يوصى بسيط *un simple ordre du jour* يصدره لهم ، كما أعلن عن عزمه على بناء مسجد ضخم يطلق عليه اسم مسجد السلطان الكبير ، وكان يحلو له أن ينعت نفسه بهذا اللقب ، ويلاحظ أن الجبرقي امتنع تماماً عن الإشارة إلى هذه التسمية ، وكان بونابرت دائم الشكوى لهم من الخطب غير الودية التي كان يلقيها أئمة المساجد في خطب الجمعة ، وقرر أنه كثيراً ما طلب من أعضاء الديوان أن يوقفوا هذه الحملة الموجهة ضد الفرنسيين ، ولكن اتضح أن اتصالات أعضاء الديوان بأئمة المساجد لم تكن مثمرة ، ثم قال لهم في إحدى الجلسات : « لابد أن نضع حداً لهذه الفتن ، أريد من الأزهر أن يصدر فتوى تأمر الناس بأن يحلفوا بيمين الطاعة لي » . فتصدى له الشيخ عبد الله الشرقاوي ، وطلب منه تنفيذ وعده باعتناق الإسلام ، وحجب له هذه الخطوة ، وزينها في قلبه ، وقال له إنه إذا اعتنق الإسلام انضوى تحت لوائه مائة ألف عربي في البلاد العربية واستطاع أن يفتح بهم الشرق . وكانت ذريعة بونابرت في التسوية أن هناك عقبتين تحولان دون اعتناقه هو وجنوده الإسلام ، هما تحريم شرب الخمر ، وضرورة إجراء عملية الختان ، وتساهل علماء الأزهر ، فقالوا إنه من الممكن التجاوز عن هذين الشرطين بصفة مؤقتة ، فلما ضيقوا عليه الحناق طلب منهم مهلة سنتين ، يعتاد خلالها الجنود التقاليد الإسلامية ، ثم يمتنعون الإسلام .

وما هو جدير بالذكر أن الجبرقي قارن بين استمثار الفرنسيين بتقاليد الأديان ، وبين تمسك الإنجليز بأهداب الدين ، وكان مما سجله في هذا الصدد : « إن الفرنسيين لا يتدينون بدين ، ويقولون بالحرية والتسوية ، وأما هؤلاء الإنكليز فلإنهم نصارى على دينهم ، ولا تخفى عداوة الأديان . »

انتظر كلا من :

الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٤٩ .

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. pp. 215-217.
Bainville J.; ouvr. cit.; p. 147.

بونابرت يقرر : علماء الأزهر هم أغزر علماء الإسلام علما

لما أصبح العداء سافراً بين الفرنسيين والعثمانيين ، انتهز بونابرت فرصة خروج قاضى القضاة العثماني على الفرنسيين ، وأعلن قراره بعد عودته من الشام ، بتمصير منصب قاضى القضاة في مصر ، وشغله بالشيخ أحمد العريشى من علماء الأزهر ، وفي منشور مؤرخ في ٢٧ من يونيو ١٧٩٩ وجهه بونابرت إلى أعضاء ديوان القاهرة قال فيه إنه رأى تمشياً مع روح القرآن الكريم أن « يعهد إلى العلماء باختيار القاضى من بينهم ، وإن الشيخ العريشى الذى وقع عليه اختياركم أصبح مثقلاً منصب القضاء ، وإن الخلفاء الذين كانوا يتصرفون طبقاً لأحكام القرآن كانوا يتولون الخلافة بانتخاب جمهور المؤمنين » ، ثم صارحهم فيه بزوال السيادة العثمانية على مصر ، وقال إن حكومة العثمانيين أشد ظلماً من حكم المماليك ، إلى أن قال : « وهل يوجد إنسان يعتقد أن علماء مصر المولودين همسا ليس فيهم من توهمه كفايته وفضائله إلى الاضطلاع بمنصب قاضى القضاة ؟ » ، وأمر بونابرت بإقامة حفل تكريماً للشيخ أحمد العريشى ، دعا إليه أعضاء الديوان العمومى والعلماء والأعيان من غير أعضائه ، وفي الحفل

(١) كان بونابرت قد عهد إلى العلماء مع أعضاء الديوان بانتخاب مصرى يحل محل قاضى القضاة العثماني ، فنال الشيخ أحمد العريشى أغلبية الأصوات ، إذ ظفر بستة عشر صوتاً ، من ثلاثة وعشرين صوتاً .

(٢) وثيقة رقم ٢٢٤ مؤرخة في التاسع من ديسمبر من السنة السابعة من التقويم الجمهورى ، المفلسر :

Correspondance de Napoléon, t: V.

وقد نشر الجبرتي هذا المنشور على النحو الذى عرّبه مترجمو الحملة ، وتلى في الديوان ، وكان مما جاء فيه خلاصاً بإنهاء السيادة العثمانية ، والإشادة بكفاية علماء الأزهر : « وعرفوا أهل مصر أنه انقضت وفرغت دولة المماليك من أقاليم مصر ، وبطلت أحكامها منها ، وأخبروهم أن حكم المماليك أشدّ تعباً من حكم المماليك ، وأكثر ظلماً ، والمائل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية ، وأهلية للأحكام الشرعية ، يصلحون للقضاء أكثر من غيرهم في سائر الأقاليم ... » . انظر الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٣ .

خلع بونايرت خلعة ثمينسة على قاضى القضاة الذى خرج فى موكب حافل ، أمر بونايرت بتنظيمه له فى ذهابه إلى دار المحكمة الكبرى بين القصرين ، ليتقلد مهام منصبه .^(١) ووجه بونايرت منشوراً مؤرخاً فى ٣٠ من يونيو ١٧٩٩ إلى حكام الأقاليم يأمرهم تبليغ الدواوين نبأ انتخاب الشيخ أحمد العريشى لمنصب قاضى القضاة ، وتأسيساً على هذا الانتخاب ينبغى أن يتلقى قضاة الأقاليم تقليد القضاء من قاضى القضاة المصرى ، وأعلن أيضاً فى هذا المنشور زوال السيادة العثمانية على مصر ، وكان مما قاله فى هذا الصدد : « على حكام الأقاليم أن يوضحوا للأعيان بأنه قد آن الأوان لإنهاء الحكم العثمانى الذى هو أشد ظلاماً من حكم المماليك ، إن مما يتنافى مع روح القرآن أن يتولى القضاء فى مصر رجال من الآستانة لا يعرفون لغة البلاد ، إن الآستانة لم تعرف الإسلام إلا بعد مضى ثلاثة أو أربعة قرون من وفاة الرسول ، ولو بعث الرسول من جديد فلا يختار الآستانة لرسالته ، بل يختار القاهرة ، هذه المدينة المقدسة على ضفاف النيل ، وإن الرئيس الدينى للإسلام هو صديقنا شريف مكة ، كما أن علماء القاهرة هم بلا منازع أعلم علماء الإسلام ، إن القائد العام يريد أن يكون القضاة كلهم من أبناء مصر ، اللهم إلا أن يكونوا من أشرف مكة والمدينة^(٢) » .

(١) انظر أمراً أصدره بونايرت إلى الجنرال دوجا فى ٨ من شهر ميسيدور من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٦ من يونيو ١٧٩٩) بتنظيم هذا الحفل .

الوثيقة رقم ٤٢٢١

Correspondance de Napoléon, t. V.

(٢) وثيقة رقم ٤٢٣٨ مؤرخة فى ١٢ من ميسيدور من السنة السابعة للتقويم الجمهورى

Correspondance de Napoléon, t. V.

ومما يذكر فى هذا الصدد أن بونايرت تساءل فى مذكراته : « كيف تكون مصر جنسة الله فى أرضه ، وبلاد الحجاز مهبط الوحى ، خاضعتين لشعب خرج من بلاد القوقاز ؟ ، وإذا فرض أن محمداً « صلوات الله عليه » قد بعث اليوم ، فإلى أين يذهب ؟ هل يذهب إلى مكة ؟ كلا ، لأنها لم تعد عاصمة للدولة الإسلامية . هل يذهب إلى الآستانة ؟ كلا ، لأنها مدينة دنسة profane ، =

إسهام بونا بربت في احتفالات المولد النبوى الشريف

كان إسهام بونا بربت في احتفالات المولد النبوى الشريف ، والتي أقيمت في القاهرة في شهر أغسطس ١٧٩٩ آخر مظهر عملى وشخصى لسياسته الإسلامية ، قبل أن يغادر مصر نهائياً إلى فرنسا في ٢٢ من أغسطس ١٧٩٩ ، وقد حرص على إضفاء مظاهر الروعة والعظمة على هذه الاحتفالات ، فأمر بأن تشترك فيها وحدات من الجيش الفرنسى والموسيقى العسكرية ، وأن تقام الاحتفالات أمام مقر القيادة العامة للجيش فى الأزبكية ، وأن تقام الزينات ، وتوقد القناديل ، وأن تطلق المدافع نهائياً ، والصواريخ والألعاب النارية ليلاً ، على غرار ما اتبع فى احتفالات المولد النبوى فى العام السابق (١) قال الجبرتي : « وفى يوم الثلاثاء حادى عشر من ربيع أول ١٢١٤ (١) عمل المولد النبوى بالأزبكية ، ودعا الشيخ خليل البكرى سارى عسكر الكبير مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده ، وضربوا بركة الأزبكية مدافع ، وعملوا حفاقة وسوارىخ ، ونادوا فى ذلك اليوم بالزينة ، وفتح الأسواق والدكاكين ليلاً ، وإسراج قناديل ، واصطناع مهرجان (٢) » .

بونا بربت يضيف جديداً إلى احتفالات المولد

وقد أضاف بونا بربت جديداً إلى احتفالات المولد النبوى فى سنة ١٧٩٩ بالنسبة لاحتفالات العام السابق ، فقد حرص على أن يشهدا مصطافى باشا

== يزيد فيها عدد الكافرين على عدد المؤمنين ، ولو ذهب إليها لأصبح فى وسط أعدائه ، إنه بلا شك يفضل مياه النيل المقدسة ، وينزل فى الجامع الأزهر ، وهو أول مفتاح للكنيسة المقدسة » .

انظر :

Napoléon I^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t.I., pp. 215-216.

(١) كان هذا التاريخ الهجرى يقابل فى التقويم الميلادى الثالث عشر من أغسطس ١٧٩٩ .

(٢) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٨ .

قائد الجيش العثماني وضباطه الذين وقعوا في الأسر في معركة أبي قير البرية ، كما حضرها الضباط العثمانيون الذين أسرههم الجيش الفرنسي في حماه على بلاد الشام . وذكر بونايرت أن العظمة التي تجأت في احتفالات المولد قد بهرت مصطفى باشا وسائر الضباط العثمانيين^(١) ، وأطلق بونايرت سراح بعض أولئك الضباط ، وأوفدهم في صبيحة اليوم التالي لليلة الختامية للمولد إلى الآستانة وإلى مكة المكرمة ، لينقلوا إلى الساطات هناك تفاصيل الاحتفالات بالمولد النبوي ، وما اقترنت به من مظاهر الأبهة والعظمة^(٢) . وأرسل بونايرت إلى الحكام الفرنسيين في أقاليم مصر ، يطلب منهم توزيع منشورات باللغة العربية على الأهالي تصف لهم الاحتفال العظيم الذي أقيم في القاهرة بمناسبة المولد النبوي الشريف ، وأن القائد العام قد استمع لقصة المولد ، وكان يحف به عن يمين وشمال كبار المشايخ علماء الأزهر^(٣) .

تصرفات بونايرت الأخيرة ودلائلها

ويلاحظ أن احتفالات المولد النبوي الشريف التي أقيمت بالقاهرة في سنة ١٧٩٩ قد وقعت في خلال الأيام السبعة التي قضاها بونايرت في العاصمة منذ وصوله إليها من الإسكندرية في الحادي عشر من أغسطس ١٧٩٩ عقب انتصاره في معركة أبي قير البرية ، وبين رحيله نهائياً من القاهرة في الثامن عشر من أغسطس ، وهي فترة قصيرة تزامنت فيها الأعمال عليه ، لأنه كان يعد في الخفاء معدات سفره إلى فرنسا ، ويضع الترتيبات العسكرية والإدارية التي تسير عليها الحملة من بعده في حكم مصر ، وفي الدفاع عنها ، ولكنه استطاع وسط هذه المشاغل الجسام أن يدبر من وقته متسعاً لوضع اللجسات

(1) Napoléon I^{er} ; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. II, p. 149.

(2) Loc. cit.

(3) Correspondance de Napoléon, t. V., doc. no. 4362.

النهائية لاحتفالات المولد ، والإسهام بشخصه في حضورها ، ويدل هذا المسلك على منتهى البراعة والدهاء من جانب بونابرت ، لأنه ظل حتى أواخر أيام إقامته في مصر يتظاهر أمام الشعب المصري بالاحترام العميق للدين الإسلامي ولرسول الله صلوات الله عليه :

واستهدف بونابرت من هذا المسلك غرضاً جديداً ، هو تأكيد سياسته الإسلامية للقائد الذي قرأه على أن يعهد إليه بقيادة الحملة من بعده ، وهو الجنرال كليبر ، وقد أراد بونابرت أيضاً أن يكون مسلكه قدوة يحتذيها قادة الجيش ، والحكام العسكريون في الأقاليم المصرية . والحق أن بونابرت ، في أوامره إلى رجاله في شتى جهات مصر ، كان يحرص على التنبيه عليهم بإظهار الاحترام لعقيدة المصريين الدينية وتقاليدهم :

بونابرت يوصي خلفه خيراً بعلباء الأزهر

وفي يوم رحيله من الإسكندرية إلى فرنسا ترك رسالة ضافية ، مؤرخة في ذات اليوم وهو الخامس من شهر فركتيدور Fructidor من السنة السابعة من التقويم الجمهوري الفرنسي (٢٢ من أغسطس ١٧٩٩) إلى الجنرال كليبر ، شرح له فيها الخطة التي يسير عليها في حكم مصر ، وكان مما جاء في هذه الرسالة عن السياسة الإسلامية : « وإنكم تعرفون ، أيها المواطن القائد ، نظرتي إلى السياسة الداخلية لمصر ، ومهما تفعلون فستجدون المسيحيين دائماً أصدقاءنا ، ولكن يجب منعهم من أن يتجاوزوا حدود الأدب مع مواطنيهم ، والاستخفاف بهم وإذا حصلتم على ثقة كبار مشايخ القاهرة كسبتم الرأي العام في مصر كلها ، ومن بين الزعماء الذين يمكن أن يتخذهم هذا الشعب قادة له ، ليس هناك من هم أقل خطراً من المشايخ الذين هم قوم

هيايون ، لا يعرفون القتال ، ولكنهم — شأنهم في ذلك شأن القسيسين —
يوحون بالتعصب ، دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين ^(١) » :

وفي ذات اليوم الذي غادر فيه بونابرت مصر نهائياً ، وجه رسالة من
الإسكندرية إلى أعضاء ديوان القاهرة ، وقد استهلها بهذه العبارة : « إلى ديوان
القاهرة المختار من بين أكثر الناس استنارة ، وأكثرهم تعقلاً » ، وذكر
لهم أسباب سفره إلى فرنسا على النحو الذي أراد أن يصوره لهم ، وأخبرهم
أنه سوف يعود إلى مصر ، ثم قرر أنه عهد بالقيادة العامة في أثناء غيابه إلى الجنرال
كلير ، « وهو رجل ذو صفات ممتازة ، وقد أوصيته أن يحفظ للعلماء والمشايخ
ما كتبت أحفظه لهم من المحبة والود . فابذلوا ما في وسعكم ليثق به الشعب
المصري ثقته بي ، ولدى عودتي بعد شهرين أو ثلاثة أشهر أكون راضياً عن
الشعب المصري ، ولا أحمل للمشايخ إلا المديح وحسن الجزاء ^(٢) » ، ويختلف
نص هذه الرسالة عن النص الذي أورده الجبرتي ، وينحصر هذا الاختلاف

(1) “Vous connaissez, citoyen Général, quelle est ma manière de voir sur la politique intérieure de l’Egypte. Quelque chose que vous fassiez, les chrétiens seront toujours nos amis. Il faut les empêcher d’être trop insolens (*sic*) En captivant l’opinion des grands cheyks du Kaire, on a l’opinion de toute l’Egypte; et, de tous les chefs que ce peuple peut avoir, il n’en est pas de moins dangereux que des cheyks qui sont peureux, qui ne savent pas se battre, et qui, comme tous les prêtres, inspirent le fanatisme sans être fanatiques”.

انظر الوثيقة رقم ٤٣٧٤ في الجزء الخامس من مراسلات نابليون .
وانظر أيضاً :

Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. VIII. pp. 295 - 302.

(٢) انظر الوثيقة رقم ٤٣٧٧ في الجزء الخامس من مراسلات نابليون .
وانظر أيضاً :

La Jonquière; ouvr. cit., t. V, p. 607.

في أن رواية الجبرقي لم ترد فيها إشارة إلى وصية بونايرت للقائد كليبر بمعاملة علماء الأزهر ، ومرد هذا الاختلاف إلى أن الجبرقي باعترافه ذكر « مضمون الكتاب »^(١) :

ذلك هو مدى حرص بونايرت على إظهار آيات الود والاحترام والتقدير لعلماء الأزهر ، لم يفته أن يسجله في ذات اليوم الذي اتخذ فيه طريقه في البحر سرباً ، من بقعة مهجورة على شاطئ سيدي جابر بالإسكندرية ، وفي ظلمة الليل ، خوفاً من أن يكتشف الأسطول الإنجليزي أمره ، ويظفر به صيداً ثميناً ، ويغدو أحياناً أسيراً ، يعيش في ذل الإسار ، سنين عديدة :

* * *

حقيقة العلاقات بين الأزهر والاحتلال الفرنسي

يرى البعض أن الأزهر كان أول هيئة دينية إسلامية تعاونت مع الاحتلال الفرنسي عقب دخول الفرنسيين القاهرة في يوليو ١٧٩٨ ، تأسيساً على أن فريقاً من كبار المشايخ علماء الأزهر قد قبلوا عضوية ديوان القاهرة الذي أنشأه بونايرت . كان تفوق الفرنسيين عسكرياً هو العامل الأهم الذي أدى إلى تمكينهم من البلاد^(٢) . وواجه علماء الأزهر - بصفتهم زعماء الشعب - الموقف

(١) الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

(٢) يذكر الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر ورئيس ديوان القاهرة سبباً آخر ، إذ يقول : « والسبب الذي أوجب لأهل مصر قرأها بعض الانقياد إليهم ، عجزهم عن مقاومتهم ، بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال » . انظر كتابه : تحفة الناظرين ، فيمن ولي مصر من الولاة والساطين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .

ورأى الشرقاوي مردود عليه بأن السلاح الرئيسي لدى المماليك كان سلاح الفرسان ، بينما القوة الضاربة الرئيسية لدى الفرنسيين كانت سلاح المدفعية ، وهو سلاح فتاك ، كفل الفرنسيين الانتصار الحاطف في المعارك التي خاضوها ، سواء في شبراخيت أو في إمبابة أو في غيرها ، وكان سلاح الفرسان يمثل سلاح المصور الوسطى ، بينما كان سلاح المدفعية يمثل المصور الحديثة ، ومن ناحية أخرى فإن هروب المماليك الذي أشار إليه الشرقاوي هو حكم عام ، لا ينسحب على جميع =

على علاقاته بعد دخول الفرنسيين القاهرة ، وهم لا يستطيعون لهم دفعاً ،
وظهرت عدة بواعث أملت على هذا الفريق من كبار علماء الأزهر قبول
عضوية ديوان القاهرة : كان « النظام الجديد » le nouveau régime ، الذى
جاءت به الحملة الفرنسية ينبثق عن دولة مسيحية أوروبية ، هى الجمهورية
الفرنسية ، وكان على رأس النظام الجديد فى مصر الجنرال بوناپرت ، وهو
مسيحي أوروبى ، ويعاونه فى حكم البلاد كبار القادة الفرنسيين ، وهم على
شاكلته ، وكان لامناص من تطعيم هذا « النظام الجديد » بالقاح الإسلامى ، وتمثل
هذا اللقاح فى كبار المشايخ علماء الأزهر ، الذين وقع عليهم الاختيار لعضوية
ديوان القاهرة ، ليشاركوا فى حكم الشعب المصرى عن طريق إبداء المشورة
وبخاصة فى مسائل الشريعة الإسلامية : أدرك بوناپرت هسله الحقيقة ،
كما أدركها علماء الأزهر ، وقد أفصح بوناپرت عن هذا الاتجاه فى مذكراته التى
أشرنا إليها فى مستهل هذا البحث ، ونقلنا فقرات منها معربة ، وذكرنا جزءاً

= الممالك ، لأنه إذا كان الأمير إبراهيم بك قد هرب إلى الشرقية ، فإن الأمير مراد بك قد
انسحب إلى الصعيد ، وفارق كبير بين هروب قائد وبين انسحاب قائد ، وقد انسحب مراد بك
ليعيد تنظيم قواته ، ويعاود النضال من جديد ، وقد رفض عرض بوناپرت فى أغسطس ١٧٩٨
ب عقد صلح معه ، على أساس تحويل مراد بك حكم الصعيد ، من شلال أسوان جنوباً ، إلى مايل جرجا
شمالاً بنصف فرسخ ، على أن يكون تابعاً لفرنسا ، وأن يدفع تخزئة الجيش الخراج المقرر على هذه
الأقاليم . وكان مراد بك مصدر متاعب جملة للفرنسيين ، تجنب الاشتباك معهم فى معارك حاسمة ،
وبلأ إلى نوع من الحرب يهيده الممالك وهو حرب الكر والفر ، وكان إذا أدرك أن المعركة
تدور فى غير مصلحته ، انسحب إلى الصحراء ، أو إحدى الواحات ، ليسترد ألقاه ، ويعيد
تنظيم صفوفه ، ثم يعيد الكرة على الفرنسيين ، وانضم إليه أهالى الصعيد المسلمون ، وكذلك عرب
الحجاز الذين تطوعوا للدفاع عن مصر ، وعبروا البحر الأحمر من جدة إلى القصير ، واجتازوا
الصحراء الشرقية إلى قنا ، وتطلق عليهم المصادر الفرنسية اسم « المكاريون » les Mecquois
وهى تسمية تشعوى على خطأ ، لأنهم لم يكونوا جميعاً من مكة المكرمة ، بل كان منهم أهالى المدينة
المنورة ، والطائف ، وينبع ، وجدة ، وسائر جهات الحجاز ، وقد بلغ عددهم ثمانية آلاف
مقاتل ، نفروا عتفاً وثقلاً ، وصمموا على الفوز بإحدى الحسينيين : الاستشهاد فى سبيل الله ،
أو النصر ، ولذلك كانوا خصوماً أشداء للفرنسيين .

منها بنصها الفرنسي ، وأفصح عن هذه الحقيقة أيضاً الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، وهكذا التقى علماء الأزهر وبونابرت عند ضرورة إيجاد حلقة اتصال بين السلطات الفرنسية وبين الشعب المصرى : وقد ذهب الشيخ الشرقاوى إلى القول بأن إنشاء الدواوين ، سواء فى القاهرة أو فى الأقاليم وإشراك علماء الأزهر فى عضويتها ، إنما كان رحمة بالشعب المصرى . وكما تركنا بونابرت يعبر عن رأيه فى هذه المسألة ، ندع الشيخ عبد الله الشرقاوى يفصح عن وجهة نظره فيها ، وقد مهد لها برأيه فى الفرنسيين من حيث نزعتهم نحو الإباحية ، وابتعادهم عن المسيحية الحققة : قال عنهم : « لهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية ^(١) ، يقال لهم نصارى قاتوليقية ، يتبعون عيسى — عليه السلام — ظاهراً ، وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين ويقولون إن الله واحد ، لكن بطريق التعليل ، ويحكمون العقل ، ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام ، يضعونها بعقولهم ، ويسمونهم شرائع ، ويزعمون أن الرسل محمداً وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء ، وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم ، تناسب أهل زمانهم ^(٢) . ولذا جعلوا فى مصر ^(٣) وقراها الكبار دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم ، وكان ذلك رحمة بأهل مصر ، فإنهم جعلوا من جملة ديوانها

(١) أى ذوو طباع تنتم بالإباحية .

(٢) أى كاثوليك .

(٣) يلاحظ أن معظم هذه الآراء التى ردها الشيخ الشرقاوى قد وردت فى منشور السلطان سليم الثالث إلى الشعب المصرى يأمره بالجهاد الدينى ضد الفرنسيين .

(٤) يقصد بمصر مدينة القاهرة .

(٥) القرى الكبار : يقصد بها عواصم المديريات .

(١) جماعة من المشايخ ، وصاروا يراجعونهم في بعض أشياء لا تليق بالشرع .»

وهناك باعث آخر لعلماء الأزهر على قبول عضوية ديوان القاهرة ، فقد كانوا مدفوعين برغبتهم في أن يكونوا في مركز رسمي يسمح لهم بالتدخل لدى سلطات الاحتلال ، لدفع أذى الفرنسيين عن الشعب ، وكان قيام كبار المشايخ علماء الأزهر بهذا الدور إبان الحكم الفرنسي استمراراً للدور الذي قاموا به من قبل في أثناء الحكم العثماني — بصفتهم زعماء الشعب — من التدخل لدى الحكام البغاة ، وبخاصة الأمراء المماليك ، لرفع المظالم التي كانت تنهال على الشعب من يمين ويسار . وقد تمثلت آنذاك في الغالبية العظمى من كبار علماء الأزهر الزعامة الشعبية ، الخانية ، العظوفة ، النظيفة التي كانت لا تبغى من وراء تدخلها لدى الحكام جزاء ولا شكوراً^(٢) . وفي خلال سنوات الاحتلال الفرنسي الذي استطال ثلاثة أعوام وبعض عام ، قام علماء الأزهر بدورهم التقليدي ، واستطاعوا في وسط الأزمات السياسية والحربية التي حفلت بها هذه الفترة أن يدروا عن الشعب الكثير من أذى الفرنسيين ، وإن لم يسلم كبار علماء الأزهر أنفسهم من هذا الأذى في بعض الأوقات العصيبة الحالكة السود التي مرت بالفرنسيين ، وبخاصة في الفترات التي صحبت أو أعقبت قيام المصريين بالثورات عليهم . ولكن كان هناك فارق كبير بين دور علماء الأزهر في العصر العثماني المملوكي ، وبين دورهم على عهد الحملة الفرنسية : كان تعاونهم مع الأمراء المماليك يقوم على التعاون الاختياري ، بينما كان دورهم أيام الاحتلال الفرنسي هو خضوع ضرورة^(٣) . وكانت صلات علماء

(١) تحفة الناظرين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .

(٢) انظر بحثنا الثاني الذي نوقش في الندوة العلمية الدولية لألفية القاهرة ، وكان موضوعه « دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني » ، وقد نشر في المجلد الثاني من بحوث الندوة ص ص ٦٦٧ - ٧٢٥ .

(3) Dr. Afaf Loutfi El Sayed.

في البحث الذي تقدمت به إلى مؤتمر لندن لتاريخ مصر الحديثة في أبريل ١٩٦٥ ، ونشر في مجلد بحوث المؤتمر ، ص ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

الأزهر أعضاء الديوان بالسلطات الفرنسية صلات تقوم على مداراة الفرنسيين والتظاهر بمجاملة لهم ، ولكن كانت قلوبهم نافرة من الحكم الفرنسي ^(١) :

كان علماء الأزهر الذين قبلوا عضوية الديوان يشعرون في قرارة نفوسهم أن هذه العضوية لا تشرفهم ، وأن الشعب قد ظن بهم الظنون ، ولم يكن لهذا الديوان سلطة قطعية في أية مسألة تعرض عليه ، وكانت السلطة العسكرية ، الممثلة في قيادة الجيش الفرنسي ، هي المرجع الأعلى في كل المسائل التي تعرض على الديوان ، وكانت سلطة هذا الديوان لا تتجاوز حدود مدينة القاهرة ، وكان نشاط المشايخ مقيداً بتعهدهم ألا يتصرفوا تصرفاً يضر بمصالح الفرنسيين ، ولذلك كانوا يعملون - كما ذكرنا - تحت رقابة مستمرة دقيقة من رجال المخابرات الفرنسية : ومما هو جدير بالذكر أن بونابرت لم يهدف إطلاقاً إلى إقامة حياة نيابية في مصر ، كما يظن بعض الباحثين ، فإن هذا الحاكم العسكري لم يكن يطمئن إطلاقاً إلى الأنظمة النيابية ، وهو لم يطبقها في فرنسا ، فمن باب أولى ألا ينشئها في مصر .

كان بونابرت من ناحية أخرى حريصاً على أن يختار لعضوية الديوان أكثر العلماء منزلة ، وأعظمهم جاهاً ، وأكثرهم مهابة ، وأوفرهم نفوذاً ، ليضيفوا على الديوان أهمية ومكانة في نظر الجماهير ، وكان في تأليفه من كبار العلماء تنويه ظاهر بأهمية الجامع الأزهر ، ومكانة علمائه ، والاعتراف بزعامتهم ^(٢) ، وكان يقابل هذا الإصرار من ناحية بونابرت تخرج من جانب علماء الأزهر : حدثت مشادة عنيفة بين بونابرت وبين الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر ورئيس ديوان القاهرة : كان بونابرت قد

(1) Rifaat M. ; The Awakening of Modern, Egypt. London, 1947, pp. 8 - 9.

(٢) محمد عبد الله عتيق ، تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، الطبعة الثانية ، ص ١٥٥ .

طلب أعضاء هذا الديوان للحضور في أول سبتمبر ١٧٩٨ إلى مقر القيسادة العامة للجيش الفرنسي في الأذربكية ، ولما استقر بهم المقام نهض بونابرت وغادر الصالون الكبير ، ثم عاد ويده طيالة^(١) ، يحمل كل طيلسان منها ثلاثة ألوان : الأزرق ، والأبيض ، والأحمر ، وهذه الألوان الثلاثة هي شعار الثورة الفرنسية ، وزدت ألوان العلم الفرنسي ، وأراد بونابرت أن يضع علماء الأزهر هذا الرداء المثلث الألوان على أكتافهم وفوق ملابسهم . ورأى بونابرت من باب التكريم أن يضع بيده الطيلسان على كتف الشيخ الشرقاوى ، فاحمر وجه الشيخ واستشاط غضباً ، ورعى به إلى الأرض ، وغضب بونابرت من هذا التصرف ، وقال إن الشيخ الشرقاوى لا يصلح للرياسة ، وقد حاول عبثاً المستشرق فانتور Venture كبير مترجمي الحملة أن يقنع سائر المشايخ بأن ارتداءهم الطيلسان تكريم لهم ، يرفع منزلتهم في أعين الفرنسيين ، ويجعل الجنود يؤدون لهم التحية العسكرية كلما مروا بهم ، وكان مما جاء على لسان هذا المستشرق قوله : « يا مشايخ ، أنتم صرتم أحباً إلى بصارى عسكري ، وهو يقصد تعظيمكم ، وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن تميزتم بذلك عظمتمكم العساكر والناس ، وصار لكم منزلة في قلوبهم : » فقالوا له جملة معبرة ، تصور مدى الحرج الذى كانوا يشعرون به : « ولكن قدرنا يضيع عند الله ، وعند إخواننا المسلمين » ، ورأى بونابرت أنه إذا أصر المشايخ علمااء الأزهر على رفض ارتداء الطيلسان ذى الألوان الثلاثة ، فلا مناص من أن يضعوا فوق صدورهم « الجوكار »^(٢) ، وهى العلامة التى يقال لها الوردية ، فقالوا

(١) يذكرها الجبرقى طيلسانات ، فى صيغة جمع المؤنث السالم ، وهذا خطأ ، ومفردتها طيلسان ، ويقصد به « شال » ، أى قطعة كبيرة من القماش ، توضع على الكتفين وتغطيها .

(٢) الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٦ .

(٣) الجوكار : كلمة فرنسية ، كتبها الجبرقى باللغة العربية كما سمعها ، وقد وردت فى كتابه فى أكثر من موضع (ج ٣ ، وعلى سبيل المثال ص ٣ ، ١٦ ، ١٧) ، والأصل الفرنسى للكلمة هو la cocarde ، بمعنى شارة أو علامة أو شريط أو وردة من حرير ، وقد

أمهلونا حتى نتروى في ذلك ، واتفقوا على اثني عشر يوماً » : وقد أراد بونايرت من حمل علماء الأزهر أعضاء الديوان على وضع شارة الجمهورية ^(١) ترغيب الشعب في الاقتداء بزعمائه ، ووضع هذه الشارة المثلثة الألوان ، وإن كثرة الأوامر التي كان يصدرها بونايرت تباعاً في هذا الصدد ، مما يدل على اهتمامه الزائد بإلزام المصريين بحمل شعار الجمهورية : وفي أحد الأوامر

== شرح الجبرق هذه اللفظة بقوله : « والجوكر ثلاث قطع من جوخ أو حرير أو غير ذلك ، مستديرة في قدر الريال ، سوداء وحمراء وبيضاء ، توضع بعضها فوق بعض ، بحيث تكون كل دائرة أقل من التي تحتها ، حتى تظهر الألوان الثلاثة كاللوائر المحيط بعضها ببعض » . ص ٣ ، وقد أخطأ الجبرق في إيراد كلمة (سوداء) ، وصحتها زرقاء ، ولعل قطعة الجوخ كانت زرقاء ، قائمة اللون إلى حد بعيد جداً ، فاعتبرها أو اعتقدها سوداء .
أما نقولاً ترك فيكتب هذه اللفظة « كوكاردا » ، ويشرحها بأنها « النيشان الفرنسي » .

انظر :

مذكرات نقولاً ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فثيت ، ص ١٦ .

(١) أصدر بونايرت أمراً يحتم على جميع سكان مصر حمل الشارة المثلثة الألوان ، وأمر بالألا تسميح السلطات الفرنسية ابتداء من أول شهر فاند مير Vendémiaire من السنة السابعة من التقويم الجمهوري (٢٢ من سبتمبر ١٧٩٨) أية شكوى أو مظلمة ، أو طلب من أحد أفراد الشعب المصري ، إلا إذا كان حاملاً هذه الشارة . وقد أنف المصريون من وضع الشارة اقتداءً بعلماء الأزهر ، وتراجع بونايرت . يقول الجبرق : إن بونايرت أمر بإلغاء هذا الأمر بالنسبة لعامة الشعب ، وألزم بعض الأعيان ، ومن يريد الدخول عند الفرنسيين لحاجة من الحاجات بوضعها ، فكانوا يضعونها إذا حضروا عندهم ، ويرفعونها إذا خرجوا من عندهم ، واستمر هذا النظام معمولاً به بضعة أيام ، ثم صرف النظر عنه .

انظر كلا من :

الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٧ .

وجريدة :

Courrier de l'Egypte. No. 6. Le 2ème jour complémentaire
VI année de la République.

ومجموعة مراسلات نابليون .

Correspondance de Napoléon t. IV.

وثيقة رقم ٣٢٣٩ مؤرخة في ١٨ من شهر فيكتيدور من السنة السادسة من التقويم

الجمهوري (٤ من شهر سبتمبر ١٧٩٨) .

التي أصدرها إلى الجنرال مينو في رشيد طلب من أعضاء الديوان أن يضع كل منهم على كتفه طيلساناً ، أى شالا مثلث الألوان ، وأن يضع الأغوات حول عمائمهم شريطاً مثلث الألوان^(١) . ولكن أمام إصرار علماء الأزهر على رفض وضع الشارة على أية صورة من الصور ، صرفت الفرنسيون النظر عن هذه المسألة جملة وتفصيلاً :

وكان حضور علماء الأزهر أعضاء الديوان الحفلات التي كانت الساطات الفرنسية تقيمها في المناسبات الدينية الإسلامية ، وفي المناسبات القومية الفرنسية نوعاً من الرغبة في مجاملة الفرنسيين ، أو في مداراتهم ؛ وإن عضوية علماء الأزهر في الديوان قد سمحت لهم بالتدخل لدى بوناپرت لوقف تنكيهه بسكان القاهرة في أعقاب ثورتهم الأولى في أكتوبر ١٧٩٨ ، كما نجحت وساطتهم في إخلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين الذين رابطوا بداخله ، وانتهكوا حرمانه بعد إخماد هذه الثورة :

وقد استخدم بوناپرت المشايخ أعضاء الديوان في كتابة المنشورات « وتنميقها » لمطالبة الشعب بالإخلاء إلى السكينة ، أو لإذاعة أنباء انتصاراته العسكرية ونحو ذلك من مسائل الإعلام والدعاية ، وكان الشعب يدرك تماماً أن هذه المنشورات لا تصور الحقيقة ، وأنها لا تعبر عن رأى علماء الأزهر أعضاء الديوان ، وأنهم إنما كتبوها رغبة في مداراة الفرنسيين ، وأن تأييد المشايخ للسلطات الفرنسية إنما هو تأييد شكلي :

ولا بد أن نشير إلى موقف علماء الأزهر أعضاء الديوان في أثناء مقدمات ثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، فقد كان رسل السلطان العثماني وأحمد باشا الخزار ،

(١) وثيقة رقم ٣٢٥٤ مؤرخة في ٢١ من شهر فركتيدور من السنة السادسة من التقويم الجمهوري

(٧ من شهر سبتمبر ١٧٩٨) Correspondance de Napoléon, t. IV

والأمير إبراهيم بك ومن إليهم ، يحملون سرّاً إلى القاهرة منشورات ومكاتبات
تطلب من المصريين القيام على الفرنسيين : وعلم علماء الأزهر أعضاء الديوان
بأمر هذه المنشورات ، وكانوا في ذات الوقت يقابلون بونابرت باستمرار ،
ولكنهم التزموا الصمت حيال تداول هذه المنشورات وحيال إذاعتها ، بمعرفة
أئمة المساجد ، فلم يخبروا بونابرت بأمرها . ويحمل بعض الباحثين على علماء
الأزهر أعضاء الديوان ، ويقولون إن هؤلاء العلماء قد غرروا بالفرنسيين ، وأن
تصرفهم كان تصرفاً غير أخلاقى^(١) : وقد فات هذا الفريق من الباحثين أن
علماء الأزهر لم يكونوا من رجال المخابرات الفرنسية ، ولم يدخل
في اختصاصاتهم كأعضاء في ديوان القاهرة التجسس على مواطنهم ، ولإبلاغ
السلطات الفرنسية بما يحدث في العاصمة ، ومن الثابت تماماً أن هؤلاء العلماء
أعضاء الديوان لم يسهموا إسهاماً إيجابياً في تحريض سكان القاهرة على الثورة ،
ولنما اكتفوا بمثل هذا الموقف السلبي . وقد ذكر بونابرت في مذكراته أن
أعضاء الديوان زادت هواجسهم بعد صدور فرمان السلطان ، وخشوا مغبة
تحالف الإنجليز والروس والعثمانيين ضد الفرنسيين ، واعتقدوا أن الدائرة
سوف تدور على الجيش الفرنسي في الشرق^(٢) : وإن كل ما نستطيع أن نخاض
إليه من هذا الموقف ومن غيره ، هو أن علماء الأزهر أعضاء الديوان لم
يظهروا ولاء قلبياً لبونابرت ولا للفرنسيين ، وأن التأيد الذي كان يظهره
هؤلاء العلماء كان تأييداً شكلياً ، وأن نجاح بونابرت معهم كان نجاحاً خداعاً

وقد سبق أن شرحنا موقف الشيخ محمد السادات من ثورة أكتوبر ١٧٩٨
وقلنا إن بونابرت عدل عن إعدامه ، حين أدرك أن إعدامه يضر بمركز
الفرنسيين ، أكثر مما ينفعهم ، ونضيف هنا أن ضباط الجيش الفرنسي وجنوده

(١) كرسنوفر هيرولد : بونابرت في مصر مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٣ .

(٢) Napoléon 1^{er} ; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, p. 245.

نعوا على برنابوت تسامحه وتساهله مع هذا الشيخ، وغيره من كبار رجال الأزهر ، وقد وصفهم الضباط والجنود بأنهم أس البلاء الذى نزل بالفرنسيين ، وأنهم مسئولون عن الدم الفرنسى الذى أريق فى الثورة ، وأن مسالكهم لم يكن سليما ، وخلصوا من هذه الاتهامات إلى أن المشايخ علماء الأزهر رجال « عواجز منافقون »^(١) ، من وجهة النظر الفرنسية بطبيعة الحال :

ومن الأدلة على أن ولاء علماء الأزهر أعضاء الديوان للفرنسيين لم يكن ولاء نابعا من أعماق قلوبهم ، أن عضويتهم فى الديوان لم تمنعهم من إبداء حقيقة مشاعرهم غير الودية نحو الفرنسيين كلما واتتهم الفرص : كانت الدولة العثمانية قد أرسلت جيشا نزل إلى الشاطئ فى أبى قير فى ١٤ من يوليو ١٧٩٩ بقيادة « كوسه لى مصطفى باشا سرعسكر الروملى » وتتابع انتصارات العثمانيين فى المراحل الأولى للحرب : قصفوا الاستحكامات الفرنسية ، ونالوا من الفرنسيين منالا عظيما ، وقتلوا القومندان جودار Godard قائد القوات الفرنسية فى أبى قير ، واحتلوا البلدة ، وحاصروا القلعة ، واضطر قائدها ، واسمه الكابتن فيناش Vinache ، إلى التسليم ، على الرغم من وفرة الذخائر فى القلعة ، ومئات موقعتها ، وكثرة عدد أفراد حاميتها . وقد نقل العثمانيون القائد الفرنسى وجنوده إلى بارجة من قطع الأسطول البريطانى بقيادة سير سدن سمث Sir Sidney Smith ، واحتل العثمانيون القلعة فى ١٧ من يوليو ، واستفادوا من الأنباء فى القاهرة منذ ٢٢ يوليو بالانتصارات الحاطقة التى أحرزها الجيش العثمانى . قال الجبرقى : « وفى ثامن عشر من صفر ١٢١٤^(٢) وردت أخبار وعدة مكاتيب لكثير من الأعيان والتجار

(1) Op. cit., p. 256.

(٢) بدأ شهر صفر ١٢١٤ فى الخامس من يوليو ، وانتهى فى الثانى من أغسطس ١٧٩٩ .

وكلها على نسق واحد تزيد عن المائة ، مضمونها بأن المسلمين وعسكر
العثمانيين ومن معهم ملكوا الإسكندرية في ثالث ساعة من يوم السبت سادس
عشر صفر ، فصار الناس يحكى بعضهم لبعض : « (٣) »

وقد غمرت موجة من الابتهاج علماء الأزهر أعضاء الديوان بهذه
الانتصارات العثمانية ، واعتبروها بداية النهاية للحكم الفرنسي في مصر ، ولم
يتحفظوا في إبداء ابتهاجهم ، وتناسوا مراكمهم الرسمية التي كانت تتطلب
منهم بحاملة الفرنسيين ، أو على الأقل التظاهر بالمجاملة : وسرعان ما لاحظت
السلطات الفرنسية في القاهرة أن التصرفات التي تصدر عن المشايخ أعضاء
الديوان يغلب عليها الطابع غير الودي نحو الفرنسيين ، بل إنها تتعارض مع
المصالح الفرنسية ، ففضلا عن الابتهاج الذي لم يحاولوا إخفاؤه وقع صدام بين
أعضاء الديوان وبين محافظ القاهرة ، واسمه مصطفى أغا ، وكان معروفا عنه أنه
من عملاء الفرنسيين ، ومن أعوان الحكم الفرنسي : أراد أن يقتل كل يوم
عدداً من الأهلين بدون أدنى سبب ، سوى إشاعة الإرهاب في نفوس سكان
القاهرة ، حتى لا يقوموا بثورة على الفرنسيين في أنشاء اشتباك الأخيرين
في الحرب ضد العثمانيين في أبي قبر ، ووقف المشايخ في وجه المحافظ يطالبونه

(١) تحمل عبارة الجبرق دليلاً جديداً على الطابع الإسلامى للمجتمع ، وأن الجنسيات وسمياتها
لم تكن تفرق بين المسلمين .

(٢) كان إيراد الجبرق على هذا النحو لا يخلو من المبالغة ؛ لأن العثمانيين لم يقتربوا من
الإسكندرية ، بل ظلوا مرابطين في أبي قبر ، بعد أن أحرزوا الانتصارات الخاطفة .

(٣) الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٧ .

(٤) كان الفرنسيون قد عزلوا في ١٤ من أكتوبر ١٧٩٨ المحافظ السابق محمد المسلماني الذي
كان قد عين بناء على اقتراح أعضاء ديوان القاهرة في أول إنشاء هذا الديوان ، وصدر قرار في ذات
اليوم بتعيينه وكيلاً لأمير الحج ، وعين الفرنسيون مكانه مصطفى أغا محافظاً للقاهرة ، وظل
في منصبه حتى أتى مصره في ثورة القاهرة الثانية .

بإطلاق سراح المعتقلين قبل أن يتم قتلهم ، وتصدى الشيخان محمد المهدي ومصطفى الصاوي للمحافظ ، وأخذوا يعنفانه على تصرفاته ، وينذرانه بسوء العاقبة ، وتدخل الجنرال دوجا Dugua بين أعضاء الديوان وبين المحافظ . وازدادت مخاوف الجنرال حين نقل إليه البعض أن سكان القاهرة يتأهبون للثورة على الفرنسيين ، فأرسل الجنرال دوجا في طاب الشيخ المهدي « وتكلم معه في شأن ذلك وحاججه ، وأصبحوا فاجتمعوا بالديوان ، فقام المهدي خطيباً ، وتكلم كثيراً ، ونفى الريبة ، وكذب أقوال الأخصام ، وشدد في تبرئة المسلمين عما نسب إليهم^(١) » ، ويعلق الجبرتي على موقف الشيخ المهدي بقوله : « وهذا المقام من مقاماته المحموده » :

ويقرر الفرنسيون أن الصدر الأعظم كان متصلاً بعلماء الأزهر أعضاء الديوان ، وكان هؤلاء المشايخ يطلبون منه أن يعتذر نيابة عنهم للسلطان عن مظاهر الود الذي يبدوونه في العلن للفرنسيين ، ويؤكدون للصدر الأعظم في خطاباتهم أن هذا العطف الظاهري يخفي وراءه فكرة مسبقة بتأييد السلطان ونبد الفرنسيين ، كما كانت توجد مراسلات سرية بين معظم مشايخ الأزهر أعضاء الديوان ، وبين قادة الجيش العثماني الذي كان يتجمع في دمشق :

ووقع اختيار السلطات الفرنسية في القاهرة على بوسيلج Poussielgue مدير الشؤون المالية للجيش ، ليراقب عن كثب تصرفات علماء الأزهر أعضاء الديوان ، ويوافي بها بونابرت في أبي قير ، ويصفه أحد كبار المؤرخين والسياسيين الفرنسيين بأنه مراقب ذو نظر ثاقب ، ورأى سديد^(٢)

(١) الجبرتي ، مصادر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٥ .

2) Reybaud Louis et autres, ouvr. cit., t. IV, p. 229.

observateur judicieux et fin ، وفي خطاب بعث به في السادس من أغسطس ١٧٩٩ إلى بونايرت في أبي قير عبر بوسيلج عن رأيه في علماء الأزهر أعضاء الديوان فقال : إن معظمهم خونة أو متعصبون ، وتكلم ريبو Reybaud عن مسلك أعضاء الديوان إبان الفترة العصبية التي واجهها الفرنسيون بنزول العثمانيين في أبي قير فقال : « وفي كل يوم كانت تقع حوادث جديدة ، تكشف عن هذا التغير في مسلك الديوان ، وفي اتجاهه ضد الفرنسيين ، فتارة كان يتجاوز اختصاصاته ، ويسىء استغلال سلطته بصورة لا يمكن احتمالها ، وتارة أخرى كان يحدث صدام بين أعضاء الديوان وبين رؤساء الشرطة من أجل إطلاق سراح مسلم مذنب ، وتارة ثالثة كان يعتمد إلى تخفيض الضرائب المقررة على مشايخ البلاد ، للإضرار بمصالح جامعي الضرائب الأقباط . وفي كل مناسبة كانت تبدو على أعضائه روح جديدة كانت تتسم بالعداء للغزاة الذين استولوا على مصر ، وكانت مصالح أخرى هي التي أوحى بهذه الروح الجديدة المعادية » :

وقابل علماء الأزهر بفتور ووجوم شديدين الأنباء التي تعاقبت بعد ذلك عن النكسة التي حلت بالعثمانيين في موقعة أبي قير البرية (٢٥ من يوليو ١٧٩٩) ووقوع مصطفى باشا القائد العثماني في الأسر ومعه ثلاثة آلاف جندي ، عدا ثمانية آلاف جندي بين قتيل وغريق وجريح ، واستيلاء الفرنسيين على مدافع الجيش العثماني وذخيرته : ولاحظ الفرنسيون الكتابة التي علت وجوه أعضاء الديوان ، فازدادت نفقتهم عليهم ، وأمرت السلطات الفرنسية في القاهرة بإطلاق المدافع من القلعة ، وعرض كتائب الجيش في شوارع القاهرة وإقامة

حفلات ابتهاجاً بانتصار الفرنسيين في معركة أبي قير البرية ، ومع ذلك فقد ظل علماء الأزهر على حالتهم النفسية المكتئبة :^(١)

وكان بونابرت قد أمر بترحيل الأسرى العثمانيين من أبي قير إلى القاهرة ، فلما بلغوها أشار بعرضهم في الأزبكية ، ليراهم سكان العاصمة ، ثم أمر بأن^(٢)

(1) Le Divan lui même avait des vœux secrets en faveur des Osmanlis, et cherchait peu à cacher sa joie des premiers succès de Moustafa - Pacha.

Plus tard même, et après que le canon de la citadelle eut annoncé l'éclatante victoire d'Abouqyr, l'attitude de cette assemblée resta froide et peu affectueuse. Loin d'accueillir, comme autrefois, avec un plaisir enthousiaste, ce succès des armes françaises, elle parut s'en soucier à peine,...

Pour un œil de longue portée, il était visible que la plupart des cheyks du Divan subissaient alors des influences extérieures. Une correspondance secrète existait entre eux et les chefs des troupes ottomanes, qui se formaient dans les plaines de Damas.... Le Grand Vizir lui-même se trouvait en relations avec les cheyks et les ulémas, et ceux-ci, dès cette époque, cherchaient à excuser, aux yeux du Sultan, leurs sympathies publiques pour les Français, par l'arrière-pensée d'une trahison en faveur de la Porte.

Chaque jour, des faits nouveaux venaient trahir ce changement de direction dans le Divan. Ses empiètements, ses abus de pouvoir devenaient intolérables. Ici, c'était un conflit avec les chefs de la police, pour faire relâcher un coreligionnaire coupable; là, c'étaient des réductions accordées sur l'impôt aux cheyks-el-beled, des dégrèvements (*sic*) prononcés au détriment des percepteurs coptes, partout enfin une tendance nouvelle se révélait, hostile aux conquérans (*s/c*) de l'Egypte et conseillée par d'autres intérêts." Op. cit., pp. 226-228.

(٢) رأى بونابرت لدواعي الأمن ألا يدخل مصطفى باشا القائد العثماني الأسير مدينة القاهرة ، فأرسله مع ابنه إلى الجيزة ، حيث أقاما في قصر مراد بك ، وأمر بونابرت بمعاملة كريمة انظر :

Daressy (G.); Moustapha pacha, le prisonnier d'Aboukir. (Bulletin de l'Institut d'Egypte, t. XI, session 1928-1929, pp. 43-70.)

أما سائر الأسرى فقد اقتيد بعضهم إلى قلعة الجبل ، والبعض الآخر إلى قلعة سلطانية (جامع الظاهر) ، وأبقى الفرنسيون البعض الثالث في الإسكندرية .

يطافت بهؤلاء الأسرى في طرقات القاهرة ، ليبدد أى شك خامر القاهريين في انتصار الفرنسيين ، ويقول نقولا ترك : « حصل عند أهل القاهرة قهـر عظيم^(١) » ، أى انتابهم حزن شديد عندما تأكدوا من هزيمة العثمانيين :

وقف بونابرت ، عقب وصوله إلى القاهرة ، على حقيقة مشاعر المصريين بعامة ، وعلماء الأزهر أعضاء الديوان بخاصة ، وكان بوسيلج قد أوضح له ما أجمله في تقاريره إليه ، من ظهور الروح العدائية على المشايخ العلماء ، وانتهاز فرصة حضورهم إليه للسلام عليه بعد عودته من الإسكندرية ، كما يقضى عليهم واجبهم كأعضاء في الديوان ، فوجه إليهم قارصن الكلم ، وأنهى باللائمة على الشيوخ الصاوى والمهدى : وأمامنا صورتان لهذا المشهد المثير بين بونابرت وأعضاء الديوان ، كتبهما معاصران للحملة ، هما الجبرقى والمعلم نقولا ترك : أما الأول فيقول : « ولما استقر سارى عسكر فى منزله ذهب للسلام عليه المشايخ والأعيان وسلموا عليه ، فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان : إن سارى عسكر يقول لكم إنه لما سافر إلى الشام كانت حالتكم طيبة فى غيابه ، وأما فى هذه المرة فليس كذلك ، لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيين لا يرجعون ، بل يموتون عن آخرهم ، فكنتم فرحانين ومستبشرين ، وكنتم تعارضون الأغا فى أحكامه ، وأن المهدى والصاوى ما هم بوفو ، أى ليسوا بطيبين ونحو ذلك^(٢) » : أما نقولا ترك فيذكر أن بونابرت قال لهم إنه كان يظن أن المصريين يكونون له حبا ، ويفرحون لانتصاره ، ويتألمون لهزيمة ، ولكنه لمس عكس ذلك تماماً ، ومضى يقول فى حديثه للمشايخ إنه قدم لهم كل مظاهر الحب ، وإنه أكد لهم مراراً أنه يجب النـبي

(١) مذكرات نقولا ترك ، ترجمة ونشر وتعليق الأستاذ فيت ، ص ٩٩ .

(٢) الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٧ - ٧٨ .

— صلوات الله عليه — لأنه بطل صنديد ، قاد غزوات حربية ناجحة ، وخلص من حديثه إلى القول بأنهم يشعرون بنفور من الفرنسيين ، ويظنون بهم الظنون ، « وسوف يأتي يوم تنبشون فيه الأرض بحثاً عن عظام الفرنسيين ، وتسقونها بدموعكم^(١) » : فالروايتان العريبتان متفقتان في وصف مشاعر الاستياء التي استحوذت على بونايرت من مسلك المصريين بعامية ، وعلماء الأزهر بخاصة إزاء الحكم الفرنسي ، وكيف كانوا يستبشرون بكل أزمة يتعرض لها الفرنسيون ، أملاً في اهتزاز مركزهم ، والإطاحة بحكمهم :

ومن الأدلة على أن علماء الأزهر كانوا يرون أن عضوية الديوان لا تشرف صاحبها ، أن الاختيار وقع على الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ ليكون عضواً في ديوان القاهرة ، عندما أعيد تشكيله على نسق جديد ، على عهد الجنرال مينو ، وأشار الجبرتي إلى هذا التشكيل الجديد لديوان القاهرة في حوادث شهر جمادى الآخرة ١٢١٥ (٢٠ أكتوبر — ١٧ نوفمبر ١٨٠٠) ، وذكر اسمه بطريقة ملتوية مبهمة ، بعيدة عن الصراحة التي عرفت عنه : قال « شرعوا في ترتيب الديوان على نسق غير الأول ، من تسعة أنفار متعممين لا غير ، وليس فيهم قبضي ولا وجاقلي^(٢) ، ولا شامي ولا غير ذلك ، وليس فيه خصوصي وعمومي على ما سبق شرحه ، بل هو ديوان واحد مركب من تسعة رؤساء ،

(١) النص الحرفي لنقولا ترك هو : « سوف يأتيكم زمان الذي به تفتشون على عظام الفرنسيات وتبكون عليها » ص ٥٩ ، وقد أثبتنا في المثلث ترجمتنا للنص الفرنسي الذي كتبه الأستاذ فيث ، وهو :

“Une jour viendra où vous déterrerez les ossements des Français pour les arroser des vos larmes” , p. 78.

وانظر بخصوص هذا الحديث الذي دار بين بونايرت وبين علماء الأزهر .

Chauvin; ouvr. cit., pp. 20-21.

(٢) وجاقلي : جمعها وجاقلية ، مشتقة من الكلمة التركية ، أوجاق بمعنى الموقد ، ثم استخدمت بمعنى فرقة عسكرية ، والوجاقلي أحد العسكريين .

هم : الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان ، والمهدي كاتب السر ، والشيخ الأمير ، والشيخ الصاوى ، وكاتبه ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ خليل البكرى ، والسيد على الرشيدى نسيب سارى عسكر ، والشيخ الفيومى : « وبدلاً من أن يذكر الخبر فى اسمه صريحاً عمد إلى التعمية ، وعبر عن اسمه بكلمة « كاتبه » ، وقد وردت هذه اللفظة بعد اسم الشيخ الصاوى ، وقد يختلط الأمر على البعض ، إذ يظنون أن المقصود هو كاتب الشيخ الصاوى ، ولا يمكن أن يكون هذا الأسلوب فى التعبير عن نفسه مظهراً من مظاهر تواضع العلماء ، لأنما كان شعوراً منه بالخرج يفتعل فى أعماق نفسه »

أزمة عدم ثقة

والحق أنه كانت هناك أزمة عدم ثقة بين الأزهر والاحتلال الفرنسى ، وقد أظهر الفرنسيون شعوراً عدائياً سافراً نحو علماء الأزهر ، بعد إخماد ثورة القاهرة الثانية التى اشتعلت فى ٢٠ مارس ١٨٠٠ ، واستطالت كما ذكرنا ، ثلاثة وثلاثين يوماً حتى ٢١ أبريل ، لم تكن زعامة هذه الثورة خالصة لعلماء الأزهر وغيرهم من قطاعات الشعب المصرى ، ولكن شاركهم فى التحريض عليها وزعامتها وقيادتها العسكريون العثمانيون ، والأمراء المحاليك . كما أنها بدأت فى حى بولاق ، عندما تنادى إليها الحاج مصطفى البشتيلى ، ومع ذلك فقد صب الجنرال كليبر جام غضبه على كبار المشايخ علماء الأزهر ، ودعاهم إلى الاجتماع به فى صباح يوم الجمعة ٣ من مايو ١٨٠٠ (٨ من ذى الحجة ١٢١٤) ، ولم يدر بخلداهم شئ عن المفاجأة المفزعة التى أعدها لهم كليبر ،^(١) والى جعلت هذا الاجتماع هو أحلك اجتماع شهدوه ، قابلهم مقابلة جافة ،

(١) انظر تفصيلات وافية عن هذا الاجتماع فى مؤلفنا « عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية » .
القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٧٨ - ٨٣ تحت عنوان « الاجتماع الأخير » .

ونعى عليهم مساكنهم إبان الثورة ، وقرر أن يضرهم على الفرنسيين أكثر من نفعهم لهم ، « لأنكم إذا حضر أخصامنا قتم معهم ، وكنتم وإياهم علينا ، وإذا ذهبوا رجعتم إلينا معتذرين ، فكان جزاؤكم أن نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق من قتلكم عن آخركم ، وحرق بلدكم ، وسبي حريمكم وأولادكم » ، ودافع علماء الأزهر عن تصرفاتهم ، فقالوا إن الفرنسيين قد أذاعوا على الشعب نصوص اتفاقية العريش ، متضمنة جلاء القوات الفرنسية عن مصر « وعرفتمونا أننا صرنا في حكم العثماني من ثلثي يوم في شهر رمضان ، وأن البلاد والأموال صارت له ، وخصوصاً وهو سلطاننا القديم ، وساطان المسلمين »^(١) ، وقد أنهى كليبر المناقشة بأن أبلغهم أنه قرر فرض غرامة حرية على سكان القاهرة ، حددتها بأثنى عشر مليون فرنك^(٢) ، وخص علماء الأزهر بنصيب موفور من هذه الغرامة الفادحة :

وكان على رأس هؤلاء الشيخ محمد السادات ، والشيخ محمد الجوهري ، والشيخ فتوح الجوهري ، والشيخ مصطفى الصاوي ، والشيخ العناني وغيرهم ، وخرج كليبر وأغلق عليهم الباب ، ولما أرادوا الانصراف منعهم الحراس ، وحيل بينهم وبين أداء صلاة الجمعة ، واستمر الحراس متحفظين على علماء الأزهر . واستقر الرأي على إطلاق سراح المشايخ الذين لديهم مدخرات مالية تكفي لتغطية نصيبهم المقرر عليهم أداؤه من الغرامة الحرية ، فكان الواحد منهم ينصرف إلى داره لإحضار قيمة الغرامة ، وهو محاط بجنود مدججي السلاح ، يذهبون ويعودون به لاستيفاء المبلغ . أما غيرهم من عجزوا عن دفع المبلغ بأكمله ، فقد اعتقلوا في أماكن متفرقة في القاهرة ، وامتهنت كرامتهم ، بل أهدرت آدميتهم في المعتقلات :

(١) الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٠٧ .

(٢) ذكر الجبرق أنها عشرة ملايين فرنك ، بينما أجمعت المصادر الفرنسية على أنها ١٢ مليوناً .

وقد مر بنا كيف سيق الشيخ محمد السادات إلى القلعة ، حيث اعتقل في أحد المخازن بها ، حيث كان ينام على التراب ويتوسد بحجر ، ويضرب ضرباً مبرحاً ، صباحاً ومساءً .

وظلت نظرة الفرنسيين إلى الأزهر يشوبها الشك والظنون ، والترصن بعلماء الأزهر ، على أساس أنهم الهيئة القديرة على تحريك الشعب ، وإثارة مزيد من المتاعب في وجه الحكم الفرنسي ، وازداد الفرنسيون إمعاناً في سياسة الإرهاب ، ونхим على القاهرة جو كثيب ، واجتمعت على سكانها أهوال الحرائق ، والقتل ، والتدمير ، والمجاعة ، والاعتقال ، والتعذيب ، وفرض الغرامة الخربية الفادحة ، وغير ذلك من صنوف التنكيل . وحل عيد الأضحى في العاشر من ذى الحجة ١٢١٤ (٥ من مايو ١٨٠٠) ، « ومضى ولم يلتفت إليه أحد ، ولم يشعر به أحد ، ونزل بهم من البلاء والذل ما لا يوصف : : : : وضاق خناق الناس ، وتمنوا الموت فلم يجدوه » .^(١)

بغية الأزهر في بعض طلابه

قويت شكوك الفرنسيين في موقف رجال الأزهر من الاحتلال الفرنسي بعد مصرع الجنرال كليبر في ١٤ من يونيو ١٨٠٠ ، فقد كان قاتله سليمان الحلبي من طلاب الأزهر القدسي ، وقضى في رحابه ثلاثة أعوام ثم غادر مصر ، وعاد إليها بعد ذلك في ١٤ من مايو ١٨٠٠ يعتقد أنه جاء مغازياً في سبيل الله ، ونزل في الأزهر وأقام به شهراً يدرس خطوات وتحركات كليبر ، وتعرف بأربعة من طلاب الأزهر ، أفضى إليهم بعزمه على اغتيال الجنرال كليبر .

(١) الجبرقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٠٩

وكان التحقيق في القضية يتجه في أحيان كثيرة إلى ذكر الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، وإلى اصطيداد القرائن أو الأقوال التي تثبت علمه أو علم غيره من كبار العلماء بنية القاتل^(١) ، ولكن لم يسفر التحقيق في النهاية عن شيء من ذلك ، وصدر حكم المحكمة العسكرية - التي كانت تتكون من تسعة أعضاء من كبار العسكريين - بإعدام سليمان الحلبي ، وأربعة من طلاب الأزهر ، ونص الحكم على وسائل تنفيذ أحكام الإعدام من الخازوق^(٢) ، إلى قطع الرؤوس ، إلى إحراق بعض الجثث ، وترك البعض الآخر تفرسها الجوارح^(٣) . وجاء في حيثيات الحكم أن المحكمة وهي تحدد طريقة تنفيذ الإعدام في المتهمين

(١) محمد عبد الله عنان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٠ .

ويقول الجبرق : إن الفرنسيين أمروا بإحضار الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ أحمد المريشى قاضى القضاة ، وحجزوهما إلى منتصف الليل ، ثم ألزموهما بإحضار الأشخاص الذين وردت اتهامهم على لسان المتهم ، فذهب الشيخان في صحبة الأغا وهو المحافظ إلى الجامع الأزهر ، حيث تم القبض على ثلاثة من المطلوب القبض عليهم ، ولم يجدوا الرابع .

ج ٣ ، ص ١١٦ .

(٢) كان الأتراك العثمانيون يستخدمون الخازوق كوسيلة من وسائل ثلاث في إعدام المذنبين أو الأسرى ، أما الوسيلتان الأخريان فكانتا المنشار والسيف ، وكان السلطان محمد الفاتح يستخدم الطرق الثلاث ، فكانت أوروبا تعرف طريقة الخازوق ، وقد دخلت هذه الطريقة إلى مصر في عصر دولتي المماليك .

انظر مرفعاً لطريقة استخدام الخازوق في الإعدام ، وشرح الوسيلتين الأخريين في مؤلفنا : « أوروبا في مطلع المصور الحديثة » . القاهرة ، الجزء الأول ، ١٩٦٩ ، ص ٦٣٧ .

(٣) نص الحكم على أن تحرق اليد اليمنى لسليمان الحلبي ، ثم « يتخوزق » أى يعدم فوق الخازوق وتترك جثته حتى تفرسها الجوارح ، وأن يعدم شركاؤه الأربعة بقطع رؤوسهم ، ثم توضع فوق نهايت ، ثم تحرق بقية جثثهم ، وأن تنفذ أحكام الإعدام أمام الجنود والأهالي فوق تل المقارب بجبهة الناصرية ، على مقربة من القلعة التي شيدها الفرنسيون في هذه الجهة ، وعرفت باسم طابية قاسم بك بالناصرية ، أو طابية المجمع العلمى . Fort de l'Institut

قد وضعت في اعتبارها طريقة الإعدام التي تستخدم في مصر في قضايا الخنايات الكبرى والتي تتناسب مع شخصية المحنى عليه^(١).

ويعلق الأستاذ عنان على إعدام الطلاب بقوله : « وهكذا فجمع الأزهر مرة أخرى ، في ظل الاحتلال الفرنسي ، في عدد من طلابه ، بعد أن فجع في ثورة القاهرة الأولى ، في عدد من علمائه : بيد أن الفجعة كانت في كل مرة عنوان زعامته^(٢) » :

إغلاق الأزهر

وعلى الرغم من أن التحقيق لم يثبت إدانة علماء الأزهر في مصرع الجنرال كليبر ، إلا أن الفرنسيين لم تطمئن قلوبهم إلى سلامة موقف هؤلاء العلماء . وكان في تقديرهم للموقف أن إقامة القاتل ثلاثين يوماً في الأزهر ينسج خيوط فعلته ، دليل على أن الأزهر هو المكان « الصحي » الذي تدبر فيه المؤامرات الكبرى لاغتيال كبار القادة ، وللإطاحة بالحكم الفرنسي . وبدأت من الجنرال مينو في مستهل عهد القيادة الثالثة للحملة تصرفات استفزازية ، فقد ذهب إلى الأزهر في ٢١ من يونيو ١٨٠٠ ومعه الجنرال بليار Belliard الحاكم العسكري لمدينة القاهرة والأغا - المحافظ - وطافوا في أرجاء الجامع ، وأمرؤا بحفر بعض الأماكن بداخله ، بحجة التفتيش على الأسلحة ، ثم عمالوا حصاراً لعدد المجاورين وهم طلاب الأزهر ، وكتبوا اسماءهم في قوائم ، ثم أمرؤا

(1) Recueil des pièces relatives à la procédure et au jugement de Solymán el-Halaby, assassin du Général en chef Kléber et traduction turc des pièces. Au Caire, an VIII.

وقد أعيد نشر حيثيات الحكم في :

Revue d'Egypte, II et III, 1895-1896.

وجاء في النص العربي لحيثيات الحكم ، الذي نشره الجبرقي : « ثم اتفقوا جميعهم - أي أعضاء المحكمة - أن يعذبوا المذنبين ، ويكون لائق للذنب الذي صدر « ج ٣ ، ص ١١٧ - ١٣٣ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨١

بالأبيات أحد من الغرباء في الجامع ، وألا يأوى إليه أفاق ، وأخرجوا منه الطلاب العثمانيين ، ومنهم الشوام ، واشتم سائر الطلاب أن السلطات الفرنسية تبنت لهم أمراً ، ورأوا أن يفسدوا عليها خططها ، فشرعوا في نقل متاعهم ، وكتبهم ، وإخلاء الأروقة ، ونقل الكتب الموقوفة بها إلى أماكن خارجة عن الجامع^(١) .

ورأى الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر وزملاؤه أن بقاء الجامع مفتوحاً في مثل هذه الظروف العصبية التي تحتازها البلاد ، أمر لا يخلو من أخطار ، ومن الصعب أن يحسن الفرنسيون الظن بالأزهر ، بعد الأحداث المتعاقبة التي اهتز لها الحكم الفرنسي ، فقر رأى العلماء على أنه من الأفضل إغلاق الجامع كلية ، وكان يترتب على هذا الإغلاق إيقاف الدراسة في الأزهر وتعطيل شعائر الصلاة . وفي عصر ذات اليوم ذهب وفد من العلماء يتكون من المشايخ الشرقاوى والمهدى والصاوى إلى الجنرال مينو ، واستأذنه في إغلاق الجامع وتسميره ، وشرحوا له وجهة نظرهم ، فقالوا إنهم يهدفون إلى « منع الريبة بالكلية ، فإن للأزهر سعة لا يمكن الإحاطة بمن يدخله ، فربما دس العدو من يبيت به ، واحتج بذلك على إنجاز غرضه ، ونيل مراده من المسلمين والفقهاء ، ولا يمكن الاحتراس من ذلك ، فأذن كبير الفرنسيين بذلك لما فيه من موافقة غرضه باطناً^(٢) . وفي صباح اليوم التالي - الجمعة ٢٨ من محرم سنة ١٢١٥ (٢١ من يونيو سنة ١٨٠٠) تم إغلاق الجامع وتسمير أبوابه من جميع الجهات . وكانت هذه أول مرة في تاريخ الأزهر يغلق فيها بعد أن لبث منذ إنشائه نحو ثمانية قرون ونصف قرن مفتوح الأبواب لكل طالب وقاصد^(٣) .

(١) الجبرق، مصدر سبق ذكره، ج ٣ ، ص ١٣٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) محمد عبد الله عنان ، تجميع سبق ذكره ، ص ١٨٣ .

وكإجراء وقائي تم إغلاق وتسمير جامع محمد بك أبي الذهب المواجه للجامع الأزهر ، وأخرج من المدرسة القائمة فيه الطلبة الأتراك^(١) :

وظل الأزهر مغلقاً زهاء عام ، ولما أذيعت أنباء الصلح ، وشرع الفرنسيون في الجلاء بادر أولو الأمر في يوم الأربعاء ١٩ من صفر ١٢١٦ (الثاني من يوليو ١٨٠١) بفتح أبوابه وكنسه وتنظيفه . ومن المصادفات الغريبة أنه في ذات هذا اليوم رحل عن القاهرة مع الفرنسيين برتلمي اليوناني وكثير من أعوان الاحتلال الفرنسي من الأقباط والمسلمين على حد سواء ، وكذلك نصارى الشوام والأروام :

وقد حرص يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم على زيارة الجامع الأزهر في ذات الأسبوع الذي أعيد فيه افتتاحه ، وطاف بمقصورته وأروقته ، وأنعم على خدم الأزهر بالعطايا ، ثم قفل راجعاً إلى معسكره بناحية الحلبي بشاطئ النيل في بولاق ، بعد أن قضى في رحاب الجامع الأزهر « ساعة لطيفة »^(٢) :

* * *

هذه بعض صور من مقاومة الأزهر للاحتلال الفرنسي ، وهي صورة حافلة بأروع مظاهر الكفاح والنضال في تاريخ مصر ، والإسلام ، والعروبة ، في وجه أول موجة من موجات الزحف الأوروبي الاستعماري نحو الشرق الإسلامي في التاريخ الحديث :

وأخفقت سياسة بونابرت الإسلامية إخفاقاً ذريعاً ، لأنه استنام إلى إظهار الاحترام العميق للدين الإسلامي ، أو التظاهر بابتداء مثل هذا الاحترام ، واطمأن إلى المشاركة الإيجابية في الأعياد والمواسم ، والحفلات الإسلامية ،

(١) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

(٢) البهوتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٨٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

والتقرب إلى علماء الأزهر ، وهم لم يبادلوه ودّاً بود : وكانت مجاملاتهم له من سبيل المداراة ، ولم يقدر بونابرت تمام التقدير أهمية العازل الدينى الذى كان يفصل بين الشعب المصرى والفرنسيين ، فى الوقت الذى كان الفرنسيون بلجراتهم وتصرفاتهم وأفعالهم يعصفون بالسياسة الإسلامية للاحتلال : وكان أن اعتمد بونابرت على الحديد والنار فى ضرب الانتفاضات التى كان يقوم بها الشعب فى كل حين وآن ، مما جعل إقامة الفرنسيين فى مصر ، إقامة قلقة غير مستقرة .

وكان الأزهر موثلاً المعارضين للحكم الفرنسى ، وفى رحاب الأزهر خطط علماءه لثورة القاهرة الأولى ، وتنادوا إليها ، وأسهموا فيها ، وتحملوا ويلاتها ، وامتنعت حرمت المسجد ، وفجّع الأزهر فى ثلاثة عشر هاملاً من علمائه :

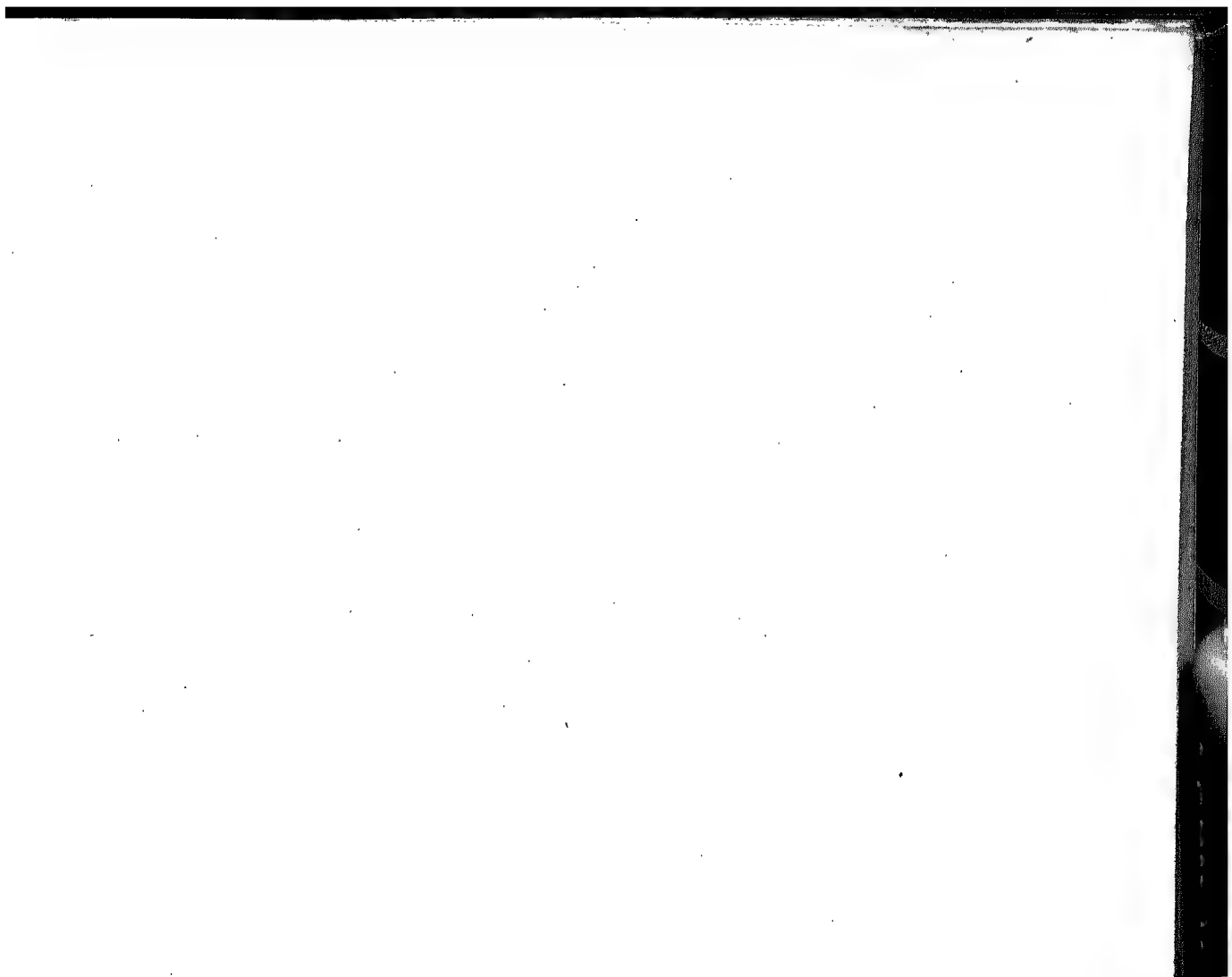
وفى أعقاب ثورة القاهرة الثانية تعرض كبار علماء الأزهر لأقسى أنواع التعذيب والإيلام ، وفرضت عليهم الغرامات الحربية الفادحة ، وبيعت ممتلكاتهم ، والحلى الذهبية لزوجاتهم ، استيفاء للغرامات التى فرضت عليهم . وتفنن الفرنسيون فى تقديم وجبتى الإفطار والعشاء للشيخ محمد السادات فى معتقله ، وكان قوام كل وجبة خمس عشرة عصاً ، تنال على جسم هذا الشيخ الجليل الطاعن فى السن ، الذى وهن العظم منه ، واشتعل رأسه شيباً .

وعقب مقتل كليبر فجّع الأزهر فى بعض طلبته : قطعت رؤوسهم ، ووضعت فوق (نابيت) ، وأحرقت بقية أجزاء جثثهم . أما سليمان الحبي ، الأزهرى التعليم ، فقد « خوزقه » الفرنسيون ، وبينما كان الاحتلال الفرنسى يلفظ أنفاسه الأخيرة صدرت أوامر القادة الفرنسيين باعتقال شيخ الأزهر وكبار العلماء فى معتقل القلعة : وفى هذا الصدد يقول الشيخ عبد الله الشرقاوى :

« وقد حبسونا في القلعة مع إخواننا من العلماء ، خوفاً من قيام أهل البلد عليهم ، كما وقع منهم سابقاً ، فكننا في القلعة مائة يوم ، من تسعة ذى القعدة إلى أواخر صفر سنة ست عشرة ومائتين وألف . وسبب خروجنا من الحبس وقوع الصلح بين المسلمين وبين الفرنسيين^(١) ، وقد تخللت فترة الاعتقال وقفة عرفات ، وأيام عيد الأضحى ، ورأس السنة الهجرية ، ويوم عاشوراء ، قضوها في غيابة المعتقل . وهكذا ظلت أزمة عدم الثقة تخيم على العلاقات بين الأزهر والسلطات الفرنسية ، حتى آخر أيام الاحتلال ، وأثبت الصراع المرير الذي خاضه الأزهر ضد الفرنسيين أنه يحتفظ بحيوية دافقة ، تظهر عند الملهمات ، وأنه كان يشكل مركز الصدارة في الحياة العامة ، في شتى جوانبها السياسية ، والدينية ، والتعليمية ، والفكرية :



(١) الشيخ عبد الله الشرقاوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨ .



من أهم المصادر والمراجع التي ورد ذكرها في هوامش هذا البحث

أولاً : المصادر والمراجع العربية

١ - أحمد حافظ عوض :

فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت في مصر : القاهرة ، ١٩٢٥

٢ - الجبرتي :

عبد الرحمن حسن الجبرتي (الشيخ) :

مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين :

مخطوط من ثلاث نسخ في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ،

تحمل الأرقام الآتية على التوالي :

١٣٢٨ ، تاريخ ، المكتبة التيمورية :

١٠١ ، تاريخ مكتبة الأمير مصطفى فاضل :

٣٣٠ ، تاريخ :

٣ - الجبرتي :

عبد الرحمن حسن الجبرتي (الشيخ) :

عجائب الآثار في التراجم والأخبار : القاهرة ، طبعة بولاق ،

١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) أربعة أجزاء :

- ٤ — أمين سامى باشا :
تقويم النيل ، الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٩٢٨ هـ
- ٥ — شفيق غربال (محمد) :
الجنرال يعقوب ، والفارس لاسكاريس ، ومشروع استقلال مصر
فى سنة ١٨٠١ . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٣٢ هـ
- ٦ — شفيق غربال (محمد) :
منهاج مفصل لدروس العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية على
ماهى عليه اليوم : مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة ، ١٩٦١ هـ
- ٧ — عبد الرحمن الرافعى :
تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر : القاهرة ،
الجزء الأول الطبعة الرابعة ، ١٩٥٥ هـ
الجزء الثانى الطبعة الثالثة ، ١٩٥٨ هـ
- ٨ — عبد الرحمن زكى (دكتور) :
موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام هـ القاهرة ، ١٩٦٩ هـ
- ٩ — عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) :
عمر مكرم ، بطل المقاومة الشعبية : القاهرة ، ١٩٦٧ هـ
- ١٠ — عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) :
دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر إبان الحكم العثمانى هـ
بحث نوقش فى الندوة العلمية الدولية لألفية القاهرة (مارس-إبريل
١٩٦٩) ، ونشر فى المجلد الثانى من بحوث الندوة . مطبعة دار الكتب ، القاهرة ،
١٩٧١ ، ص ٦٦٧ - ٧٢٥

- ١١ — عبد الله الشرفاوى (الشيخ) :
تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين : القاهرة ،
طبعة بولاق ، ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ - ١٨٧٠ م) :
- ١٣ — على مبارك باشا :
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة
والشهرة . القاهرة ، طبعة بولاق ، ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) : عشرون جزءا :
- ١٤ — كرستوفر ج : هيرولد :
بونايرت في مصر : ترجمة فؤاد اندراوس : القاهرة ، ١٩٦٧ :
- ١٥ — محمد حافظ غانم (دكتور) :
مبادئ القانون الدولى العام : دراسة لضوابطه الأصولية ولأحكامه
العامة : القاهرة ، ١٩٦١ :
- ١٦ — محمد رفعت رمضان (دكتور) :
على باب الكبير . القاهرة ، (لم تذكر سنة الطبع) ، الناشر : دار
الفكر العربى .
- ١٧ — محمد عبد الله عنان :
تاريخ الجامع الأزهر : القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨ :
- ١٨ — محمد فؤاد شكرى (دكتور) :
الحملة الفرنسية وظهور محمد على : القاهرة ، (لم تذكر سنة الطبع)
الناشر : دار المعارف :
- ١٩ — محمد فؤاد شكرى (دكتور) :
عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ، ١٩٥٢ :

٢٠ — نقولا الترك (المعلم) :

ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية :

نشر وترجمة وديجرانج ، باريس ، ١٨٣٩ :

٢١ — نقولا ترك (المعلم) :

مذاكرات نقولا ترك : نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فيث چاستون :

القاهرة ، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، ١٩٥٠ :

٢٢ — فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة : طبعة سنة ١٩٥١ :

ثانياً : المصادر والمراجع غير العربية

1 — Afaf Loutfi El - Sayed, Dr. : The Role of the 'Ulamā' in Egypt during the early nineteenth century.

A study presented to the Conference on the Modern History of Egypt, held in April, 1965, at the School of Oriental and African Studies in the University of London.

2 — Bainville Jacques ; L'Expédition Française en Egypte. (1798 - 1801).

dans :

Précis de l'Histoire d'Egypte, par divers historiens et archéologues. 4 vols. tome troisième. Le Caire, 1933, deuxième partie.

3 — Belliard; Mémoires du comte Belliard, lieutenant - général, pair de France, écrits par lui - même, recueillis et mis en ordre par M. Vinet, un de ses aides de camp. Paris, 1842, 3 Vols.

4 — Berthier (général); Relation des campagnes du général Bonaparte en Egypte et en Syrie. Paris, an IX (1801).

5 — Bourienne (Louis Antoine Fauvelet de); Mémoires de M. Bourienne, ministre d'Etat, sur Napoléon, le Directoire, le Consulat, l'Empire et la Restauration. Paris, 1829, 10 vols.

6 — Chabrol de : Essai sur les mœurs des habitants (*sic*) modernes de l'Egypte.

dans :

Description de l'Egypte. Seconde édit. t. XVIII, première partie.

7 — Charles-Roux F.; La politique Musulmane de Bonaparte. Revue des Etudes Napoléoniennes. XIV^e année, t. I, 1925.

8 — ————; Bonaparte, Gouverneur d'Egypte. Paris, 1935.

9 — Chauvin Victor; La Légende Egyptienne de Bonaparte. Mons, 1902.

10 — Copies of Original Letters from the Army of General Bonaparte in Egypt, intercepted by the Fleet under the command of Admiral Lord Nelson. With an English Translation. 1798 - 1799. 2 vols. XXIII - 248 pages; XXXI - 236 pages.

11 — Correspondance de l'Armée française en Egypte, interceptée par l'escadre de Nelson, publiée à Londres, avec une introduction et des notes de la chancellerie anglaise. Traduites en français et suivies d'observations par E. Th. Simon. Paris, an VII (1799).

12 — Courrier de l'Egypte.

جريدة إخبارية سياسية كانت تصدرها الحملة الفرنسية في مصر، وتحتفظ دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة بمجموعتين من أعدادها، تحت رقم 539 ورقم 673 Pér.

13 — Daressy G., Mustapha pacha, le prisonnier d'Aboukir. Bulletin de l'Institut d'Egypte. t. XI, session 1928-1929.

14 — Dehérain H.; L'Egypte turque. Pachas et Mameluks du XVI^e au XVIII^e siècle. L'Expédition du général Bonaparte.

dans:

Hanotaux (Gabriel); Histoire de la Nation Egyptienne. t. V.

15 — Desgranges (ainé); Histoire de l'expédition de Français en Egypte par Nakoula el-Turk, publiée et traduite par M. Desgranges aîné. Paris, 1839.

16 — Denon Vivant; Voyage dans la Basse et la Haute Egypte pendant les campagnes du général Bonaparte. Paris, 1803, Quatrième édition, 2 vols.

17 — Deny; Sommaire des Archives Turques du Caire. Le Caire, 1930.

18 — Description de l'Égypte; ou Recueil des observations et des recherches qui ont été faites en Égypte pendant l'expédition de l'armée française. Paris, seconde édition, dite de Panckoucke. (1821 - 1829), 26 volumes de texte et le même nombre de planches.

19 — Djabarti El, Abd - El-Rahman; Merveilles Biographiques et Historiques, ou Chroniques du Cheikh Abd-El-Rahman El-Djabarti. Traduites de l'Arabe par Chafik Mansour Bey, Abdul Aziz Khalil Bey, Gabriel Nicolas Kahil Bey et Iskender Ammoun Effendi. Le Caire, Imprimerie Nationale, 1888 - 1897. 9 vols.

20 — Dozy; Supplément aux dictionnaires arabes. 2ème édition, Leyde - Paris, 1927.

21 — Galland Antoine, Tableau de L'Égypte pendant le séjour de l'armée française, avec la position et la distance réciproque des principaux lieux de l'Égypte; un coup d'œil sur l'économie politique de ce pays, quelques détails sur ses antiquités, et la procédure exacte de Soleyman, assassin du général Kléber. Paris, 1803, 2 vols.

22 — Geoffroy Saint-Hilaire (E.); Lettres écrites d'Égypte, recueillies et publiées avec une préface et des notes par E. T. Hamy. Paris, 1901.

23 — Gourgaud et Montholon; Mémoires pour servir à l'histoire de France sous le règne de Napoléon, écrits à Sainte-Hélène par les généraux qui ont partagé sa captivité. Paris, 1823, 7 vols.

24 — Guémard G.; Les inscriptions françaises de l'enceinte du Caire.

Communication rapportée à l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, le 28 Septembre 1928. Paris, 1929.

25 — — ; Histoire et bibliographie critique de la Commission des Sciences et Arts de l'Institut d'Égypte. Le Caire, 1936.

26 — Hazlitt William; The Life of Napoleon. New York, 10 vols.

27 — Ibrahima Salama Dr.; L'Enseignement Islamique en Égypte. Le Caire, 1939.

28 — Holt P.M.; Political and Social Change in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic. London, 1968.

This volume contains the essays contributed to a Conference on the Modern History of Egypt, held in April, 1965 at the School of Oriental and African Studies in the University of London.

29 — Jehan d'Ivray (Mme Fahmy Bey); Bonaparte et l'Egypte. Paris, 1914.

30 — Jomard; Description de la ville et de la citadelle du Kaire accompagnée de l'explication des plans de cette ville et de ses environs, et de renseignements (*sic*) sur sa distribution, ses monumens (*sic*), sa population, son commerce et son industrie.

dans :

Description de l'Egypte, t. XVIII, 2ème partie, pp. 113-538.

31 — Lacroix (D.); Bonaparte en Egypte. (1798-1799). Paris, 1899.

32 — La Jonquière (C.); L'Expédition d'Egypte. 1798-1801. Paris, Charles Lavauzelle, 1899-1907. 5 vols.

33 — Martin P.D.; Histoire de l'Expédition française en Egypte (1798-1801) précédée d'un précis de la domination arabe. Paris, 1815, 2 vols.

34 — Meynard Barbier de; Dictionnaire turc-français. Paris, 1881-1886. 2 vols.

35 — Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie, 1798-1799. Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui-même à Sainte-Hélène et publiés par le général Bertrand. Paris, 1847, 2 vols.

36 —————; Correspondance de Napoléon 1^{er}, publiée par ordre de l'Empereur Napoléon III. Paris, 1858-1870, 32 vols. Tomes IV et V: l'Expédition d'Egypte.

37 — Recueil des pièces relatives à la procédure et au jugement de Solyman el - Halaby, assassin du général en chef Kléber et traduction turke des pièces. Au Caire, an VIII.

38 — Reybaud Louis et autres; Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition Française en Egypte, précédée d'une introduction, présentant le tableau de l'Egypte ancienne et moderne, depuis les Pharaons jusqu'aux successeurs d'Ali-bey, et suivis du récit des événemens (*sic*) survenus en ce pays depuis le départ des Français et sous le règne de Mohammed-Ali, d'après les mémoires, matériaux, documens (*sic*) inédits fournis par MM. le comte Belliard, maréchal Berthier, etc., Paris, 1830 - 1836, 10 vols. Les tomes III à VIII sont consacrés à l'histoire de l'expédition française en Egypte, les rédacteurs sont x. - B. Saintine, J. J. Marcel et L. Reybaud.

39 — Rifaat M.; The Awakening of Modern Egypt. London, 1947.

40 — Samuel Bernard; Mémoire sur les monnoies (*sic*) d'Egypte.
dans:

Description de l'Egypte, t XVI, PP. 267 - 506.

41 — Shafik Ghorbal; The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali. A Study in the Diplomacy of the Napoleonic Era based on Researches in the British and French Archives. London, 1928.

42 — Turc Nicolas; Chronique d'Egypte 1798 - 1804; editée et traduite par Gaston Wiet. Le Caire, 1950.

43 — Turk-el Nakoula; Histoire de l'Expédition des Français en Egypte; publiée et traduite par M. Desgranges aîné. Paris, 1839.

44 — Volney Constantin F.; Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785. Paris, 1787.

45 — ———— ; t II. Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785, suivi de considérations sur la guerre des Russes et des Turcs, publiées en 1788 et 1789. Paris, 1822.



رقم الإيداع بدار الكتب ٦٣١٠ لسنة ١٩٧١

 Biblioteca Alexandrina



0236351